مجلد ١ — عدد ٢

نوفمبر ١٩٤٥

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

القاهرة

تنشر مجلة الكاتب المصرى فى عدد ديسمبر

مصر حلقة الاتصال الثقافى بين الشرق والغرب

للدكتور سليمان حزين
أستاذ الجغرافيا بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

•

رحلة فى برقه

للدكتور عزيز سوريال عطيه
أستاذ التاريخ بكلية الآداب بجامعه فاروق الأول

•

بعيداً عن نواة الذرة

للدكتور محمد محمود غالى
العالم الطبيعى المعروف

•

الانسان والعالم فى نظر الراغب الاصفهانى

للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى
الكاتب المعروف

ومقالات وأبحاثاً أخرى

وعدت مجلة « الكاتب المصرى » قراءها بأن تنشر لهم طائفة من المقالات والقصص كتبها الأدباء الأوربيون والأمريكيون خاصة للمجلة . وقد برّت بوعدها فى هذا العدد .

وستنشر فى العدد القادم فيما تنشر من ذلك بحثاً طريفاً كتبه الأديب الفرنسى الكبير جان پول سارتر فى الأدب والدولة .

الكاتب المصرى



ذو القعدة ١٣٦٤ | نوفمبر ١٩٤٥

مجلد ١ — عدد ٢

شاعر الحب والبغض والحرية

كان ذكىّ القلب، حمىّ الأنف، عضب اللسان. وكان قويًّا لايعرف الضعف أبيًّا لايقبـل الضيم، عصيًّا لايطيق الإدعان. وكان حازماً لايحب التردد مقدماً لايحتمل الأحجام. ولم يكن مع ذلك صريح النسب فى قبيلة من القبائل العربيـة القوية أو الضعيفة. ولم تكن قوته وصلابته وحدته تأتيـه من جاه طريف أو تليد، ولا من ثروة عريضة أو ضيقة. فقد كان فيما يظهر مغموراً مضيَّعاً بين حمير وقريش، ألحَقَ نفسه بحمير بعد أن أصبح له شأن وبعد أن رأى أنه فى حاجة إلى نسب يعتز به وركن يأوى إليه. وألحق نفسه بقريش على أنه حليف من حلفائها وولىٌّ من أوليـائها، فاجتمع له بذلك نسب يمانى فى حمير وحلفٌ مضرى فى قريش، على حين لم يستطع أحد من الرواة والنسابين أن يصله بقبيلة من قبائل اليمن ولا أن يرتفع به إلى أعلى من جده الأدنى. فكل مايعرف الرواة عنه أنه يزيد بن ربيعة بن مفرِّغ. ولعل الرواة لا يتفقون على اسم مفرغ هذا؛ فقد روى أن اسمه محمد، وأن مفرغاً كان لقبـاً غلب عليه. وأصل هذا اللقب فيما يقـال أنه راهن على أن يفرِّغ فى جوفه عُسًّا من لبن ففعل، فسمى مفرغاً. وقد يكون هذا حقًّـا، وقد يكون الحق شيئاً آخر لانعرفه، ولـكن المهم أن مفرغاً هذا لم يكن رجلا ذا خطر، وإنما كان شعّاباً فى المدينة أو قريباً من المدينة. وكان ابنه ربيعة فيما يقـال صاحب شعر وغزل. وكان له ابن آخر يسمى عامرا، وكان صاحب زهد ودين. فأما صاحبنا يزيد فلم يعرفه تاريخ الشعر ولا تاريخ السياسة إلا حين تقـدّم به الشباب وحين أصبح شاعراً ظريفاً

رائع الشعر حسن المحضر ، يتنافس فتيان قريش فى قربه ومنادمته واصطحابه فيما يعرض لهم من الأسفار .

وأكبر الظن أنه انتفع بحِلْفِه فى قريش ، فعاشر فتيان بنى أُمية فى العراق وآثرهم بمودته ، وآثروه بمعروفهم لحسن موقعه منهم ، ولحسن بلائه فى التعصب لهم والثناء عليهم . وأول مانعرف من أمره معرفة دقيقة هو أن شابين من شبان بنى أمية تنافسا فيه . فأما أحد هذين الشابين فسعيد بن عثمان بن عفان ، وأما الآخر فعبَّاد بن زياد بن أبى سفيان . وكان أول هذين الشابين قد ولى خراسان ، وكان الآخر قد ولى سجستان . وقد عرض سعيد بن عثمان على صاحبنا يزيد أن يصحبه إلى ولايته ، وأغراه بمال كثير وبأنه سيكون عند ما يرضيه . ولكن يزيد لم يجب سعيداً إلى ما أراد ، وآثر أن يصحب عباداً إلى سجستان . وقد أسف سعيد لانصراف هذا الفتى الظريف عن صحبته إلى صحبة عباد ، ولكنه مع ذلك حذّره ونصح له ، وقال له إن نَبَتْ بك الدار عند عباد ولم تبلغ من صحبته ماتريد فإن مكانك عندى ممهد .

وليس من الغريب أن يزهد يزيد فى صحبة سعيد بن عثمان ويؤثر عليها صحبة عباد بن زياد . فقد كان سعيد بن عثمان معرّضا لشىء غير قليل من سخط السلطان الأموى عليه وزهده فيه . ومصدر ذلك أن أبناء عثمان رضى الله عنه قبلوا ولاية معاوية لخلافة المسلمين لأنه قام دونهم بعد مقتل أبيهم ، فثأر لهم وحمل بنى أمية على رقاب الناس . ولكن شيئاً من الحسد وقع فى قلوبهم حين بايع معاوية لابنه بولاية العهد . ويقال إن سعيداً نفسه صارح معاوية بإنكاره لذلك فى شىء غير قليل من العنف ، وإن معاوية رفق به كما كان يرفق بأعدائه وأصدقائه جميعاً ، وإن توليته خراسان كانت مظهراً من مظاهر هذا الرفق ولوناً من ألوان هذه المصانعة . فلم يكن سعيد إذاً أثيراً عند معاوية ولا عند ابنه يزيد ، وإنما كان يحتمل فى شىء من الجهد ويستصلح فى كثير من الرفق . أما عباد فقد كان أبوه زياد موضع الثقة والحب من معاوية ، وكان ركناً من أركان الدولة الأموية الجديدة ، ضبط لها أمر العراق وما يليه ضبطاً حسناً وساسه سياسة حازمة صارمة أخافت الناس فى شرق الدولة وغربها . فلما مات زياد ولّى معاوية ابنه عبيد الله أمر العراق اعترافاً بما لزياد عنده من يد . فكان عباد إذاً ابن أمير العراق القديم وأخا أمير العراق الجديد ، وفتى من فتيان هذه الأسرة العصامية

التى مكّنت لبنى أمية فى الأرض . فليس غريباً إذاً أن يؤثر الشاعر الشاب صحبة الأمير الزيادى ذى المكانة والحظوة ، على صحبة الأمير العثمانى الذى لاتحتمله الدولة إلا على كره ومضض . على أن عبيد الله بن زياد أمير العراق كان يعرف أخاه عباداً حق المعرفة ، وكان يعرف الشاعر الفتى حق المعرفة أيضاً ، وكان يشفق من محبة هذا الشاعر الفتى لأخيه ، ويقدر أن عواقب هذه الصحبة لن تكون إلا شراً . كان يعرف أن أخاه حاد الطبع سريع الغضب شديد العناية بما يَكلَف من أمر ، يفرغ للهوه ومتاعه حين يتاح له الفراغ ، ولكنه إذا نهض بأمر ذى بال أقبل عليه وشُغل به عن كل شىء . وكان يعرف أن الشاعر الفتى ظريف غزل حلو الدعابة عذب الفكاهة جميل المحضر ، ولكنه شاعر لا يرضى من صاحبه بالقليل ، ولا يقبل منه الانصراف إلى يسير الأمر أو خطيره . وكان يعرف أن الشاعر الفتى عَجِلٌ نزق سريع الشعور قوى الإحساس طويل اللسان ، يسرع إليه الضجر ويستأثر به الملل ، ويسبق لسانه إرادته فيتعجل اللوم والهجاء قبل إبانهما . ومن أجل ذلك همّ أن يصرف الشاعر عن صحبة أخيه فلم يفلح ، فنصح له وألح فى النصح ، وحذّره وألح فى التحذير والنذير . ومضى الشاعر الفتى مع أميره الشاب إلى سجستان . ولم يبلغ الرفيقان سجستان إلا بعد أن فسد الأمر بينهما أثناء الطريق ؛ فقد كان عباد عظيم اللحية جداً ، فإنه لفى طريقه ذات صباح أو ذات مساء ، وإذا الريح تعبث بلحيته الضخمة فتنفشها ، ويرى الشاعر ذلك فيروقه المنظر ويضحكه ويسبق لسانه إرادته فيقول :

ألا ليت اللِّحَى كانت حشيشاً   فنعلفها خيول المسلمينا

وقد سمع الرفاق هذا البيت فتضاحكوا ، وسعى بعضهم بالبيت إلى عباد فوقعت الموجدة فى قلبه ، وهمّ أن يبطش بالشاعر ، ولكنه آثر الأناة وأسرّ الحقد فى نفسه . فلما بلغ سجستان شغل بحربه وخراجه وأبطأ على شاعره . وانتظر الشاعر ثم انتظر ، فلما طال عليه انصراف الأمير عنه أطلق لسانه فيه يلومه فى أحاديثه ويُظهر الندم على أنه قد آثر صحبة عباد على صحبة سعيد . وتبلغ الأحاديث عباداً فيضيف غيظاً إلى غيظ وموجدة إلى موجدة ، ولكنه على ذلك لا يبطش بالشاعر فجأة ولا يظهر له بغضاً ، وإنما يدبر أمره تدبيراً ويحكم الكيد لهذا الشاعر النزق الذى أمكن من نفسه . ومتى استطاع الشعراء والأدباء عامة ألا يمكنوا من أنفسهم !

فلم يكن صاحبنا يزيد نزقا عجلا فحسب ، ولـكنه كان صاحب لهو ولذة وإسراف فى اللهو واللذة ، وكان صاحب كرم وجود وإمعان فى الـكرم والجود . وكان يداعب آمالا عراضاً وأمانى كباراً ، وينتظر من أميره عطاء جزيلا ، فما الذى يمنعه أن ينفق ويتسع فى النفقة ، وأن يستدين حتى يغرق فى الدين إلى أذنيه !! أليس عطاء الأمير سيملأ يديه بالمال ، وسيمكّنه من إرضاء الدائنين بل من إرضاء الطامعين فيه! وكان عباد ينتظره عند هذا المنعطف من سيرته الملتوية المتعرجة ، فما هى إلا أن تدس إلى دائنيه من يغريهم بمخاصمة هذا المدين الذى لا يقدر على شىء . فإذا ارتفعت إليه الخصومة أمر أعوانه أن يكبسوا بيت يزيد ويبيعوا أثاثه ومتاعه وسلاحه وفرسه ، وقد فعلوا ، وبدأ الشر بين الشاعر والأمير . ونظر الأمير فإذا كل ما بيع من متاع الشاعر أقل من أن يؤدى عنه دينه ، فيأمر بحبسه فيما بقى عليه للغرماء .

وكذلك انتهت المحنة إلى غايتها ، أو قل انتهت المحنة إلى أولها . وكان يزيد يملك غلاما يحبه أشد الحب وجارية يؤثرها أعظم الإيثار . وهمّ عباد أن يمضى فى الكيد له والتنكيل به ، فأرسل إليه من يعرض عليه أن يبيعه الجارية والغلام . قال يزيد : وهل يبيع الرجل نفسه التى بين جنبيه ؟ قال عباد فبيعوا عليه جاريته وغلامه لمن شاء أن يشتريهما من الناس . وعُرِضَ بُرْدٌ وأراكة للبيع ، فاشتراهما رجل من الناس وأقبل يقبضهما . فلما رآه برد قال له : بئس ما اشتريت لنفسك من السوء والفضيحة ! قال الرجل : وكيف ذاك ؟ قال برد : فإنك تعلم أن مولاى إنما يهجو عباداً وآل زياد وهم الأمراء وأصحاب السيادة والحظوة عند أمير المؤمنين لأنهم أبطئوا عليه بالعطاء ، فكيف إذا علم أنك تشترى أحب الناس إليه وأنك تسوءه بهذا الـكيد ! إنها والله الفضيحة لك ولقومك إلى آخر الدهر . قال الرجل : فإنى أشهد على نفسى أنكما له ، وإن شئتما كنتما عندى حتى يخلص من سجنه فأردكما إليه . قال برد : فاكتب إلى مولاى بذلك . فكتب الرجل وردّ عليه يزيد شاكراً له مثنياً عليه ، راغباً إليه فى أن يحفظ الغلام والجارية عنده حتى يجعل الله له بعد عسر يسرا . وفى هذه القصة يقول يزيد :

شريت برداً ولو مُلّكتُ صفقته لما تطلّبت فى بيع له رشدا
لولا الدعىُّ ولولا ما تعرّض لى من الحوادث ما فارقته أبدا
يا برد ما مسّنا دهرٌ أضرّ بنا من قبل هذا ولا بعنا له ولدا

أما الأراك فكانت من محارمنا عيشاً لذيذاً وكانت جنة رغدا
كانت لنا جنة كنا نعيش بها نَغْنَى بها إن خشينا الأزل والنكدا
يا ليتنى قبل ما ناب الزمان به أهلى لقيت على عدوانه الأسدا
قد خاننا زمنٌ لم نخش عثرته من يأمن اليوم أم من ذا يعيش غدا
لامتنىَ النفس فى بُرْدٍ فقلت لها لا تهلكى إثر برد هكذا كمدا
كم من نعيم أصبنا من لذاذته قلنا له إذ تولى ليته خلدا

ويقول فى هذه القصة أيضاً ، ولكنه فى هذا الشعر لا يكتفى بالحزن على برد وأراكه ، وإنما يصور ندمه على فراق سعيد وصحبة عبّاد ، ويهجو عباداً هذا أقذع الهجاء :

أصَرَمْتَ حبلك من أُمامه من بعد أيامٍ برامه
فالريح تبكى شجوها والبرق يضحك فى الغمامه
لهفى على الأمر الذى كانت عواقبه ندامه
تركى سعيداً ذا الندى والبيت ترفعه الدعامه
فُتِحت سمرقندٌ له وبنى بعَرْصتها خيامه
وتبعتُ عبد بنى علا ج تلك أشراط القيامه
جاءت به حبشية سكّاء تحسبها نعامه
وشريت بُرْداً ليتنى من بعد برد كنت هامه
هتافة تدعو صدًى بين المشقّر واليمامه
فالهول يركبه الفتى حَذَرَ المخازى والسآمه
والعبد يُقْرَعُ بالعصا والحر تكفيه الملامه

وأكبر الظن أن يزيد قال هذا الشعر فى سجنه ، ولكنه لم يذعه إلا بعد حين ، حين ظفر بحريته وأصبح بمأمن من عادية عبّاد . وآية ذلك أن الرواة ينبئوننا بأن يزيد قد ثاب إلى شىء من الرشد ، أو ثاب إليه شىء من الرشد ، فرفق بنفسه واصطنع الحذر والاحتياط ، وجعل لا يذكر عبادا إلا حامداً له مثنياً عليه ، فإذا ذكر له سجنه ومحنته قال : وأى بأس فى ذلك ! رجل أسرف على نفسه فأدّبه

أميره ناصحاً له مبقياً عليه. وجعلت هذه الأحاديث الحسان تبلغ عبادا فيرق للشاعر ويعطف عليه ويلتمس له المعاذير، ويذكر أنه هو الذى دعاه إلى صحبته على علم منه بأخلاقه ومواطن ضعفه.

وما زال يزيد يتلطف، وعباد يتعطف، حتى أخرج الأمير شاعره من السجن وقدّم إليه بعض الخير. وجعل يزيد يحتال حتى فر من سجستان ومضى هارباً يترقب ويستخفى حتى انتهى إلى الشام. وكان فى أثناء هربه يقول الشعر فى هجاء عباد وآل زياد، ويكتبه على الجدران فى كل خان ينزل به. حتى اذا انتهى إلى الشام عرف أنه قد بلغ مأمنه وأن يد آل زياد لن تبلغه فأطلق لسانه فى غير تحفظ، ونال آل زياد بكل مكروه. ولم يكن آل زياد بمأمن من الهجاء، ولا بنجوة من البغض لهم والوجد عليهم. فقد كانت كثرة قريش تبغضهم أشد البغض، تراهم دخلاء فيها بعد أن استلحق معاوية زياداً فى تلك القصة المعروفة. وكان بنو أمية أنفسهم يبغضون زياداً أشد البغض لما نال من الحظوة عند معاوية ولما استأثر به من حكم العراق دون شباب أمية وشيوخها. واشتد بغض بنى أمية لزياد وبنيه حين مات فورث ابنه عبيد الله عنه حكم العراق. وكان زياد قد اشتد على الناس وأخذهم بالعنف، فكرهته الشيعة من أهل العراق كما كرهه الخوارج كرها ظاهراً، وكرهه عامة الناس كرها أسرّوه فى أنفسهم ولم يعلنوه إلا حين كانت الفرصة تمكنهم من إعلانه. ولم يملك شباب قريش ولا شباب الأنصار أنفسهم وألسنتهم فلهجوا بزياد وجحدوا بنوّته لأبى سفيان وقالوا فى ذلك شعراً كثيراً عرفه معاوية ولكنه أغضى عنه تكرماً وحلماً وسياسة أيضاً. فانتهز يزيد شاعرنا هذا كله وقال فى زياد وبنيه أشنع الشعر وأقذعه، فنفى زياداً من أبى سفيان، ونفى بنى زياد من أبيهم وهجاهم فى أمهاتهم ثم هجاهم فى أخلاقهم، ثم هجاهم فى سيرتهم، ثم جعل يحرّض عليهم اليمانية حيناً والمضرية حينا آخر، وجعل شعره يشيع ويصل إلى العراق ويتنقل بين الأمصار، ويطير على ألسنة الرواة، حتى ضاق به عبيد الله أشد الضيق، وكتب إلى الخليفة فى دمشق يسأله أن يردّ عليه يزيد ليقتله؛ فردّ الخليفة إليه يزيد ولكنه تقدم إليه فى أن يعذّبه عذاباً موجعاً دون أن يبلغ نفسه.

وهنا نستطيع أن نوازن بين يزيد هذا الذى لانكاد نعرف له نسباً فى قحطان أو فى عدنان وإن ألحق نفسه بحمير وزعم لها حِلفَ قريش، وبين شاعر آخر

معاصر له كان عظيم الشرف رفيع المكانة فى قومه عزيزاً بأعظم قبيلة عربية ، وكان فى الوقت نفسه أملك للشعر وأقدر عليه من يزيد وهو الفرزدق . فقد ساء الأمر بين الفرزدق وزياد ، وطلب زياد الفرزدق حتى أخافه ، فهرب الفرزدق من العراق واستجار ببنى أمية فى الحجاز ، وجعل يتنقل بين مكة والمدينة ولكنه كف لسانه عن زياد فلم يهجه أو لم يكد يهجوه ، وإنما ظل هارباً متحفظاً ، حتى إذا مات زياد عاد إلى العراق وصانع الأمراء من أبنائه ومن غير أبنائه .

ومن المرجح أن مكانة الفرزدق نفسها هى التى اضطرته إلى أن يكف لسانه ويؤثر العافية لنفسه ولقومه . فأما يزيد فلم يكن يحرص على شىء ، ولم يكن يخاف على قومه كيداً . فاليمانية إن كان يزيد يمانياً هم قوة أمير المؤمنين وأنصاره لا يستطيع أحد أن يعرض لهم بسوء . وقريش أهل أمير المؤمنين وعشيرته لايستطيع أحد أن ينالهم بسوء . فلم يبق ليزيد إلا نفسه ، ونفسه حرة لاتفرط فى الحرية ، وهى فى الوقت مبغضة لا تلين فى البغض ، ومحبة لاتقصر فى الحب . وقد أبغض زياداً وبنيه ، فيجب أن ينتهى به البغض إلى غايته . ولذلك أدخل على عبيد الله بن زياد حين رُدَّ إلى البصرة فلم يهن ولم يضعف ولم ينكر من سيرته وشعره شيئاً ، وإنما استقبل المحنة شجاعاً جلداً وصبوراً مستيئساً ، وقال لعبيد الله : دونك وما تشاء . وقد أمر عبيد الله به فألقى فى غيابات السجن . ولكن يزيد لم يكفّ عن الهجاء حتى فى السجن ، وقد عذّبه عبيد الله عذاباً أقل مايوصف به أنه لم يكن عربياً ، وإنما كان أعجمياً ينافر أشد المنافرة كرم العرب وكرامتهم وارتفاعهم بأنفسهم وبعدهم عما يشين . وبعض هذا العذاب يذكّرنا بما كان يصنع فى الأندلس ببعض الثائرين ، وبما كان يصنع فى إيطاليا بخصوم نظام الفاشية ؛ فقد أمر عبيد الله فسقى الشاعر فى سجنه نبيذاً حلواً فيه مسهل ، ثم قُرن إلى كلب وهرة وخنزير وطُوِّف به فى مدينة البصرة على هذه الحال المنكرة ، وجعل الصبية من أبناء الموالى والفرس يتبعونه بالتندر والعبث ، وجعل هو يردّ على تندرهم فى لغة فارسية نقلها أبو الفرج ، وجعل الخنزير الذى قُرن إليه يضج كلما جره ، وجعل يزيد فى هذه المحنة يعبث بسُمَيَّة أم زياد ؛ فقد سمى خنزيره هذا سمية وجعل كلما ضج الخنزير يقول :

ضجت سمية لمـا لزّها قرنى لاتجزعى إن شر الشيمة الجزع

ثم أدركه الإعياء فسقط لما لقى من الجهد ، وأشفق عبيد الله بن زياد أن يدركه التلف فيخالف أمر الخليفة ويتجاوز به العذاب إلى الموت ، فأمر برفعه وغسله وردّه إلى السجن . ثم أمر عبيد الله فحمل الشاعر إلى أخيه عباد بسجستان ليشفى حقده ويرضى حاجته إلى الانتقام ، وكلّف الذين حملوه أن ينزلوا به فى الخانات التى نزل بها حين هرب من عباد ، وأن يضطروه إلى أن يمحو بأظافره ما كتب على الجدران من هجاء بنى زياد ، وأن يحوّلوا صلاته عن قبلة المسلمين إلى قبلة النصارى ، فجعل يمحو بأظافره ما كتب حتى ذهبت أظافره ، فكان يمحو بعظم أظافره وبدمه . وما زال فى هذا العذاب حتى بلغ عبادا فضوعف عذابه فى سجستان . ولكن شيئاً من هذا كله لم يضطره إلى الضراعة ولا إلى الاستكانة ، وإنما كان صراع رائع عنيف بينه وبين العذاب ، يصبّ عليه بنو زياد ألوان الهول ويصب عليهم هو أشنع القول ، وفى نفسه يأس من جهة وأمل من جهة أخرى . يأس من الزمان ألا يمهله ، وأمل فى قريش وحمير أن يشفعوا له عند أمير المؤمنين . وقد انتصر الأمل على اليأس ، وسار شعر يزيد فى الآفاق وسارت معه أنباء هذا الصراع الهائل بين العذاب والفن . وانتهى الأمر إلى قريش فى أنديتها بالعراق والحجاز ، وانتهى الأمر كذلك إلى حمير فى أنديتها بحمص ودمشق ، وغضبت اليمانية والمضرية جميعاً لهذا الشاعر الذى يعذَّب عذاباً لا يعرفه المسلمون ، وسعى أولئك وهؤلاء عند يزيد بن معاوية ، وما زالوا به حتى أرسل بريداً إلى سجستان وأمره أن يطلق الشاعر من سجنه على الفور ، وألا يأذن لأحد من آل زياد فى الإمرة عليه . وأقبل البريد ، فأخرج الشاعر من سجنه وأصلح من أمره وحمله على بغلة من بغال البريد . فلما استوى عليها قال هذا الشعر الرائع المعروف :

عَدَسْ ما لعبّاد عليك إمارةٌ ... نجوتِ وهذا تحملين طليق
طليق الذى نجّى من الكرب بعد ما ... تلاحم فى درب عليك مضيق
قضى لك حمحامٌ فأنجاك فالْحَقِى ... بأرضك لا تُحبَسْ عليك طريق
لعمرى لقد أنجاك من هوّة الردى ... إمامٌ وحبلٌ للأنام وثيق
سأشكر ما أوليتَ من حسن نعمة ... ومثلى بشكر المنعمين حقيق

وانتهى شاعرنا إلى الشام فأمر أن يقيم فى الشام حيث شاء وألا يعرض لآل زياد بمكروه، وأحسن الخليفة صلته تعزية له عما لقى من شر . ووقفت قصته هنا مع آل زياد ولكنها لم تنته . فلم يكن له بدٌّ من أن يذعن لأمير المؤمنين . ولكن شاعرنا لم يكن مبغضاً فحسب ، وإنما كان محبًّا أيضاً . ولعل حبه هو الذى جشّمه كل هذه الأهوال .

كان يحب أناهيد فتاة فارسية ، كان أبوها دهقاناً فى الأهواز ، وكانت رائعة الجمال فتانة الحسن جريئة على الرجال لعوباً بعقول الناس . وقد لعبت بعقله فأسرفت فى اللعب وكلفته من أمره شططا . وقد أقام فى الشام ما شاء الله أن يقيم ، ولكنه لقى رجلا من أهل الأهواز فسأله عن أناهيد قال الرجل : صاحبة يزيد بن مفرّغ ؟ قال يزيد : نعم . قال الرجل : ما رقأ دمعها بكاء على يزيد . فضرب يزيد وجه فرسه وأقسم لا يستقر حتى يرى أناهيد . ومضى مخالفاً أمر الخليفة جاحداً نعمة الذين أجاروه وآووه حتى انتهى إلى الأهواز ، وجعل يتردد بينها وبين البصرة ، ثم دخل على عبيد الله بن زياد ، فخيره بين أن يقتله أو يعفو عنه ، فعفا عنه عبيدالله . ولكن إقامته فى البصرة لم تطل ؛ فقد كانت أناهيد تكلفه مالا كثيراً ، وكان يستدين ، وكان الدين يثقل عليه ، وكان الأشراف من أهل العراق يؤدون عنه دينه . ولكنه شاعر لا تنقضى حاجته ، والأمراء يتنافسون فيه ، فما يمنعه من الرحلة والاكتساب ليغنى نفسه ويرضى أناهيد ، ويذيع البهجة والغبطة من حوله ! وقد فعل ، فرحل إلى عبيد الله بن أبى بكرة ورجع من عنده بمال كثير دفعه كله إلى أناهيد . وما زال يتردد بين البصرة والأهواز ينعم ويشرك أترابه فى النعيم ، حتى مات يزيد بن معاوية ، وكانت الفتنة فى البصرة وهرب عبيد الله بن زياد ، فاستأنف قصته مع آل زياد من حيث وقفت فى الشام ، وجعل يهجو زياداً وبنيه ، ويعير عبيد الله بفراره عن أمه ويحرض على آل زياد بشعره وحديثه . حتى إذا قتل عبيد الله يوم الزاب بيد أصحاب المختار لم يستطع شاعرنا أن يخفى شماتته ، فتغنى هذه الشماتة فى شعر كثير . وظل متردداً بين أناهيد فى الأهواز ومجالس لهوه فى البصرة ، حتى قتله الطاعون أيام مصعب بن الزبير .

وقد قال يزيد شعراً كثيراً جدًّا ، وحفظت لنا كتب الأدب شيئاً قليلا جدًّا من هذا الشعر ، ولكنه على قلته يبين لنا أن هذا الفتى المغمور قد كان شاعر الخوف والحب والحرية حقًّا ، ما أعرف أن أحداً من شعراء القرن الأول للهجرة

بلغ من تصوير هذه الخصال ما بلغ . ومع ذلك فما أكثر ماعرف ذلك العصر من المبغضين والمحبين ، ومن الخائفين والأحرار ، ومن الذين أتيحت لهم براعة فنية لم تتح ليزيد ! ولكن يزيد أحب بقلبه كله ، وأبغض بقلبه كله ، وخاف بقلبه كله أيضاً ، وجلّى قلبه المحب المبغض الخائف الحر فى شعره دون أن يتكلف فى ذلك أو يتصنع أو يتخذ بين الناس وبين قلبه حجاباً .

كنت أود لو استطعت أن أروى لك أطرافاً من شعره ، ولكن كتاب الأغانى قريب منك فاقرأ فيه أخبار يزيد بن مفرّغ ، فسترى فيه عجباً من العجب وسترى أن لحية ضخمة قد عبثت بها الريح ذات يوم فأضحكت شاعراً وأطلقت لسانه ببيت من الشعر ، وكانت من أجل ذلك مصدر محنة مروعة اتصلت أعواماً وشقى بها شاعر وشقيت به أسرة من أشراف العرب ، ولكنها تركت لنا أدباً فيه المتاع كل المتاع .

طه حسين

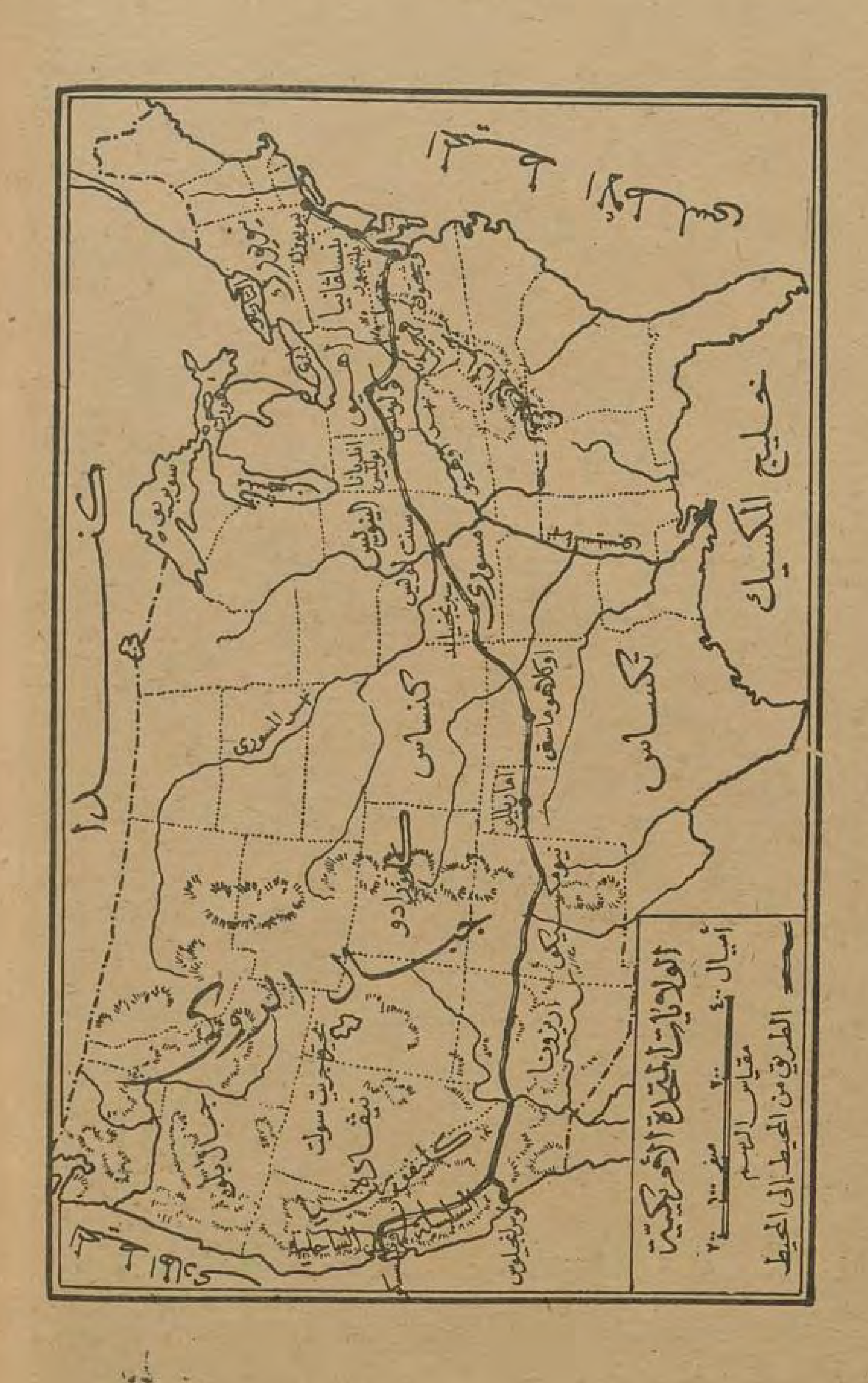
من المحيط إلى المحيط

هدأ الموج واطمأن ، فلا يصافح الشاطئ إلا لمساً ؛ وخفت صوته وسكن ، فلا يتحدث إلا همساً . . . وهو مع هذا جدير — إذا شاء — أن يزأر كالأسد ، وأن يندفع كالثور . ولكنه أراد ، فى ذلك اليوم ، أن يكون — كاسمه — هادئاً ؛ كأنما علته كآبة لفراق هذه الوفود ، التى نزلت إلى جواره فترة من الزمن ؛ أو كأنما أطرق إطراق المفكر المهموم ، فهو اليوم واجم ساكن .

وقفنا — قبل الرحيل — نودّع ذلك المحيط « الهادئ » الذى طالما سمعنا بعظمته وضخامته ، فأخذت أعناقنا تشرئب وتستطيل ، كأنما أردنا أن ننظر إلى نهايته ، وأن نستوثق من أن له حقًّا ذلك الطول الهائل ، وذلك العرض الواسع الفسيح . ولكن العين البشرية لم تستطع — على حرصها الشديد — أن تظفر منه إلا بنصيب ضئيل ؛ ولم يكن بد من أن نستعين بقوة الخيال ، لكى ندرك بها ما عجزت عنه قوة الإبصار .

ولم تمض ساعات حتى أخذت وفود الأمم تتأهب للرحيل ، بعضها متجه نحو الغرب ، مخترق هذا المحيط الهادئ الساكن ، الذى لم يزل يحف به الخوف ، وتغشاه أخطار الحرب . ولكن الكثرة العظمى من الوفود قصدت إلى الشرق ، بعضها المسرع العجل ، يركب الهواء . وبعضها المتريث المتمهل ، يركب واحداً من تلك القطارات الفخمة التى أعدتها حكومة أمريكا لضيوفها ، وزودتها بوسائل الراحة والتنعم ، التى امتنعت على الأمريكيين أنفسهم ، منذ قامت هذه الحرب الضروس .

وكان هنالك شخص واحد فقط من بين هذه الوفود ، رأى أن يشذ عن هذا الإجماع ، فلم يركب طائرة ولا قطاراً ، بل سوّلت له نفسه أن يسعى من المحيط الهادئ إلى المحيط الأطلسى ، وأن يخترق الولايات المتحدة على متن سيارة قديمة ، حائلة اللون ، كالحة الوجه ، طال عهدها بالماء والزيت ، وعلتها غبرة الترك



الولايات المتحدة الأمريكية
مقياس الرسم
أميال
الطريق من المحيط الى المحيط
خليج المكسيك
تكساس
كنساس
اوكلاهوما
اريزونا
كولورادو
سانت لويس
سوبريور

والإهمال ، تصيّدها — أو تصيدته — فى أحد الدكاكين الغربية ، وقد قيل له إنها سيارة عريقة فى الحسب والنسب ، تنتمى إلى عنصر فى السيارات سليم ، وإلى محتد طيب كريم . فصدّق ما قيل له ، لأنه كان من المؤمنين المصدقين . ثم حانت منه نظرة إلى عجلها الذى تسير عليه — إذا سارت — فرآه جافاً أعجف ، قد براه الثرى ، وبرحت به النوى . فالتفت إلى صاحب الدكان مبتسما متسائلا . فتنحنح التاجر مليّـا ، ثم أكد له أنه عجل لا بأس به ، وأنه يدور مع السيارة إذا دارت ، ويسير معها إذا سارت ، وأن من أكبر مزايا هذه السيارة أن عجلاتها لا تنفجر إلاّ فى الوقت المناسب ، وفى المكان الملائم ، حيث يستطيع صاحبها بشىء من اللباقة أن يحصل على إطار جديد أو إطارين . ومهما يكن من شىء فإن المحسنين فى الولايات المتحدة كثيرون ، وستأخذهم الشفقة من غير شك على هذا المصرى الغريب ، الذى نأى من الأوطان فى طلب العلا ، وطوحت به الغربة حتى أسلمته إلى هذه الديار البعيدة ؛ وحسبك أن تقول لهم إنك عضو فى وفود الأمم المتحدة ، وأنك صافحت الرئيس ترومان ، حتى يفتح أمامك الباب المغلق ، ويحف بك الإكرام والإعظام .

بعد هذا الكلام المليح ، والبيان المؤثر الفصيح ، لم يبق أمام صاحبنا مجال للتردد والإحجام ، فلم يلبث لحظة ، حتى استخرج من جيبه ثلثمائة من الدنانير ، وقدمها إلى صاحب الدكان عن رضا وارتياح وعقدت الصفقة وقضى الأمر ، ولم يبق مجال للنكوص على الأعقاب . . . عند ذلك قال له التاجر ، وهو يبتسم ابتسامة عريضة ، بعد أن أصبحت الدنانير فى حرز حريز : « الآن لابد لك أن تفكر جديا فى الوقود الذى يوصلك إلى الشاطئ الشرقى ؛ فإن أمامك ثلاثة آلاف من الأميال ، ستقطعها إن شاء الله فى مدة من الزمن تتراوح بين ستة وعشرة أيام ، وستنام فى الطريق فى فنادق خاصة أعدت لأمثالك من الغرباء . . ولكن لابد لك من الوقود ؛ لأن السيارات لا تمشى من غير وقود . والحكومة كما تعلم لا تعطى البنزين إلا بترخيص وبطاقات . ولابد لك من أن تجد وسيلة للحصول على هذا كله . ولا أظن أنك واجد مشقة فى الحصول عليه . « ألست كما تزعم عضواً فى وفود الأمم المتحدة ، وقد كنت مع الرئيس ترومان فى حفلة واحدة ؛ فمن ذا الذى يرد لك طلباً ؟ »

أنصت صاحبنا إلى هذا الكلام ، وعجب كيف نسى أمر الوقود ، وكيف

صمت التاجر عن ذلك حتى عقدت الصفقة ! حقاً أن التجار لا يختلفون كثيراً مهما اختلفت ديارهم وأوطانهم . . ولـكن لا بد مما ليس منه بد ، فليبادر بالذهاب إلى إدارة التموين ، وليلتمس منها ما يلزمه من البنزين .

ودخل دار التموين على استحياء . وجعل يتحدث عما جاء من أجله بعبارات تتعثر ألفاظها ، وتختلط أفعالها بأسمائها . ورئيسة الدار تصغى إليه وهى تبتسم . ثم قالت إنها قد سمعته يخطب فى اجتماع كبير فى سان فرانسسكو ، وأنه لا بأس عليه إن شاء الله ، وسيمنح من الوقود ما يريد بل فوق ما يريد . ثم لم تمض دقائق معدودة حتى كان بين يديه من البطاقات ما يكفى لأن يعبر به القارة الأمريكية والمحيط الذى يليها . .

* * *

قال التاجر : « ألم أقل لك إن كل باب مغلق سيفتح أمامك ، وسيظهر لك هذا الإكرام مرة أخرى حين تنفجر إطاراتك ، فتأتيك إطارات من كل صوب ! والآن لابد لك من التفكير فى الرفيق قبل الطريق . . . أليس من أمثالكم يا بنى مصر : « خذ الرفيق قبل الطريق » ، مع أن بلادكم لا تزيد فى المساحة على واحدة من الولايات المتحدة ، وعددها كما تعلم ثمان وأربعون ؟ إذن لابد لك من رفيق ، وإنى كما أتحفتك بسيارة نادرة ، بثمن بخس ، سأتحفك برفيق عظيم بثمن بخس أيضاً . . . لا تنس أن أمامك طريقاً طويلا يبلغ آلاف الأميال ، ولا أريد أن تضل فتشرّق حيث يجب أن تغرّب ، أو تصعد حيث يجب أن تهبط . ناهيك بأن القيادة الطويلة مضنية للجسم والعقـل ، ولابد لك من الاستجمام والراحة من آن لآن لـكى تتمتع بمناظر بلادنا العظيمة . والصديق الذى اخترته لمصاحبتك دمث الأخلاق ، كريم العنصر ، بارع فى قيادة السيارة ، يعرف طرق الولايات المتحدة معرفة الخبير ؛ فطالما ساق السيارات فى طول البلاد وعرضها ، وشمالها وجنوبها . . . وهو فوق ذلك لن يكلفك سوى خمسين ديناراً ، عدا نفقات السفر التى لا تتجاوز العشرة الدنانير »

ولم تمض دقائق على هذا الـكلام الوجيه حتى أقبل الرفيق وتم التعارف بين الطرفين . وكانت ملامحه لا تختلف كثيراً عن ملامح السيارة ، ولذلك لم يتردد صاحبنا فى اختياره ، وسلمه المفاتيح ، وتواعدا على اللقاء فى الساعة السابعة

من صباح اليوم التالى (اليوم الأول من شهر تموز) لـكى تبدأ تلك الرحلة الطويلة من شاطئ المحيط الهادى ، إلى شاطئ المحيط الأطلسى .

إن القارئ الذى يطالع هذه القصة ، ويتأمل كيف أقبل صديقنا على هذه المجازفة ، وهو لا يعرف من أمر السيارة ولا من أمر الرفيق شيئاً ، يحق له أن يتوقع أن أحداً من هؤلاء الثلاثة لن يستطيع الوصول إلى الشاطئ الشرقى ؛ بل لعلهم لن يبتعدوا عن المدينة الغربية بضعة أميال حتى يرتدوا على أعقابهم خاسرين . ومع ذلك فقد شاءت المقادير أن تبدأ الرحلة وأن تتم فى سبعة أيام ، وأن يكون الرفيق المجهول زميلا عذب الحديث كريم النفس . وشاءت المقادير أيضـاً أن تنفجر الإطارات الأربعة واحداً بعـد واحد فى المكان الملائم ، وألا يجد أصحابنـا مشقة كبيرة فى الحصول على إطار جديد ، بدلا من الإطار المنفجر ، وذلك بفضل ما أبدته إدارة التموين فى مختلف البلدان من الجود والـكرم .

وهكذا أتيح لهذا العضو من وفد مصر فى مؤتمر الأمم المتحدة بسان فرانسسكو أن يخترق الولايات المتحدة من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق ، وأن يرقب عن كثب هذا العالم المترامى الأطراف ، المتعدد الصور والألوان ، الذى احتشدت فيه الشعوب وامتزجت فيه الأجناس والملل وتعددت فيه الشكول ، وتنوعت الطبائع والميول ، واجتمع الناس فيه من كل قطر وإقليم ، على اختلاف المذاهب والنزعات ، وتباين الأهواء والعادات ، ومع ذلك قد أمكن لهـذه الجموع المتباينة أن تؤلف أمة موحدة الأمر إلى مدى بعيد ، مجتمعة الرأى فى كل ما يعرض لها من الشؤون الجليلة ، وبين أبنائها من أسباب الوفاق والاتحاد أكثر مما بين أبنـاء البلاد التى يتفق سكانها فى الأشـكال والألوان والجنس والدين .

هذا العالم الأمريكى مقسم إلى ثمان وأربعين ولاية ، لـكل ولاية عصبية وكبرياء ، ونزعة فى الحياة تميزها عن غيرها من الولايات . ولـكل منها استقلال تحرص عليه أشد الحرص ، ولا يجرؤ أحد أن يتعرض له بسوء . وفى هذه الولايات عشرة ملايين من الزنوج السود ، وبضعة ملايين من الصفر الأسيويين ، وفيها عشرات الملايين من الأجانب الذين لم يولدوا أو لم يولد آباؤهم فى أرض أمريكا ، وفيها من المذاهب والديانات عدد عظيم ؛ بعضه منقول من العالم القديم ، وبعضه

طريف نبت فى التربة الأمريكية ازدهر فيها وترعرع . وصفوة القول إن فيها من وجوه الاختلاف والتباين، مايكفى بعضه للتفرقة بين الناس ، وإضعاف الوحدة القومية ، وخلق سلسلة لا تنتهى من المشاكل السياسية والاجتماعية تجعل تماسك الدولة أمراً عسيراً .

ولست أريد أن أزعم أن هذه الاختلافات لم تخلق للأمريكيين طائفة من المشاكل ليس من السهل حلها ، ولكن الذى لا شك فيه أنها لم تؤثر أثراً ذا شأن فى قوة تماسك الأمة ولا فى كيانها السياسى ، ولم تحل بينها وبين الاضطلاع بأكبر عبء منظم نهضت به دولة فى أى عصر من العصور .

وليس بالأمر الهين أن نتبين السبب أو الأسباب التى ترجع إليها قوة الدولة، على الرغم مما بها من عوامل الاختلاف والتباين . وأكبر الظن أن هذا الاستقرار السياسى والاجتماعى فى الشعب الأمريكى يستند إلى دعامتين قويتين : إحداها مادية ، والأخرى روحية . فالأولى هى اتساع مجال العمل ، ووفرة الأرزاق لمن شاء أن يجدّ فى طلبها ، وتعدد المرافق وتنوعها بحيث يستطيع كل إنسان أن يجد مجال الحياة الذى يلائمه . هذه هى الاعتبارات المادية التى يذكرها أكثر الكتّاب حين يتحدثون عما يسمونه « سر عظمة أمريكا » . ولكن هنالك أيضاً ناحية روحية لبناء الدولة الأمريكية ، ولعلها ليست أقل خطراً من الناحية المادية . ومن الممكن أن نستخلصها فى كلمة واحدة : الحرية ؛ فهى الدعامة الأساسية التى تمسك البناء كله . وهى التى حالت دون الاضطهاد ، وهى التى أفسحت المجال للفرد وللجماعات ، وهى التى مكنت لهذه العناصر المختلفة أن تعيش فى صعيد واحد ، وأن تكون أمة مجتمعة الرأى موحدة الكلمة .

ومن حق القارئ أن يعترض بأن ما لقيه ، أو ما يلقاه الزنوج فى أمريكا، ليس مما يتفق مع الحرية . وهذا صحيح . ولكن بفضل الحرية أمكن للزنوج أن ينتقلوا من الولايات التى يضطهدون فيها إلى غيرها من الولايات ؛ وبفضل الحرية أخذت حياة الزنوج فى التحسن والتقدم حتى ارتقى منهم الكثير فى الحياة الاقتصادية والروحية . ولا يزال التحسن فى حالة الزنوج فى اطراد دائم . فإذا كان تقدمهم فى المستقبل على نسق تقدمهم فى الماضى ، فلا شك أن الفضل فى هذا يرجع إلى انتصار عقيدة الحرية على اللون والجنس ، وهما من أقوى العوامل الهدامة فى حياة الشعوب .

***

وبعد أترانى بعدت كثيراً عن موضوع هذا الحديث ، وهو وصف البلاد الأمريكية من غربها إلى شرقها ؟ لست أحسب أنى بعدت عن موضوعى كثيراً . لقد اخترق سائحنا المصرى فى رحلته المذكورة بضع عشرة ولاية ، وفى كل منها مثال حى لتلك الظاهرات التى تتألف منها حياة الشعب الأمريكى . لقد بدأت الرحلة من أقصى الولايات الغربية وهى ولاية كاليفورنيا ، عاصمتها سكرامنتو ، ومن مدنها سان فرانسسكو ، ولوس أنجليس ، وسان دييجو وهلم جرا . ولا أريد بتكرار هذه الأسماء أن أدل القارئ على مدن قد يعرفها أو لا يعرفها ، إنما أردت أن ألفت نظره إلى هـذه الأسماء الأسبانية الكثيرة المنتشرة فى كاليفورنيا ، وإلى الطابع الأسبانى القوى الذى اصطبغت به البلاد . لقد كان الأسبان أول من نزل بكاليفورنيا ، وأنشأ مدنها ، وأقام الحياة السياسية فيها . ولا شك أن فى السكان عنصراً أسبانيـًا تقرؤه بسهولة فى الملامح والتقاطيع . ولم يحاول الأمريكيون أن يزيلوا هذا الطابع الأسبانى بل استبقوه ولم يغيروا من أسماء المدن أو الأنهار أو القرى .

وفى سان فرانسسكو عدا الطابع الأسبانى حى صينى صرف ، جميع سكانه من أهل الصين بزيهم وملامحهم المعروفة ، وعلى أبواب الدكاكين كتابات صينية ، وتسمع فى جوانبه اللغة الصينية ، والاذاعات اللاسلكية باللغة الصينية . والغريب فى هذا أن سكان سان فرانسسكو يفتخرون بهذا الحى الصينى ، ويعدونه من أكبر مزايا مدينتهم ، ويقولون فى زهو إنه يمثل أعظم مدينة صينية خارج بلاد الصين الأصلية . وليس الحى الصينى هناك جزءاً نائياً من المدينة ، بل واقع فى قلبها وفى جزء ممتاز منها . ولهذا الأمر دلالته على روح التسامح التى تسود هذا الإقليم كله .

والآن تنازعنى نفسى لأن أقول إن ولاية كاليفورنيا هى أعظم الولايات المتحدة جميعاً ، وإن كان هنالك ولايات تفوقها فى المساحة أو الثروة أو عدد السكان . وذلك لما امتازت به من جمال الموقع وطيب الهواء ، وشموخ الجبال ، وروعة المياه الساقطة ، وضخامة الغابات الباسقة ، وتنوع الإنتاج الزراعى والصناعى . ولها فوق ذلك ساحل تطل جباله على المحيط الهادى . وهى بعد هذا

كله — أوقبل هذا كله — الولاية التى ازدهرت فيها صناعة السنما ، فأصبحت — سواء رضينا ذلك أم كرهنا — أكبر مركز للنشر والتلقين والإفهام ؛ ولو شاءت لكانت عاصمة العالم فى التثقيف والتهذيب والإرشاد .

أقول تنازعنى النفس لأن أقول إن ولاية هذا شأنها جديرة أن تحتل المكان الأول بين الولايات جميعاً . ولكنى أخشى على نفسى — إن أنا قلت ذلك — أن تناصبنى العداء سبعٌ وأربعون ولاية متحدة ، كل منها ترى أنها ليس فى العالم أرض كأرضها ولا سماء كسمائها . والويل لمن قال غير هذا ، أو اجترأ أن يسرف فى تفضيل إحداها على الأخرى . ذلك أن الأمريكى الصحيح معجب بالولاية التى ينتمى إليها ، فخور بها وبكل ما يتصل بها ، بل هو أيضاً يرى بلدته أو القرية الضئيلة التى يعيش فيها أعظم بقاع العالم وأطيبها . ولعل هذه العصبية الإقليمية من أكبر مصادر القوة فى الولايات المتحدة الأمريكية .

لقد كنا نمر فى طريقنا بقرى صغيرة لا تتجاوز بضعة منازل ، وليس بها شارع سوى الطريق الرئيسى الذى نحن سائرون فيه . ومع ذلك ترى هذه القرية قد نصبت الأنوار الحمراء والخضراء وسط الطريق لتنظيم حركة مرور يوشك ألا يكون لها وجود . إن هذا الرضا عن الوطن الصغير أمر ترتاح له النفس ، وظاهرة من أفضل ما يتمناه المرء فى كل قطر من الأقطار .

* * *

بعد أن خرج سائحنا من ولاية كاليفورنيا ، دخل فى ولاية أريزونا ؛ وعلى الحدود بين الولايتين باب عظيم مكتوب عليه بحروف ضخمة : مرحباً بكم فى أريزونا . وفيما عدا هذا ليس هنالك ما يدلك على أنك خرجت من ولاية ودخلت فى أخرى . وأول شىء تلقاه حين تدخل أريزونا من الغرب صحراء فسيحة ، قد انتشر فيها العوسج والصبار ، والأشجار الشوكية الطويلة التى تنسب إلى يوشع . هذه النباتات الخشنة مبعثرة فى كل مكان لا يكاد جزء من الصحراء يخلو منها . والماء فيها قليل . والعمران مقصور على البقاع التى يستنبط منها البترول . ولكن أريزونا ليست كلها صحراء ، فقد دخل سائحنا قبل المساء إلى الطرف الشرقى من الصحراء ، وأخذت سيارته تصعد فى الجبال — التى يعرفها الناس باسم جبال

روكى — ومضت فى صعودها حتى مضى شطر من الليل ، ثم انتهت بعد ذلك إلى هضبة عالية ، كثيرة الغابات والزرع والعمران .

ولا بد لى هنا أن أقف قليلا لكى أصف للقارئ كيف يبيت عابر السبيل فى رحلة طويلة كالرحلة التى نحن بصددها . فإن سفراً يستغرق سبعة أيام لا بد أن يكون تدبير المبيت فيه من أهم الشؤون التى تشغل البال . ليس المبيت المفضل فى هذه الحال فندق من الفنادق فى إحدى المدن التى تمر بها . بل هنالك مساكن صغيرة أقيمت لمثل هؤلاء السائحين ، ويطلق عليها الناس اسم « مُوتل » ، وهى كلمة مشتقة من السيارة والفندق بلغة الإنجليز . وقد تسمى « ساحة » أو « فِناء » أو « كابينات » . وهى عبارة عن ساحة واسعة تحيط بها أكواخ من الخشب المتين ، وقد أعد كل كوخ لمبيت شخص أو اثنين . وقد توافرت فيه جميع وسائل الراحة . . وإلى جانب كل كوخ ظلة من الخشب تأوى تحتها السيارة . ومن عادة النازلين فى هذه المساكن أن يبكروا قبل شروق الشمس لكى يستأنفوا رحلتهم ؛ ولذلك يجمل بهم أن يدفعوا أجرة المسكن فى المساء السابق ، حتى يكونوا أحراراً يستيقظون متى شاءوا ، دون أن يزعجوا أصحاب المنزل . وربما كان لهذه السنّة الصالحة سبب آخر لا يقل وجاهة . فليس بمستبعد أن بعض النزلاء قد تغريهم المغريات ، فينهضوا فى ظلام الليل ، ويمضوا لطيتهم مستعجلين ، وبعض العجلة قد ينسيهم دفع ما عليهم من الدولارات . . صحيح أن رب المنزل قد استكتبهم أسماءهم وأرقام سياراتهم ، ولكن من الجائز أن يخطئ المرء أو يسهو — وجل من لا يسهو — فيعطى اسماً مختلفاً عن اسمه بعض الاختلاف ، ورقماً يختلف عن رقم سيارته بعض الاختلاف . . من أجل هذا كله كانت عادة الدفع قبل المبيت عادة مستحبة من جميع الوجوه .

ومن مزايا هذه المساكن أنها تقع دائماً وسط الريف . فإذا استيقظ النزلاء كان أول ما تقع عليه عيونهم مناظر الغابات والأنهار والجبال ، أو المروج الخضراء ، والمزارع اليانعة ؛ فجميع ما فيها يبعث على الانتعاش والانشراح . فيستأنف المسافر رحلة بعد رقاد هادئ ساكن ، وقد امتلأ قوة ونشاطاً ، وقد نسى متاعب الأمس ، واتخذ عدته لاستقبال يوم جديد ، وبذل مجهود آخر .

كان الطريق الذى اختاره صاحبنا هو أقصر الطرق من كاليفورنيا إلى نيويورك . وهو الطريق رقم ٦٦ ؛ وقد نظمت الطرق الرئيسية فى الولايات

المتحدة بحيث يمتد كل طريق من أول القطر إلى آخره ، وليس له غير رقم واحد لا يتغير . وما على المسافر إلا أن يلتزم هـذا الرقم ولا يحيد ، وهو منقوش بوضوح على صُوًى من الحديد لا يخطئها المسافر . . ولهذه الأرقام نظام خاص . فالأعداد الفردية منها للطرق التى تتجه من الشمال إلى الجنوب ، والأعداد الزوجية للطرق التى تتجه من الشرق إلى الغرب .

ويخترق الطريق رقم ٦٦ طائفة من الولايات الغربية ، مثل أريزونا ونيومكسيكو وأوكلاهوما ، حيث تعيش جماعات من سكان أمريكا الأصليين الذين اشتهروا باسم « الهنود الحمر » . ولذلك كان من الجائز أن نسميه طريق الهنود . لا يفتأ المسافر يمر ببلدة أو قرية قد انتشروا فيها يعملون ويبيعون ويشترون . بعضهم لا يزال يعيش على فطرته الأولى ، وبعضهم قد امتزج بالبيض وشاركهم فى صناعاتهم وأعمالهم . وكثيراً ما يمر المرء بقرى هندية تتألف من أكواخ قليلة مبعثرة ، وهى منتشرة فى مساحات خصصت للهنود دون غيرهم . وليسوا على كل حال سوى قلة ضئيلة وسط سكان الولاية ؛ فان جميع هنود الولايات المتحدة لا يزيدون كثيراً على نصف مليون من الأنفس ، ولكنهم اليوم ينعمون فى رغد من العيش والأمن ، بعد أن زال عهد الاختلافات والاضطهاد . .

كان أصحابنا يقطعون الطريق فى رحلتهم بسرعة تزيد كثيراً على الخمسة والثلاثين ميلا ، التى فرضتها الدولة على سائقى السيارات محافظة على الإطارات واقتصاداً لها ؛ وكان من حسن الحظ أن لم يتعرض لهم بوليس الطريق إلا فى اليوم الرابع من رحلتهم ، وقد تجاوزوا مدينة أنديانا ، والطريق معبد ممهد ، يغرى بالسرعة ولعلهم زادوا على السبعين ميلا فى الساعة ، وإذا بذلك البوق الذى ألفنا سماعه ، فى السنما ، ينفخ فيه بشدة ، وتدرك أصحابنا سيارة البوليس ، فيتمهلون فى سيرهم ، ثم يقفون إطاعة لأوامر الدولة ونواهيها .

ويخرج من السيارة فتى صبوح الوجه ، غير عابس ولا باسم . فيقرئ أصحابنا السلام وينبئهم أنهم مسرعون ، وهو الأمر الذى يعلمونه حق العلم . فيسكت صديقنا المصرى ولا ينبس بنت شفة . ويرد رفيقه بأن « هذا السيد على موعد فى واشنطن فى اليوم السادس من تموز ، وقد تعطلنا فى الطريق من أجل الحصول على الإطارات ؛ وأنه لابد له بعد ذلك أن « يشحن » هذه السيارة إلى مصر ،

قبل أن يغادر نيويورك عائداً إلى وطنه بالطائرة . وقد كان بالأمس عضواً فى وفد مصر فى مؤتمر الأمم المتحدة بسان فرانسيسكو . »

فى هذا الرد البليغ ثلاثة ألفاظ براقة مؤثرة : ميعاد فى واشنطن ، العودة إلى مصر ، مؤتمر سان فرانسيسكو . لم يكد الشرطى الكريم أن يستمع هذه الألفاظ حتى أبرقت أساريره ؛ فإن أقصى ما يتمناه أن يجد سبباً وجيها يمكنه من أن يطلق سراح أصحابنا ، بعد أن يدون هذه الحقائق الخطيرة فى دفتره ، حتى يستطيع أن يفحم بالحجة الدامغة من أراد مؤاخذته على معاملتهم بالرفق واللين .

لم يستغرق هذا الأمر كله دقيقة أو دقيقتين ، ثم مضوا فى طريقهم على بركة الله . ومن المصادفات الطيبة أن أصحابنا لم يكادوا يقطعون بضعة أميال بعد ذلك حتى انفجرت عجلة من عجلاتهم ، فلحق بهم ذلك الشرطى وساعدهم بما فى سيارته من عدة على تغيير إطار باطار ، ثم افترقوا وهم على أتم وفاق وصفاء .

* * *

لست فى حاجة لأن أسهب فى وصف كل مرحلة من هذه السياحة الممتعة ، وحسب القارىء أن يعلم أن من الممكن تقسيمها طبقاً للتقسيم الطبيعى للولايات المتحدة إلى ثلاثة أقسام ، الغربى والأوسط والشرقى . وفى الغرب جبال مترامية الأطراف ، تقطعها السيارة فى طرق تنحدر حيناً وتصعد حيناً ؛ وقد تتوسط الجبال الغربية هضاب فسيحة ، كأنها سهول واسعة ، مستوية السطح ؛ ولكن لا تلبث المرتفعات الشاهقة أن تظهر للعيون . ولا يزال الأمر كذلك حتى تدخل المرحلة الثانية وهى السهول الوسطى ذات التربة الخصبة والنبات الغزير ، والسكان الذين يرجع كثير منهم إلى أصل جرمانى . وفى هـذا السهل الفسيح ترى الطرق معبدة سهلة ، والأنهار واسعة ضخمة . وقد عبرت السيارة نهر مسورى الشهير إلى جوار مدينة سان لويس . ويذكرنا هذا الاسم بالنفوذ الفرنسى الذى دخل القارة الأمريكية متتبعاً طريق نهر المسيسپى ، ولكن آثاره فيما عدا ذلك قليلة جدًّا . ولم يكن نهر مسورى فى ذلك الموضع ذا منظر شائق جذاب ؛ فقد أحدقت به المصانع والمداخن ، وشوهت شواطئه المعامل ، وعقد الدخان فوقه غطاء كثيفا ، وأزالت حسنه تلك الدور المزدحمة ذات المنظر الدميم .

وهكذا يمضى المسافر فى سهل أمريكا الأوسط حتى يبلغ الولايات الشرقية ،

فتصادفه الجبال مرة أخرى ، ولا يزال منطلقاً فى مسالكها الوعرة وطرقها الملتوية ، وسط المناظر الخلابة الساحرة ، حتى يبلغ الشاطىء الشرقى ، ويصل إلى واشنطن ونيويورك . وهذا الإقليم الشرقى ، سهلا كان أو جبلا ، هو موطن المهاجرين الأول . وأكثر سكانه من أصل بريطانى صميم ، ما عدا مدينة نيويورك ، التى لا تنتمى لصبغة واحدة أو أصل قائم بذاته ؛ ففيها من اليهود مليونان أو ثلاثة ، ومن الإيطاليين والصقالبة عدد كبير ، ومن الزنوج مئات الآلاف . وفيها غير ذلك خليط من الناس والأجناس . وليس فى العالم مدينة كنيويورك ينتمى سكانها إلى أصول متعددة متنوعة . ومن الناس من يكتفى من أمريكا بزيارة هذه المدينة المختلطة ، تبهرهم شوارعها الطويلة ، وعماراتها الشاهقة ، وفنادقها الفخمة ، ولياليها الصاخبة ، فيعودون وفى رءوسهم عن أمريكا صورة بعيدة عن الحقيقة كل البعد .

ليس من شك فى أن نيويورك مدينة عظيمة ، ومجال هائل للنشاط البشرى فى مختلف نواحيه . وقد استطاع سكانها أن يعملوا متعاونين على الرغم من تشعبهم واختلافهم . وفى هذا مظهر رائع لذلك النظام الأمريكى الذى وصفناه فى صدر هذا المقال . ولكن نيويورك على هذا ، ليست صورة مصغرة للولايات المتحدة ، وليست عاصمة لها إلا من الناحية التجارية فحسب . وإنما هى عالم صغير قائم بنفسه ، له خصائصه التى تميزه عن كل شىء سواه . وأكبر الظن أنه ليس فى الولايات المتحدة كلها مدينة تستطيع أن تقول عنها إنها تمثل الولايات المتحدة ، أو تمثل الحياة الأمريكية . ولكن هنالك مدن مثل بوسطن وفيلادلفيا وتشيكاجو نستطيع أن نصفها بأنها تمثل الروح التى تسود إقليما من الأقاليم . أما نيويورك فإننا لا نقدر أن ننعتها حتى بهذا النعت ؛ فحسبها أنها تمثل نفسها ، وتتكشف عن طابعها الخاص .

* * *

والآن وقد أبلغتنا مطيتنا ساحل المحيط الأطلسى فاننا لم نذبحها ولم نقل لها إشرقى بدم الوتين كما كان يقول الشعراء ، بل بادرنا بغسلها وتطهيرها ، وأودعناها سفينة تحملها إلى الديار المصرية العزيزة .

ومكثنا على شاطىء المحيط الأطلسى أياماً ، ننتظر الطائرة التى أقلتنا إلى أرض

الوطن . وليس فى مظهر هذا المحيط ما يجعله مختلفاً عن صاحبه الغربى . ولكن الخيال البشرى كان يولد فى النفس شعوراً مختلفاً فى كل من الحالين . فلقد كان المحيط الهادى رهيباً غريباً ، لأنه ليس منا ولسنا منه . وهو يتجه غرباً إلى الشرق الأقصى . أما المحيط الأطلسى ، فهو محيطنا أو لنا فيه نصيب كبير . والبحر المتوسط شعبة منه ، أو جزء منه . بل نحن لا ندرى أيهما الأصل وأيهما الفرع . ولعل الأصدق أن نقول إن المحيط الأطلسى هو وليد البحر المتوسط ، فهو الذى كشف عنه الغطاء ، وأظهره للعالم وللحضارة . وشعوب البحر المتوسط هى التى وضعت أسس المدنية والعمران ، التى كان من آثارها اجتياز المحيط الأطلسى ، وتعمير القارة الأمريكية .

وسواء أكان المحيط الأطلسى ابناً أو أباً لبحرنا ، فإنه على كل حال قوى الصلة بنا ، قريب من قلوبنا وعقولنا . فلم نكد نلمس سواحله حتى أحسسنا بأننا من وطننا قاب قوسين أو أدنى ، وأخذنا نسمع فى خرير أمواجه أصوات عالمنا القديم ، الذى نشتاق إليه ونرى أنه — على ما به من نقص — هو أطيب بقاع العالم طرا ، وأخفها ظلا ، وأعذبها ماء ، وأصفاها هواء . ولم نلبث أن طرنا إليه على طائرة قوية من الصلب والحديد ، وفى القلوب طائرات من الشوق والحنين ، أكثر مضاءاً وأقوى جناحا .

محمد عوض محمد

مصر وحيدة قناة السويس

قال هيردودت فى تاريخه يصف مصر القديمة إنها بلاد مصطنعة ، والنيل هو الذى اصطنعها هدية . ونحن نقول إن المسألة المصرية فى تاريخها الحديث إنما هى من صنع قناة السويس ، حتى إن السياسيين الآن ليتحيرون أيهما أكثر أهمية وأعظم خطراً بالقياس إلى السياسة العالمية : مصر كلها أم القناة وحدها .

ومع ذلك فالقناة فى أول أمرها لم تكن سوى أحد المشروعات الهندسية الكبرى التى حفل بها النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وجاءت فى أثر حركة الانقلاب الصناعى فى أوربا ، معاصرة للسكك الحديدية والسفن البخارية ، وإنشاء شركات الاستعمار والاستغلال التى جاوزت حدود أوربا وعبرت البحار إلى البلاد التى شاءت أن تساير النهضة الصناعية فى العالم . وهذه الأعمال جميعها بدأت تجارية عمرانية تستثمر أموالها لصالح مساعيها ، حتى إذا أصابت نجاحاً جاء دور حملة الأسهم ، فإذا كانت كثرتهم من الحكام أو الحكومات فما أسرع ما تتدخل السياسية وتصطبغ الأعمال باللون السياسى الذى يوافق أغراض الحكومة صاحبة الكثرة . أما إذا كان حملة الأسهم من عباد الله القانعين الذين لا تمتد أمانيهم إلى أبعد من أرصدتهم فى المصارف ، فإن الروح التجارية تظل غالبة فى هذه الأعمال ولا يصيبها من التدخل السياسى إلا مقدار ضئيل .

وشركة قناة السويس التى كوّنها فردينند دلسبس فى سنة ١٨٥٨ شركة مصرية تألفت بناء على عقد امتياز أصدره والى مصر فى ذلك الوقت لوصل البحرين فى داخل أرض مصر . ومع أن مؤسس الشركة قد أعلن أن مشروعه مفتوح لاكتتاب المساهمين من جميع أقطار العالم على اختلاف جنسياتهم ولم يترك وسيلة إلا اتخذها لإذاعة فضائل الشركة والتبشير بمستقبلها ، فإن حكومة واحدة لم تشترك فيها بنصيب كبير أو صغير .

بل إن هناك دولاً — كانجلترا التى كانت ولا تزال فى مقدمة البلاد التى

أفادت من القناة — لم يساهم أحد من مواطنيها فى تأسيس الشركة . وأقفل باب الاكتتاب فى أسهمها وعددها ٤٠٠ر٠٠٠ سهم وأكثر من نصف هذه الأسهم بيد الفرنسيين ، وتأتى مصر فى المكان الثانى بعد فرنسا ، فتملك أقل من نصف الأسهم ولكن باسم الوالى لا باسم الحكومة . وعلى ذلك بدأت الشركة عملها وليست لها صبغة سياسية خاصة تتميز بها دولة دون أخرى ، اللهم إلا فى مجلس إدارتها وموظفيها ، فقد كانت الجنسية الفرنسية متغلبة تبعاً لجنسية أكثر المساهمين . وبذلك خلصت أعمال الشركة لخدمة صالح القناة ولتحقيق الأغراض التجارية الكبرى التى قصدت إليها بإحداث ذلك التغيير الهائل فى جغرافية مصر الطبيعية بل فى جغرافية العالم كله . وظل طابع الخدمة العامة الشعار الذى امتازت به الشركة إلى اليوم .

غير أنه لم تكد تمضى ست سنوات على افتتاح القناة حتى طرأ على الشركة حادث كان له أكبر الأثر فى مركز القناة ومستقبلها ؛ ذلك أن الحكومة الإنجليزية اشترت من الخديو إسماعيل أسهم القناة التى كانت لمصر وعددها ١٧٦٦٠٢ سهماً وبذلك أصبح ما يقرب من نصف أسهم الشركة بأيدى الحكومة الإنجليزية وأضحت انجلترا تستمتع فى القناة — سواء فى حركة الملاحة أو فى الجمعية العمومية — بنصيب الأسد ، وجعل الناس يتوقعون لهذا الامتياز أخطر النتائج ، فكتب بعضهم فى إحدى المجلات الفرنسية يقول : « إن شراء انجلترا لأسهم القناة عمل سياسى بحت ، وإذا لم يكن معناه استحواذ انجلترا على أرض مصر فهو الخطوة الأولى فى سبيل تحقيق هذا الغرض ؛ إذ يستحيل على انجلترا بعد الآن أن تترك مصر وشأنها » . أما دلسبس فقد اغتبط بإتمام هذه الصفقة وقال : «ان انجلترا الآن لتأخذ نصيبها فى القناة وهو ما كنا قد احتفظنا به لها منذ البداية . وإنى لأعتبر هذا الارتباط الوثيق الذى انعقد بين رأس المال الإنجليزى والفرنسى حادثاً سعيداً ستفيد منه القناة فى جهودها السلمية لصالح التجارة والصناعة فى العالم » .

ولكن اغتباط منشئ القناة لم يحل دون إثارة الريب والظنون فى أذهان الدول الأخرى . فها هى ذى دولة كبرى — هى سيدة البحار فى العالم — قد تسلطت أخيراً على مصير القناة ، ولم تعد الدول تطمئن إلى مصاير مصالحها لا فى القناة وحدها بل فى الشرق كله .

ومع أن إنجلترا قد اكتفت فى أول الأمر بثلاثة مقاعد فى مجلس إدارة الشركة إلى جانب واحد وعشرين مقعداً كانت لفرنسا [1] ، وهى كل مقاعد المجلس ، فإن النفوذ الإنجليزى بدأ يتغلغل فى الحكومة المصرية رويداً رويداً حتى تسلط على مالية البلاد ، ومن المالية مد أخطبوطه إلى الإدارة فالوزارة . وكان فى بداءته نفوذاً ثنائيًّا مع فرنسا ، ثم تحول فى سنة ١٨٨٢ على أثر الثورة العرابية إلى نفوذ فردى فاحتلال بريطانى لعبت فيه القناة دورها الخطير لصالح الحكومة المتسلطة ؛ إذ أراد القائد الإنجليزى «سيرجارنت ولسلى» أن يفاجئ العرابيين بإرسال قواته صوب القاهرة عن طريق القناة بدلا من طريق كفر الدوار وغرب الدلتا كما توقع العرابيون واستعدوا له ، فأغلق القناة أربعة أيام ليسير قواته إلى الإسماعيلية ومنها إلى الموقعة الحاسمة عند التل الكبير . وجال بخاطر العرابيين إذ ذاك أن يردموا القناة حتى يحولوا دون دخول الإنجليز بسفنهم وقواتهم من جهة الشرق ، ولكن دلسبس تمكن بدهائه أن يوهم عرابى بأن عقد الامتياز يمنع إنجلترا من القيام بعمليات حربية فى داخل القناة أو على سواحلها، فغيَّر عرابى رأيه ولم يفطن إلى خطئه إلا بعد فوات الفرصة .

بعد هذا الحادث بدأت أهمية القناة فى نظر الدول تتضاءل من الوجهة التجارية وتتسع كثيراً من الوجهتين السياسية والحربية ، ووضح للدول بصفة قاطعة ضرورة تأمين مصالحهم فى القناة بمقتضى اتفاق دولى تقره الدول صاحبات المصالح فى القناة . وكان سفراء الدول وقتئذ مجتمعين فى مؤتمر رسمى فى القسطنطينية يبحثون مع تركيا موضوع احتلال مصر ، وظل مؤتمرهم منعقداً حتى رسخت أقدام الإنجليز فى البلاد واكتفوا بأن أصدروا فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٨٨ اتفاق القسطنطينية الخاص بالقناة . وقد ظل هذا الاتفاق الاداة الدولية الوحيدة التى تحكم شؤون القناة منذ ذلك التاريخ ، فلم يلحقه تعديل ما حتى بعد الحرب العالمية الأولى ، فقد تأيد فى معاهدة فرسايل بمقتضى المادة ١٥٢ . وظلت الحال كذلك إلى أن أبرمت مصر معاهدة التحالف والصداقة مع بريطانيا فى سنة ١٩٣٦ .

---

(١) عدد أعضاء مجلس إدارة الشركة الآن ٣٢ عضواً منهم ١٩ فرنسيا و ١٠ بريطانيون ومصريان وهولندى .

ويقضى اتفاق القسطنطينية بأن تبقى القناة حرة مفتوحة فى الحرب والسلم لجميع السفن التجارية والحربية من غير تمييز بين دولة وأخرى . وقد اتفق المتعاقدون نتيجة لذلك على ألا يتدخلوا فى حرية استعمال القناة لا فى زمن الحرب ولا فى زمن السلم ، وأن يحظر حصرها بحريا ، كما يحظر تحصين سواحل القناة أو القيام بأعمال حربية فيها أو على مسافة ثلاثة أميال من سواحلها .

وقد نص فى المادة الثانية عشرة من هذه الاتفاقية على مبدأ المساواة التامة بين الدول كأساس من الأسس المتفق عليها. وتطبيقاً لهذا المبدأ اتفق المتعاقدون على ألا تحاول دولة منهم أن تكسب لنفسها فى منطقة القناة امتيازات إقليمية أو تجارية أو دولية أياً كانت .

وتعترف هذه الاتفاقية صراحة بحق مصر الطبيعى فى القناة ؛ فنص فى المادة التاسعة : على أن تتخذ الحكومة المصرية الاجراءات اللازمة لتأمين تنفيذ شروط الاتفاق فى حدود الفرمانات الممنوحة لها وفقاً لشروط هذا الاتفاق .

وقد وافقت على هذا الاتفاق الدول التى يهمها أمر القناة ، وهى بريطانيا وفرنسا وألمانيا وهولندة وإيطاليا وأسبانيا وروسيا وتركيا والنمسا . ولم تكن مصر — وهى صاحبة الشأن الأول والأخير فى القناة — بين هذه الدول لأنها من الوجهة الدولية كانت تابعة لتركيا . فلما زالت السيادة التركية عن مصر عقب الحرب العالمية الأولى منحت إنجترا نفسها — بمقتضى معاهدات الصلح — حق السيادة التى كانت لتركيا . ولكن السيادة الشرعية كانت حقاً لمصر ؛ إذ أن تركيا لم تتنزل رسمياً عن حقها إلا فى سنة ١٩٢٣ بمقتضى معاهدة لوزان ، وكانت مصر قبل ذلك قد أعلنت على الملأ استقلالها فى سنة ١٩٢٢

وكانت موافقة بريطانيا على اتفاق القسطنطينية بتحفظ اشترطته ، وهو ألا يقيد هذا الاتفاق حريتها فى العمل بمصر ما دام الاحتلال البريطانى باقياً .

على أن بريطانيا رغم هذا التحفظ ومعها مصر قد احترمت حرية القناة ونفذت شروط الاتفاق بكل دقة فى أثناء السلم وفى أثناء الحرب ، اللهم إلا فى الفترتين التى نشبت فيهما الحربان العالميتان الأولى والثانية ؛ فإن إنجلترا بحكم مركزها فى مصر وتفوقها فى البحر كانت تسيطر على القناة وتتحكم فى حركة الملاحة بها . أما فيما عدا ذلك فكانت القناة مفتوحة للجميع ؛ ففى الحرب الامريكية الأسبانية سنة ١٨٩٨ مرت السفن الحربية الأسبانية فى القناة قاصدة جزر الفلبين

للدفاع عنها ، وفى سنة ١٩٠٥ مر الأسطول الروسى قاصداً البحر الأصفر لمحاربة اليابان ، وفى سنة ١٩١١ حين قامت الحرب الإيطالية التركية فتحت القناة للمتحاربين جميعاً . ولما قامت الحرب الإيطالية الأثيوبية سنة ١٩٣٥ مرت السفن الإيطالية الحربية والتجارية قاصدة غزو الحبشة دون أى اعتراض .

وقد سحبت انجلترا تحفظها عند ما أبرمت مع فرنسا الاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ ، ولم تستبق منه إلا شرط عدم التقيد بنص المادة الثامنة عشرة التى تقضى بتكوين لجنة من ممثلى الدول بمصر لمراقبة تنفيذ شروط الاتفاق ، وهى لجنة لم يقدر لها أن ترى النور .

ويظهر أن الدول كانت قد أرادت باتفاق القسطنطينية أن تسرى شروطه على القناة مهما تبدلت الظروف ؛ فنص فى المادة الرابعة عشرة على أن الدول الموقعة على الاتفاق توافق على أن التزامات هذه المعاهدة لن تكون رهينة بمدى عقد الامتياز الممنوح للشركة ، فالشركة تنتهى بانتهاء عقد الامتياز فى ١٧ نوفمبر سنة ١٩٦٨ ولكن شروط الاتفاق تظل سارية .

***

ومن ينعم النظر فى شروط اتفاق سنة ١٨٨٨ لا يرى فيه أثراً لنظام «الدولية» فى القناة رغم ما جاء فى المادة الثامنة منه، وفيها أن الدول الموقعة على الاتفاق ستعهد إلى ممثليها فى مصر أن يراقبوا تنفيذ شروط الاتفاق، وأن يكون اجتماعهم برياسة أقدمهم أو برياسة مندوب خاص من قبل سلطان تركيا أو من قبل خديو مصر . غير أن هذه المادة كما قلنا قد ولدت ميتة لحسن الحظ .

ولما اشتد قلق إيطاليا بعد استيلائها على الحبشة وزاد خوفها وسخطها على أثر إبرام معاهدة التحالف والصداقة بين مصر وبريطانيا فى سنة ١٩٣٦ — وقد نص فيها على أن لأنجلترا أن تساعد مصر فى حماية القناة ورخص لها بصفة مؤقتة أن يكون لها بمنطقة القناة حامية عددها ١٠٫٠٠٠ جندى و ٤٠٠ طيار — احتجت إيطاليا ورأت فى ذلك مخالفة صريحة لاتفاق سنة ١٨٨٨، وجعلت تطالب بإعادة النظر فى شأن القناة وضرورة جعلها دولية حتى يتسنى لإيطاليا أن تأخذ مكانها إلى جانب بريطانيا وفرنسا فى مجلس إدارة القناة . وقد رد وكيل شركة القناة إذ ذاك على هذه المطالب بأن تعيين أعضاء مجلس إدارة الشركة

متوقف على رغبة أصحاب الأسهم فى جمعيتهم العمومية . أما تعديل نظام الشركة وقوانينها فلا بدّ فيه من أخذ رأى مصر صاحبة الشأن الأخير فى القناة . وكذلك رد وزير الخارجية فى وزارة المرحوم محمد محمود باشا رئيس الوزارة المصرية إذذاك قائلا فى جواب له على أحد الأسئلة :إنه لا يمكن إجراء أى تغيير فى نظم الشركة الأساسية ما لم توافق عليه الحكومة المصرية ، لأن القناة تجرى فى أرض مصرية ، ولأن مصر هى التى منحت عقد الامتياز ، ولأن القناة سوف تعود إلى مصر بعد انتهاء أجل ذلك العقد .

ولما ضاق بعض الساسة المصريين ذرعاً بمطالب بريطانيا من حيث ضرورة بقائها بمصر لحماية قناة السويس لأنها الشريان الحيوى لامبراطوريتها ، هان على هؤلاء الساسة فى سبيل تحقيق استقلال البلاد أن يقترحوا على إنجلترا أن يوكل إلى عصبة الأمم أمر الدفاع عن القناة . وكان حزب العمال يميل إلى تنفيذ مثل هذا الاقتراح حين كان وزراؤه خارج الحكم قبل وزارتهم الأولى ، فلما تمرسوا بالأعمال لم يجدوا بدًّا من الاحتفاظ بكل مقومات الإمبراطورية البريطانية وفى مقدمتها شركة قناة السويس، فأعلن مستر أرثر هندرسن وزير الخارجية إذ ذاك «أن اتفاق سنة ١٨٨٨ يحدد حرية الملاحة فى قناة السويس ، ولا ترى حكومة جلالة الملك أن هناك من الأسباب ما يدعو إلى تغيير هذا الوضع». وحسناً فعلت إنجلترا حين رفضت هذا الاقتراح . ولو أنه نفذ وقتئذ لكانت القناة اليوم فى حالة شبيهة بنظام « طنجة » مباءة للمنافسات والخلافات الدولية !

ولم يعد المصريون منذ أبرموا معاهدة التحالف مع بريطانيا يتحدثون عن « دولية » القناة . فنظام الدولية فضلا عن مخالفته لحقوق الشركة وأصحاب الأسهم فيها يتنافى مع حق مصر فى السيادة التامة على أرضها وفى داخل حدودها. ولا يشرف مصرأن يقوم نظام حكم دولى مهما يكن نوعه على أرض مصر، أو أن تتعاون طائفة من الدول فى الدفاع عن جزء من أرضها . بل إن واجبها الوطنى ليقتضيها الآن أن تنهض بقواتها وأسلحتها المختلفة لتضطلع وحدها بمهمة الدفاع عن القناة بالأصالة عن نفسها وبالنيابة عن الأمم المتحدة .

وليس فى ميثاق الأمم المتحدة الذى أقره مؤتمر الدول فى سان فرانسسكو فى يونية الماضى ما يشير إلى اعتبار منافذ البحار مناطق استراتيجية تشرف عليها الأمم المتحدة ، فقد نصت المادتان ٨١ و٨٢ من الميثاق المذكور على أنه

«يجوز أن تحدد مناطق استراتيجية. . . فى الأقاليم التى تخضع لنظام الوصاية، وأن مجلس الأمن هو الذى يباشر جميع مهام الأمم المتحدة الخاصة بهذه المناطق الاستراتيجية » . وتنص المادة ٧٨ على أنه « لن يطبق نظام الوصاية على الأقاليم التى أصبحت أعضاء فى هيئة الأمم المتحدة » . على أن هذا لن يمنع الدول عند ما يجتمع مؤتمر السلام العام من إعادة النظر فى الاتفاقات الدولية التى تحكم منافذ البحار ومن بينها اتفاق سنة ١٨٨٨ الخاص بالقناة . وعندئذ يتعين على ممثلى مصر فى المؤتمر أن ينبهوا الدول إلى أن قناة السويس ممر بحرى صناعى لا طبيعى كمضيق جبل طارق أو الدردنيل أو عدن ، وأنه محفور فى أرض مصر بأمر من حكومة مصر ، وقد تقاضانا حفره أرواحاً وأموالا كثيرة ، وأن أمره الآن بيد شركة مساهمة مصرية قانوناً، وسيصبح قريباً ملكاً للدولة . وقد نص فى المادة الثانية من الميثاق على أنه « ليس فى هذا الميثاق ما يبيح للأمم المتحدة أن تتدخل فى شؤون دولة ما إذا كانت هذه الشؤون من مستلزمات سلطانها الداخلى » .

يبقى نظام « الحيدة » وليس فى شروط اتفاق سنة ١٨٨٨ نص صريح على حيدة القناة . وليس معقولا أن تتمتع القناة بنظام الحيدة مع أنها جزء لايتجزأ من مصر، ومصر ليست دولة محايدة كسويسرا مثلا . غير أننا نلاحظ أن اتفاق سنة ١٨٨٨ قد تضمن جميع مستلزمات الحيدة تقريباً ، فنص فى المادة الأولى منه على حرية القناة ، وأنها مفتوحة لجميع السفن على اختلاف أنواعها فى الحرب وفى السلم، كما نص على عدم إقامة الحصون على ضفاف القناة وعلى بعد ثلاثة أميال من سواحلها . كذلك نص فى عقد الامتياز سنة ١٨٥٦ على أن القناة وموانيها مفتوحة كطريق محايد comme passage neutre لجميع السفن على السواء . فإذا كانت الحيدة بمعنى الحرية فإنها مكفولة بشروط اتفاق سنة ١٨٨٨ .

أما نظام «الحيدة» المعروف دوليًّا والذى تخضع له سويسرا فقد أصبح بعد إنشاء عصبة الأمم عقب الحرب الأولى وبعد إقرار ميثاق الأمم المتحدة فى هذا العهد نظاماً عتيقا بالياً، إذ لابدَّ لكل دولة تحترم نفسها وتؤمن بمستقبلها ومكانتها بين الأمم أن تأخذ مكانها إلى جانب زميلاتها، وأن تتعاون معهم فى نصرة المبادئ الديمقراطية ونشر رواق السلم، ورد عدوان الدولة أو الدول المعتدية على حرية السلام ولو اقتضى ذلك استخدام القوة . وظاهر أن مبدأ استخدام القوة

لايتفق مع نظام الحيدة . ولا يعقل أن يكون هناك وسط مقبول تلتزمه الدولة المحايدة فتقف مكتوفة الأيدى بين قضية الحرية والسلام من جهة وقضية الاستعباد والعدوان من جهة أخرى .

ألا إن الحيدة كما قررها علماء القانون الدولى هى انتقاص لاستقلال البلاد، وحدٌّ من حريتها فى التوسع والتحالف السياسى مع من تشاء من الدول . ونحن نعرف أن مصر مقبلة على طور جديد وخطير فى حياتها الدولية ؛ فقد أنشأت مع أخواتها «جامعة الدول العربية» للذود عن صالح الأمم العربية . وقيام هذه الجامعة وحده ينافى تماماً مبدأ «الحيدة» . ولا تزال أمام مصر أهداف سياسية وإقليمية تسعى لإدراكها؛ ولا أمل فى بلوغها مع التواكل والقناعة والاستسلام، وجميعها مرادفات لمعنى الحيدة .

محمد رفعت

حيـــــاتى

أنا أحيا على الوجود وحيداً لا أرى لى مؤانساً غير نفسى
أنا أحيا كما أشاء ، لأنى قد تجردت من نوازع حسى
لا ترانى أمضى وراء سراب لن أراه بالماء ينضح كأسى
أو ترانى أسير نحو رجاء مبعد دونه مهامه يأس
حسْبُ نفسى أنى أجمّل عيشى كيفما كان بالرضا والتأسى
وكفانى من السعادة أنى لم ينلنى من الأذى غير مس

* * *

أنا فى داخلى أعيش سعيداً مستقرًا فى عالمى مطمئنا
من يرانى يظننى غير صاحٍ بينما لاتكون ذاتىَ وسنى
أناوحدى أعيش فى الصحوة الكبـ رى، وإن كنت فى الدجى مستكنا
أنا أرتاد كل آفاق نفسى فأراها تضم ما أتمنى
أنا منها ، وهذه النفس منى وأرى الكون كله ليس منا
كل مافى الوجود خارجَ نفسى فهباء بمثله لست أعنى

* * *

أنا فى عالم رحيب قصىٍّ ياله عالما رحيبا قصيًّا
يغمر الصمت والهدوء حياتى كظلال يغمرن نبعا خفيا
لا لهيب الحرمان يلفح روحى أو ضباب الأسى ينيخ عليا
إننى قد أحلت كل حياتى نغمة حلوة ولحنا شجيا
إننى عدت فاتحدت بروحى وحللنا معا مكانا عَلِيًّا
ليتنى هكذا أعيش فإن جا ءلىَ الموت قلت : ياموت هيا

***

أنا أحيا على الجبـال بروحى بعد أن عشت فى الوهاد طويلا

كنت فيها ظمآن أمشى على الشو ك لأرتاد نبعها المأمولا

ثم أدركت أننى كنت مخـدو عا ، وأنى أرى المنى تخييلا

فتساميت نحو آفاق نفسى وتعرّفت سرها المجهـولا

فتـجلى علىّ نور عجيب عنده تصبح الأمانى فضولا

ليـتنى هكذا أعيش فإن جا ءلىَ الموت قلت : طبتَ رسولا

***

لا تلمنى إذا انطويت على نفـ ـسى ، وأصبحت مغرقا فى سكونى

إننى قد حييت فى هذه الدنـ ـيا حياةً عجيبة التـكوين

لذة طيّها الشجون ، وشدو فى ترانيمه بـكاء حزين

وأمانٍ يشتاقها الحس لـكن إذ يراها يقول : لاتـكفينى

ونجاح يأتى بغـير اجتهاد واجتهـاد يأتى بأمر مَهـين

أنا مارست كل هذا ، ولكن عدت منـه بصفقة المغبـون

***

لا تُحَـدِّثْ عن الغوانى ، فإنى ليس شىء بين الغوانى وبينى

كل أنثى عرفتها قد وجدت الـ ـغدر منها أو السآمة منى

إنمـا الحب كوكب فى فؤادى لم أشاهد سنـاه يوما بعينى

أنا أبغى روحاً شقيقاً لروحى أين هذا الروح الشقيق؟.. أجبنى

لم أجده فعدت أعشق روحى وحدها ، ثم عدت أعشق فنى

ليتنى هكذا أعيش فإن جا ءلىَ الموت قلت : ياموت خذنى

* * *

لا تحدِّث عن الجمال ، فإنى لست أصبو إلى جمال المظاهرْ
أنت لاتعرف الجمال إذا كنـ ت ترى رسمه بتلك النواظر
إن روح الجمال فى باطن النفـ س تراه منا عيون البصائر
لا أرى الكون فى رحيبٍ مداه غيرَ رمز لعالمٍ غير ظاهر
إننى دائماً أراه بقلبى رب عين تنام ، والقلب ساهر
ليتنى هكذا أعيش فإن جا ءَ لىَ الموت قلت ياموت بادر

* * *

لا تحدِّث عن الشباب فإنى قد رثيت الشباب قبل المشيبِ
ومزجت الشراب فيه بدمعى قبل أيام وحشتى ونحيبى
كنت أخشى عليه من الليالى ودبيب الأيام فوق الدروب
وأرى صورة المشيب بفكرى فكأنى أسير فوق اللهيب
غير أنى لما رجعت لنفسى أذهبت حيرتى بقولٍ أريب :
إن يكن ذلك الشباب سيفنى فسيبقى لنا شباب القلوب

* * *

لا تحدث عن الفناء فإنى أنا أدرى ماذا يكون الفناء
إنه رجعة الرماد كما كا ن لهيبا يموج فيه الضياء
إنه عودة المياه من البحـ ر إلى حيث أنشأتها السماء
لا أراه من الحياة انحدارا فهْو عندى إلى الحياة ارتقاء
صور الموت جمة فتخيَّرْ صورة زفَّها إليك الرجاء
قد تخيرتُ ثم قلت لنفسى حينما ضمنى إليها المساء :
إن يكن هكذا فما أروع المو تَ ، وإلا فليبد كيف يشاء

ابراهيم محمد نجا

التعقيد فى شعر المتنبي

عرف شعر المتنبى بكثرة الأبيات المعقـدة معنى وتركيباً ولفظاً حتى عد التعقيد من خصائصه، وكثر ذلك كثرة أدهشت المعجبين به وعشاق شعره. وأظن أن كثيراً من المتأدبين لا يجدون غضاضة فى هذا التعقيد، بل منهم من يلذ له هذا النوع من القول، وأحسبهم يشعرون بشىء من الغبطة حين يجلو الشرح لهم المعنى المغلق البعيد.

والذى يعنينى الآن أن أحاول فهم سبب هـذا التعقيد فى شعر رجل كأبى الطيب مهما اختلف الناس فى حبه أو حب شعره فلا خلاف فى أنه شاعر قادر فذ. وليس للشعر معنى إن لم تكن فيه صورة نفس الشاعر سواء أكان على علم بهذه الصورة أم لم يكن. والشعر يدل على كثير من خصائص نفس قائله بصرف النظر عن المعنى الذى يدل عليه اللفظ أو الفكرة التى يريد الشاعر إبرازها. ومن السهل على الجبان أن يفخر بشجاعته حتى لتحسبه صنديداً لا يشق له غبار، ولكنه إن كان شاعراً حقًّا فستجد فى شعره ما يدل على حقيقته مهما كانت دعواه.

ولدىّ ما يحملنى على اعتقاد أن التعقيد فى شـعر المتنبى لم يكن عفواً بل فيه ما يدل على حالة نفسية معينة.

الشعر المعقد فى ديوان أبى الطيب نوعان:

نوع جاء فيه التعقيد عرضاً، كأنما الشاعر ارغم عليه، وذلك كالبيت الثانى من القصيدة التى مطلعها:

أتراها لـكثرة العشـاق   تحسب الدمع خلقة فى المآقى
كيف ترثى التى ترى كل جفن   راءها غير جفنهـا غير راقى

بدأ البيت الثانى سلساً كالأول أو أسهل منه قياداً، ثم صعب فى أول الشطر الثانى حتى اضطر المتنبى إلى تعقيده والاغراب فيه، ثم خلص من صعوبته فجاء على ما يراه القارئ واضح التعسف نابى اللفظ سيئ الانشاء.

وثم نوع جاء التعقيد فيه عن قصد؛ فالشاعر أراد أن يكون قوله معقداً صعباً كما فى قوله:

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه ... بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

لانزاع فى أن المتنبى وضع هذا البيت ليتعب سامعيه وشارحيه قصداً. ولابد أنه كان يسره أن يرى سامعيه فى حالة دهشة وتفكير وبحث وإن كان أثر تعبه فى إنشائه لا بد أضاع عليه شيئاً من هذا السرور.

ونوع ثالث هو خليط بين هذين النوعين من التعقيد، كما فى قوله:

أحاد أم سداس فى أحاد ... لييلتنا المنوطة بالتنادى

أراد المتنبى أن يخرج هذا البيت معقداً فأغرب فيه من أول كلمة بدأه بها إتعاباً لسامعيه، ثم تعب هو نفسه فاضطر إلى التعقيد فوق التعقيد، وأقحم كلمة « لييلتنا » اضطراراً كما اضطر إلى « راء » فى البيت السابق.

وكل من هذين النوعين يدل على حالة نفسية.

وإنى لأرى فى التعقيد الأول أثراً من آثار حرص المتنبى، فهو يبدأ البيت حسناً سهل المطلع واضح الفكرة، ثم يصعب إتمامه فيعز عليه أن يضيع البيت وفيه هذه الحسنات فيتمه بأى شكل كان. وليس له فى ذلك عذر؛ إذ ليس فى الشعر العربى من الاتساق ولا بين أبيات القصيدة من الارتباط ما يجعل إسقاط بيت أو بيتين ذا أثر فى القصيدة. فلم يكن هناك مانع من ترك هذه الابيات لولا أنه عدها ملكاً له يحرص عليه، وهو نوع من البخل قد لايعاب كثيراً وتجده منتشراً بين كثيرين من الكتاب. ومن الناس من يحرص على فكرة عرضت له فيكررها ويسرف فى إبرازها وهى بعد عادية لا تمتاز بشىء من الطرافة. والانسان معذور حين يحرص على الدرة الغالية والفكرة العالية. ولكن الحريص يحرص على كل مايملك وإن كان شيئاً لاقيمة له. وإنا لنجد فى الكتب التى تحوى مجموعة من الأفكار المستقلة دون أى ارتباط خاص بينها، نجد فى هذه الكتب حتى عند أكبر المفكرين الفكرة الهزيلة بجانب الفكرة الرائعة. ويعجب الانسان كيف لم يسقط المؤلف هذا النوع من القول العادى.

أما النوع الثانى من تعقيد المتنبى فسببه أعمق. وشرح ذلك أن كثيرين من

الناس يحبون أن يضعوا صعوبات وهمية أمام أنفسهم يخادعون بها أنفسهم ليقتنعوا بأنهم يستطيعون ما يريدون متى أرادوا .

ومن ذلك أمثلة مضحكة ، منها الرجل الذى يسير على إفريز فى الشارع متعمداً ألا يضع رجله على فاصل بين حجرين ، وآخر يتوخى أن يتخطى كل حجر كبير يصعب تخطيه حين يمر به على الافريز . ومن الأمثلة المعروفة فى ذلك من يكون لديه ساعات يصل فيها إلى دار التمثيل ، فينصرف عن ذلك إلى غير عمل حتى لا يكون بينه وبين ميعاد التمثيل إلا دقائق ، ثم يهرول ويصل فى الدقيقة التى أرادها دون تأخير وهو فرح بذلك ليقنع نفسه أنه يستطيع ألا يتأخر عن ميعاده إذا أراد مهما كلفه ذلك من الصعوبات ناسياً أنه خلق لنفسه الصعوبة خلقاً .

هذا النوع من العمل له دلالة معينة ترد كثيراً عند التحليل النفسى ، وهو يدل على أمل خائب أو إخفاق متوقع ، وفى عصرنا هذا أكثر دلالته على الحب الخائب . ولا أظن ذلك أرجح الأسباب فى حالة المتنبى ، وإنما هو دليل على ما كان يعلمه فى نفسه من قصور عن بلوغ أمل يعلم حق العلم أن ليس له قدرة على تحقيقه لا لعيب فى زمانه ولكن لعيب فيه .

هذا التعقيد مقصور على عهده الأول ، والظاهرة النفسية التى نحن بصددها تكون فى عهد الشباب . ثم اتصل بسيف الدولة فلاحت له بارقة أمل . ثم أخفق وجاء إلى مصر ولم يعد به من القدرة على خداع النفس ما يستطيع أن يوهم به نفسه أن التخلص من صعوبة الشعر دليل على قدرته على التخلص من صعوبات الحياة بنفس السهولة إذا شاء .

فالتعقيد ظاهرة واضحة الدلالة على عقلية المتنبى إبان شبابه ، وهى دليل صريح على صغار فى النفس وقصور فى الهمة والكفاية وعلى تباعد ما بين غناء الفتى وآماله . وللناس أن يأملوا فى الحياة ما يشاءون وإنما يقاسون بما يستطيعون ، وبين ذلك وبين آمال المتنبى بون شاسع .

واقتناعى بهذا الدليل على الجهد القصير والعزيمة الفاترة ، يجعلنى على ثقة من حقيقة نفس أبى الطيب . ولن يغير من اقتناعى شيئاً ما زعم لنفسه من الشجاعة والقدرة على كل شىء ولا ما قيل عن علو همته ولا ما ذكر عن الخيل والليل والبيداء والسيف والرمح .

وإذا شاء القارىء أن يعد هذا طعناً فى أبى الطيب فله ذلك إن كان من

يحبون أن يصدروا أحكاماً على الناس وطبائعهم ، ولكنى لا أحب أن يكون ذلك طعناً فى شعره . وعندى أن شعره دل على صفات كامنة غير مايدل عليه ظاهر قوله . وذلك عندى دليل على الشعر الجيد الذى خرج عن مجرد الصيغ المألوفة .

ولا يجب أن يكثر المؤلفون من ذكر علو همة المتنبى ولا أن يقدموه للشباب على أنه مثال يحتذى ؛ فهو لم يكن كذلك ، وشعره لا يحمل إلى قرائه هذا الشعور رغماً من حماسة موضوعاته .

وهنا لا أجد مفراً من ذكر كلمة « بول ڤاليرى » : إن الموضوع بالنسبة للقصيدة كالاسم بالنسبة للرجل ألصق الأشياء به وأبعد الأشياء عنه .

***

إنما قصر شعر المتنبى من ناحية أخرى ، وذلك أنه مع دلالته على نفسه عجز تماماً عن أن ينقل للناس أية عاطفة ترفعهم عن حياتهم العادية . فإعجابنا بشعر المتنبى إعجاب عقلى محض ، أو بعبارة أخرى إعجاب بالصياغة . وقد تكون هذه العقلية الخالصة أضعف نواحى أبى الطيب .

شعر المتنبى فى أحسن حالاته يمثل أرقى الشعر العربى بكل عيوبه ومزاياه . وعلى شدة إعجاب الناس به وعلى إعجابى به فى عهد من عهود حياتى ، لم أزل أجد فيه ما يرغبنى عنه ومايجعل اللذة الفنية عنده مشوبة بكثير من النقص . ويتبين ذلك بوضوح تام عند قراءة الكثير من شعره جملة واحدة .

والعرب عادة ينظرون إلى بيت الشعر قائماً وحده مستقلا ، فمن أجاد فى كثير من الأبيات فهو شاعر مجيد ، ولم يعنوا كثيراً بدراسة القصيدة من حيث وحدة نظام التفكير فيها واتساقها ، ولم يحاول كثير من نقادهم أن ينظروا إلى ديوان الشعر على أنه عمل واحد يدل على عقلية معينة .

فطريقة النقد عند العرب المنصبة على الأبيات مستقلة ترفع المتنبى إلى ذروة المجد ، فاذا نظرنا إلى قصائده وجدناها أقل روعة . وعند نظر ديوانه جملة يتبين الكثير من النقص المعيب .

وقد حاولت أن أستقصى أسباب ما يشعر به الانسان عند قراءة الكثير من شعر المتنبى جملة من ضيق لاشك فيه . وعندى أن ذلك يرجع إلى شيئين : أنه شعر عقلى محض ، وأنه ينقصه الشعور الانسانى الرقيق .

والصفة المحببة إلى النـاس فى الشعر هى حمل صور جميلة إليهم بشكل لم يكن يخطر لهم بسهولة . والخيال هو تلك القدرة التى يستطيع بها الشاعر أن ينقل إلى الناس هذه الصور نقلا يرتفع بهم فوق مستوى إحساسهم العادى . وأما الصور العقلية المحضة فقد تستساغ حيناً ولكنها حين تكثر تصبح عقيمة متعبة . وإذا كان لهـذا التعريف قيمة فالمتنبى من أقل الناس خيالا. وسأضرب لذلك أمثلة من خير شعره ؛ فليس من العدل حين ندرس الشعراء أن نلتمس ما فيهم من نقص فى غير الجيد من قولهم .

المتنبى فكر كثيراً ، ولكنه لم ير شيئاً بغير العين التى يرى بها أقل الناس قدرة على الشعر . وليس فى الصور التى يعرضها والتشبيهات التى غايتها تقريب هذه الصور ما يرفع من إحساسنا شيئاً أو يخرجنا عن نظرنا العادى وتفكيرنا اليومى .

وقديما أعجب الناس بهذا البيت :

وقفت وما فى الموت شك لواقف   كأنك فى جفن الردى وهو نائم

وهو خير مثل للصور العقلية التى لاغناء فيها والتى تتعب خيال القارئ دون أن تنقل اليه صورة ما إلا صورة مستحيلة تكاد تكون عقيمة لا تستريح اليها النفس مطلقاً .

ثم قوله :

قد سودت شجر الجبال شعورهم   فكأن فيه مسفة الغربان

لا أكاد أصدق أن هذه الصورة خطرت للمتنبى وهو ينظر إلى الموقعة ، فرأى فيها الشعور تسود الشجر ؛ فهى صورة عقيمة ، إنما تخطر لرجل حين يخلو إلى نفسه فى بيته يريد أن يتخيل موقعة فيذكر السواد ، فيخطر له الشعر ثم الغربان . ليس ذلك خيال رجل مرهف الحس رأى الموقعة فعلا فهاجت فى نفسه صوراً غير عادية يريد ان ينقلها إلى الناس . هذه الصفة ليس للمتنبى فيها كثير ولا قليل ، وهذا البيت يدل على أنه كان شاعراً بفكره لا باحساسه وخياله .

ثم انظر قوله :

فأقبل يمشى فى البساط فما درى   إلى البحر يسعى أم إلى البدر يرتقى

فهو حين يصف رسول أمة مهزومة يدخل على ملك منتصر بيده القضاء على

كل ما هو عزيز لديه ، تجده لايصور ذلك المنظر وما فيه من رهبة وذلة أو أنفة وغضب أواحتمال على مضض أو غير ذلك من صورهذا المنظر الرهيب ، وإنما تراه يترك ذلك كله ليقول بفكره مثل هذا القول العادى : « إلى البحر يسعى أم إلى البدر يرتقى . »

وليس فى وصف المتنبى للمواقع ما يدل على أنه حضرها فرأى فيهـا ما لم يره أبسط الجند فكراً .

أنظر قوله :

هذى نواظرها والحرب مظلمة　　من الأسـنة نار والقنا شمع

وقوله :

تضحى الحصون المشمخرات فى الذرى　　وخيـلك فى أعنـاقهن قـلائد

حتى الصورة الأخيرة أفسدها عدم اتساقها مع رهبة الموقف .

أما نقص الشعور الانسانى فى شعره فواضح مؤلم ، ويزيده نقص الصور الحية فى ذلك الشعر .

أنظر قوله :

يطمع الطير فيهم طول أكلهم　　حتى تـكاد على أحيائهم تقع

ليس هذا مما يرفع من قيمة إحساس المتنبى حين نذكر أنه يصف جثث القتلى تحوم حولها الطيور .

وقوله :

وجرى على الورق النجيع القانى　　فكأنه النـارنج فى الاغصان

هذه الأبيات صور عقلية عقيمة ، فهى من الناحية الفنية عبث ، ومن الناحية الانسانية مزعجة .

فى أحسن شعر المتنبى إسراف شـديد فى العقلية المحضة الخالية من كل أثر للخيال الخصب ، الذى يرى فى الحياة والطبيعة مالايراه غيره ، والذى ينقل الصور العالية إلى القـارئ ، ثم إن الفرص التى أتيحت للمتنبى أن يرى عن قرب أموراً

ذات خطر لم يستطع المتنبي ان ينتفع منها فى كثير أو قليل إنما حذا حذو غيره فاجاد الاحتذاء . وهو من حيث الشعر العربى قد يكون عظيما ولكنه من حيث الشعر إطلاقاً لا يمكن ان يكون ذا خطر . والذين يقرءون ديوانه جملة يشعرون بكثير من الضيق لا يشعر به من كل همه تذوق الأبيات منفردة .

دكتور محمد كامل حسين
أستاذ جراحة العظام بكلية الطب

نمو الأدب الأمريكى

[كتب هذا المقال لمجلة « الكاتب المصرى » خاصة ، كتبه الناقد الأمريكى الدكتور هنرى سايدل كانبى المولود سنة ١٨٧٨ ؛ وقد تعلم فى جامعة ييل وحصل على درجة دكتور فى الفلسفة ثم دكتور فى الآداب واشتغل بالتعليم وتولى تحرير عدد من المجلات الأدبية الشهيرة ووضع أكثر من خمسة وعشرين مؤلفاً فى النقد الأدبى والتراجم وقواعد اللغة واشترك فى الكتابة لدائرة المعارف البريطانية] .

شهد العقدان الثالث والرابع من هذا القرن فى الولايات المتحدة ، قوة ونضجاً ظاهرين فى الفن الأدبى ، لم يكونا نتيجة للملمات التى نزلت بالعالم فى جملته . ذلك أن الكتاب الأمريكيين ، وقد أحسوا بقوة القارة التى يستندون إليها ، احتذوا فى نضجهم ما فعل كتاب نيو إنجلند من قرن مضى . وكان أن فاقت القصة الأمريكية فى مهارة الصنعة الفنية أى خلق روائى كتب من قبل ، حتى ما كتبه أساطين القرن التاسع عشر . وتناول أدب السخرية الأوجه الجديدة للحياة الصناعية ، التى كانت الولايات المتحدة خير من يمثلها ، وكسبت فيها شهرة دولية وداخلية . وبالرغم من بروست فى فرنسا وجويس فى إيرلندة ، وجالسورثى العظيم فى انجلترة ، أولئك الذين تشرب الكتاب المجددون أساليبهم الفنية ، فان الأدب الأمريكى من شعر ونثر ومسرحيات بدا كأنما يسير نحو ازدهار ، على حين بدت الآداب الأخرى كأنها تذوى وتزول ؛ وهذا ما شعر به الأوربيون أيضاً . وبلغ الشغف بالقراءة بين الجمهور المتعلم فى أمريكا مستوى لم اجده قط إلا فى دوائر محدودة من المثقفين ثقافة عليا فى انجلترة أو فى القارة الأوربية ، فكانت مرحلة نضوج وفترة نهضة تاريخية ازدهرت فيها المواهب والأفكار التى كانت تنمو من زمن .

وحينما استولى على مقاليد الحياة الأدبية الجيل الجديد ، الذى لم تفجأه الحرب العالمية الأولى مفاجأة بغيضة ، بدا واضحاً أن الكتاب الشبان يحسون أنهم إنما يجتازون فترة انتقال . فنرى أن الكتّاب الذين برزوا حوالى سنة ١٩٢٠ مثل سكوت فيتز جرالد من الروائيين ، وروبنسون جفرسن من الشعراء ، وشيروود أندرسون من كتاب القصة القصيرة ، يوضحون لكل ذى بصر أن طريقة الحياة الأمريكية تعوزها الثقة .

ووصف سكوت فيتزجرالد ، وهو لا يزال طالباً بالجامعة ، حياة الشباب الجديد من جيله وهم ينحرفون بعيداً عن مُثُل آبائهم الأخلاقية ، ويسيرون نحو نوع من الفوضى الفكرية . وأبرز روبنسون جفرسن ، الشاعر الذى يصف الحياة فى ريف كاليفورنيا ، ذلك الجانب من الاختلال العصبى العجيب الذى كثيراً ما ظهر فى الآداب الأمريكية من قبل ، كما يرى واضحاً فى هاوثورن وملفيل وبو . وهاجم شيروود أندرسون القصاص ، الأثر المميت لعصر الآلة بأمريكا فى حياة العواطف .

وقد تعدلت تماماً قيم العصر الفيكتورى الخلقية بالواقعية الجديدة للشبان الناشئين الذين تزعّمهم همنجواى ، فكان رد فعل عاطفى عارضَ حتى ما كان معدوداً لدى الكتاب الساخرين من القيم الثابتة التى دعمتها الخبرة .

ويرى همنجواى وجيله أن الحياة الأمريكية فى أسسها وفى ظواهرها حياة لا تطمئن . وهمنجواى أمريكى خالص ، رغم اختلاله العصبى ، وهو رقيق القلب فى عرضه للشقاء الفردى وإن يكن كالحيوان الذى يعض جراحه ، بدأ مذهباً للوحشية كأنه يعتزم تحطيم تلك المثالية الأمريكية السهلة ليرى ما تخفى تحت سطحها . واستولت عليه تلك الحالة التى استولت على الشباب الأوربى مما يسمونه إخفاق كل القيم المتوارثة ؛ فقد نهج سبيل « ثورو » لاهتلر ، وأيد حقوق الفرد أمام الدولة .

وبينما نجد سنكلر لويس يهاجم المجتمع بأسره لجموده ولضيق أفقه ، نجد همنجواى يملأ كتبه بأنواع من الشخصيات الانسانية الجديدة هم فى الأغلب فرديون لا اجتماعيون ، رجال ونساء ممن تصدم تجاربهم القراء العاديين وإن كانوا بلا جدال صادقين نحو أنفسهم مثلما هم ثائرون .

لقد ترعرع هؤلاء الكتاب الأمريكيون المحدثون فى أوقات الحرب ولم

يعرفوا قط عصر الاستقرار والثقة . ومهما تكن فلسفتهم الشخصية فقد بدأت تواجه موجة جارفة من الأحداث الخارجيـة اجتاحت أوربا ناشرة ديانة جديدة خبيثة هى عبادة القوة . ورأوا فى الداخل كيف تكاد عوامل التفكك والانحلال تطفو على السطح وتتحفز للانطلاق .

وقد قرأ الجميع بعضاً من هذا الذى سمى أدباً عنيفاً ، ولكن الذين نفذوا إليه بوصفه ظاهرة خلقية قليلون . فكان أشد من احتجوا عليه الوعاظ والأخلاقيون المحترفون .

وهذه الكتب الجديدة التى ظهرت فى العقد الرابع ، ابتكرت اصطلاحاً جديداً وأسلوباً جديداً ، وإن كانت كلمة أسلوب هى آخر ما ينطبق عليها . فإن القاعدة التى كانت سائدة حوالى سنة ١٨٩٠ وهى أن يكون القول جميلا قد تغيرت فيما يبدو إلى العكس ، وأصبح التعبير كلمة جديدة فى المعنى الذى استعمله توماس وولف ، وهو التعبير عن كل شىء . وقد أهمل هؤلاء الكتاب الشكل تماماً إلا فى فن أمريكا الوطنى وهو فن القصـة القصيرة . والحقيقة أن الروايات وعدداً قليلا من المسرحيات الجيدة ، وسيل الشعر العادى فى أواخر العقد الثالث ، كانت تحمل كل علامات مرحلة جديدة لكتّاب لا زالت أقلامهم مترجحة مضطربة ، ولم يسيطر خيالهم بعد على مادتهم الخصبة . هذا مع استثناء « ستيفن فنسنت بنيت » الذى وصل بالطور الثانى للأدب الأمريكى الذى يحتذى القديم إلى قمته ونهايته فى قصيدتيه الطويلتين عن تاريخ أمريكا وهما «جسد جون براون» و « نجمة الغرب » . وآثاره هى وحدها التى تثبت أن فترة التحول بلغت نهايتها .

ولم يؤثر كثيراً الصراع المذهبى السياسى الذى ساد العالم ، ومزق أوصال الأدب الأوربى ، فى هـذا الأدب الأمريكى الحديث . ولقد تبين خطر هذا النضال على أمريكا فى شعر الكتاب الأمريكيين من أمثال بنيت الذين يتبعون الطريق القديم ، أكثر مما تبين لدى الكتاب الثائرين . ففى محاولتهم تصوير حياة أمريكا الدافقة شىء سليم ناشىء معنىً بذاته . . . أزاح النضال المذهبى بعيداً لا لأنه لا يستحق التفكير فيه ولكن لأنه لا جدوى منه فى قطر لا زال يحفل بالتجارب لتحقيق فرص للجميع ، ولا زال على ثقة بمستقبل قوى زاهر .

وكانت هذه هى السنوات التى شاهدت اتجاه كتاب أوربيين ، بينهم كتاب من الانجليز ، فى شغف وتعطش نحو مسرح الحياة الأمريكية ، وإن كانت كتبهم

لم تتخط فى أهميتها مجرد قيمتها الاخبارية عن أمريكا ، ولكنهم كانوا الفوج الأول لمهاجرين ممتازين كتوماس مان وهرمان بروك وفرانز ڤرفل وعشرات غيرهم ممن هربوا قبل العاصفة على ألمانيا ، وغرسوا جذوراً جديدة فى الولايات المتحدة وتابعوا بل قووا إنتاجهم الأدبى .

وذهب الملل بموجة قصيرة هبت من القصة العمالية وشعر الدعاية ، مما يحملنا على أن نحدس بأن الأدب الروسى الحديث سيبدى — حين يتحرر — نفس الخصائص ، وإن كنا نحن لا زلنا فى مرحلة تحول متصل . وشهد العقدان الأخيران نهاية دورة ثقافية طويلة فى أمريكا وبداءة دورة أخرى .

والآن قد يظن أن قواعد حياتنا لم يطرأ عليها إلا قليل من التغيير ، أقل مما كان مفترضاً فى هذه المراحل الصاخبة .

لقد تكسرت موجة المستقبل بقسوة على صخور أوربا وإن كانت لا تزال فى عنف فورتها .

والقيم القديمة للحضارة الاغريقية المسيحية يبدو أن مصيرها البقاء ، مما يعنى أنها قد أثبتت صحتها ؛ وهو مايراه بعضهم غريباً .

ولكن نطاق التجارب اتسع فى أفقه وعنفه إلى الأبد . وتغير جو حياتنا الروحية والفكرية حولنا تغيراً حاسماً . وقد صار القانون الأساسى الذى يسيطر على تجاربنا واسعاً ليطبق على العالم الذى ظهر لنا على غير ما كنا نتوقعه منذ عشرين سنة فقط .

ولذلك فإن كُتّاباً كإمرسون وهويتمان لا زالوا ينفذون بقوة إلى نفوسنا ، ولا زال كِتَاب هويتمان « سنوات المحدثين » يبدو لنا جديداً يقرأ للآن كأنه كتب فى زمننا ، وكذلك كتابه « رحلة الهند » .

ومن اليسير أن تفهم مقالات إمرسون الآن خيراً مما فهمت فى عصرها ، على أنها مثالية عملية راسخة ، تعانى الهزيمة على الدوام ، ولكنها تهب دائماً متجددة ، فى تاريخ الفكر والعمل الامريكى .

والمسألة لا زالت كما صورها هويتمان فى كتاب رحلة الهند « ألم نبتذل أنفسنا هنا طويلا نأكل ونشرب كالبهائم المجردة ؟ إذن فلتبحر بنا السفينة بعيداً ، ولتدر دفتك حيث المياه العميقة فقط ، فإنا نقصد أماكن لم يجرؤ بحار من قبل على أن يطأها بقدميه » .

لـكن أمريكيو اليوم لهم أن يجيبوا أساتذتهم القدامى قائلين « إن هـذا وذاك أشياء لم تعرفوها ، وما كان فى استطاعتكم أن تفهموها . وأن مبادئكم إذا لم تعدل فانها تطلق أو تواجه موجات من الأحداث ما كانت لتجول بخاطركم أنتم وغيركم . ربما تنبأتم بما سوف تكون عليه الأمور ، ولـكن هـذه الأمور ذاتها : العلم الطبيعى والصناعة ، وطغيان الحرمان المسلح ، والسهولة التى يتغلب بهـا المجرم على البرىء ، هـذه أقطاب من الخير والشر تمتزج وهى كشياطين «ملتون» تحتاج إلى تعاليم جديدة لاستخدامها أو إخضاعها » .

ليس من مهمة الفن أن يمدنا بهـذا الفقه الجديد ، ولـكن الفن ، وخاصة الأدب ، يصلح تماماً لتسجيل ما يطرأ من تغيير . والـكتب التى صدرت خلال ربع القرن هذا تحوى مجرد ظلال للحقيقة ولـكنها تنبىء عن شروق الشمس .

هنرى سايدل كانبى

ترجمة محمد عوده

صلة الأدب بالحقيقة والواقع

وقديماً أخضع افلاطون الأدب أو الشعر لميزان الحقيقة فشالت موازينه فى نظره واستحق أن ينبذ وألا يدخل محترفوه جمهوريته المثالية . إن الحقيقة كائنة فى العالم ، يتمثلها العقل فى صورة مجردة ، وتعينه الفلسفة على هذا التمثل . وتتحقق لتلك الحقيقة صور كثيرة مختلفة على الأرض ، يحققها الصناع ومن فى مرتبتهم . وأخيراً يأتى الشعراء ليصوروا هـذه الصور فيخرجون صورة أخرى للحقيقة هى صورة الصورة أو هى الحقيقة بعد أن بعدت عن أصلها المجرد درجتين فى سبيل إخراجها . فلم كل هـذا التعب والحقائق قد وجدت مجردة ومصورة ؟ وما الفائدة من تصور صور للحقيقة هى فى الدرجة الثانية ما دامت الصور الأولى أمام ناظرنا نراها ؟ لذلك أجلّ أفلاطون الفلسفة لأنها هى التى تصور الحقائق المجردة ، واحتقر الشعر لأنه يخرج لنا صوراً ناقصة لتلك الحقيقة المجردة . وياليته يصور تلك الصور فى دقة وأمانة . كلا إن الشعر يدّعى لنفسه الحق فى أن يُخرج هذه الصور على نحو ما يريد ، ولا يطابق هذا النحو الواقع فى صدق وأمانة أبداً ، إنه دائماً محرف مشوه .

وقام أرسطو يدافع عن الأدب أمام الفلسفة ويرد أستاذه فى استحياء عن هذه الدعوة التى حارب بها الشعراء وشعراء عصره خاصة . فأوضح فى كتابه الشعر أن الأدب أو الفن عامة لا يدّعى لنفسه تلك الغاية التى تدعيها الفلسفة لنفسها ، إنه لا يستكشف حقيقة ولا يميط اللثام عن خفى . إنه يعمل فى ميدان آخر يختلف كل الاختلاف . إنه ينقل الحقائق بطريقته لا ليصورها للناس فى أمانة ودقة ، فهو لا يريد لهم أن يتمثلوا تلك الصور ، وإنما يريد أن يصل بتلك الصور كما يرسمها هو إلى أن تهتز نفوس الناس لتلك الحقائق هزات جديدة فيتمثلوها أعمق مما تمثلوها وأصدق ، ويتأثروا بها فى مزاجهم وحياتهم إن أمكن . إن الشعر المسرحى كما يقول أرسطو لا يريد أن يصور الناس كما هم ، فتلك مهمة

التاريخ لكنه يريد إما أن يصورهم شراً مما هم وذلك فى المسرحية الهزلية، أو خيراً مما هم وذلك فى المأساة . ومن طريف ما يسرد برهانا على أن الشعر المسرحى بعيد عن أن يصور الناس كما هم ، زعمه أننا لا نتأثر بالناس الذين نصادفهم فى الحياة كما نتأثر بالأبطال الذين نراهم على المسرح . إننا نأسى لآلام البطل ونحزن لأتراحه ، ونفرح إذا فرح وننتشى لانتصاراته . والحياة لا يمكن أن تمدنا بهؤلاء الذين تظل عيوننا معلقة بهم نرقب حركاتهم فى شغف وننتظر أحكام القدر عليهم فى شوق ولهفة . إن أبطال المسرح قوم تلذ لنا حياتهم ، ولا تمدنا الحياة بمن تشغلنا حياتهم ولا تربطنا بهم صلات . إننا نشغف بأبطال المسرح لا لشىء إلا لجمال حياتهم التى يحيون ، ولطرافة ما يحدث لهم من أحداث بل لما يتصف به الأبطال وما يأتون به من أعمال عظام .

ترى أنخضع نحن الأدب اليوم لنفس هذا الميزان فنفكر فى الحقيقة التى يصورها أدبنا الحديث ومقدار بعدها وانحرافها أو قربها وأمانتها لهذا الأصل الذى نصف ، لهذا الأصل الواقعى أو الأصل الفاسفى ؟ لقد شغلنا نقد الآثار الأدبية نفسها ، إن شغلنا شىء فى النقد ، عن تصور تلك النظريات العامة . وكما شغل أسلافنا بنقد البيت : ألفاظه ومعانيه وما يمكن أن يكون فيه من جديد أو قديم مكرر معاد ، فإن تعدوا ذلك فالكلام عن الشاعر نفسه وما قد حدث له ، فقد شغلنا نحن أيضا بنفس هذا النوع من النقد وحده ، نقد الآثار فى أفق ضيق ، نقداً لا يعنينا أن نصفه الآن ، ولكن الذى يعنينا هو أننا لم نفكر بعد فى هذه المسائل الفلسفية التى شغلت بال النقاد فى أوربا قديماً وحديثاً ، فجعلت أفق تفكيرهم النقدى والأدبى أوسع وأعمق ، وجعلت لأحكام نقدهم جلالا وقوة .

إن هذا الموضوع وحده قد شغل من تأليف النقاد قديماً وحديثاً صفحات وصفحات كلها متعة وكلها تفكير نفاذ عميق . لقد قال النقاد فيه كثيراً فى كل عصر كانت لهم فيه صحوة ، لا يبغون بقولهم الوصول إلى حقائق حاسمة أو إلى وضع أسس ثابتة لأحكام النقد ، وإنما يبغون الكلام للكلام نفسه انه يفتح فى حد ذاته آفاقا واسعة من التفكير الفنى الخصب ، ويوحى إلى الأدباء والمتأدبين على السواء تأثيرات جديدة وإحساسات لم يألفوها . وأخيراً وهذا هو الأهم إنه يلقى على الآثار الأدبية قديمها وحديثها أضواء وظلالا ليس لقارئها بها عهد

فيرى ما لم ير ويفطن لما لم يفطن إليه من قبل ، وإن يكن قد مرّ به النص الأدبى مرّات ومرّات .

ولقد عقد الكاتب الانجليزى المعاصر ألدوس هكسلى Aldous Huxley فصلين فى كتابه « الموسيقى فى الليل » عن علاقة الأدب بالحقيقة هما من أحسن ما كتب حديثاً فى هذا الموضوع .

أما الفصل الأول فقد أبان فيه الفرق بين الأدباء فى القدرة على الكشف عن الحقيقة كاملة ، وخرج من ذلك أن كل أديب مستحق أن يُقرَأ لا بد كاشف عن جزء من الحقيقة ولكن الحقيقة الكاملة لا يكشف عنها إلا كاتب عبقرى ويجدر بنا منذ الآن أن نفرق بين الحقيقة التى يتحدث عنها هكسلى ، وتلك التى كان يتحدث عنها أفلاطون وأرسطو . فهذان أرادا الحقيقة الفلسفية أو الحق وذاك يريد الواقع ليس غير . وضرب للحقيقة أو للواقع كاملا غير محرف مثلا طريفاً من أوديسا هوميروس . فلقد جاء فى الكتاب الثانى عشر من الأوديسا أن البطل أوديسيوس ما كاد يرفع يده عن مؤخرة السفينة ويدير ظهره حتى رأى ستة من الأبطال أعوانه وأصدقائه يرفعهم غول الساحل من السفينة فى الهواء ليدخل بهم مغارته ويلتهمهم . نعم ! لقد رآهم بعينه ستة من خيرة الرجال والأبطال يستصرخونه وينادونه ويستغيثون به ، وظل أعوانه الآخرون فى السفينة ينظرون فى خوف ويأس حتى توارى الستة عن أنظارهم فى مغارة الغول . ويقول أوديسيوس إن هذا المنظر كان أبشع ما صادفه فى رحلاته عبر البحار والمضايق وأفظعه . ولكن الخطر زال ونزل البطل وأعوانه إلى الشاطئ الصقلى وأخذوا يعدّون عشاءهم ، يقول هوميروس يعدّون الطعام فى صنعة وإتقان ، وينتهى الكتاب الثانى عشر بقول الشاعر : « لما سدوا حاجات الجوع والعطش ذكروا إخوانهم الأعزاء فبكوا عليهم ، ثم غلبهم النوم وهم ما يزالون يبكون » . فهؤلاء الأبطال الأعزاء على إخوانهم قد التهمهم الغول على مرأى منهم ومسمع ، ومع ذلك لما نزلوا إلى الشاطئ أخذوا يُعدّون طعامهم ويُعدّونه فى إتقان . فالإنسان إذا اعتاد إتقان عمل آلى فلا بدّ هو متقنه فى أشد حالات الحزن . ثم أكل الأبطال عشاءهم . فلما شبعوا ذكروا إخوانهم فبكوا . إن الحزن بالنسبة للجائع ترف لا يقوى عليه . إن الجوع والعطش أقوى أثراً فى الجسم من الحزن مهما يكن بالغاً . وللنوم على المسافرين المتعبين سلطان . إنهم

قد عادوا من رحلة ملئت أهوالا وأخطاراً، فإذا النوم يغلبهم، وإذا دموعهم تغرق فى بحر من النوم القوى الجبار. هذه هى الحقيقة الكاملة كما يقول هكسلى: حاجات البدن المادية ثم ترف العواطف والاحساسات. إن البكاء على الأبطال والأخوان وإن ماتوا مستصرخين يحاولون الخلاص من قبضة أسنان الغول لا يقوى عليه جائع متعب حتى يشبع، ولا بد من الراحة حتى يستطيع الإنسان أن ينعم بترف البكاء على الأخوان. إنهم قليلون هؤلاء الذين يستطيعون أن يصوروا الواقع كاملا كما صوره هوميروس.

ويتدرج هكسلى من ذلك إلى أن أنواعاً بعينها من الأدب تلائمها هذه الحقائق الكاملة، بينما أنواع أخرى تأبى إلا الحقائق المصفاة الممتازة كما يسميها هو. ففى قصة أو ما يشبه القصة من ملحمة شعرية أو نحو ذلك يستطيع الشاعر العبقرى أن يصور الحقيقة كاملة، ولكن فى المأساة حيث حدود المسرح والزمن والنظارة لا يستطيع المؤلف أن يصور الواقع كاملا. إن هؤلاء الأبطال الذين فقدوا إخوانهم لو أنهم كانوا أبطالا على المسرح لاكتفى الشاعر بعد أن قص اغتيال الغول لأخوانهم أو صوره ثم جعلهم يبكون بكاءً مرًّا، بكاءً يليق بالأبطال باكين ومبكياً عليهم بكاءً يليق بالحادث الفظيع ويؤثر فى النظارة أقوى تأثير وأسرعه بل أعنفه. ولكنهم لو تركوا على المسرح يتقنون إعداد عشائهم ثم يملأون بطونهم وبعد ذلك يذكرون الأخوان لا نصرف النظارة عنهم وسخطوا على شراهتهم وذموا بلادة حسهم ولم يتأثروا بهم فى شىء. إن المأساة من الأنواع الأدبية التى تحتاج إلى كل الوسائل ليكون التأثر بها عنيفاً سريعاً. لذلك نراها تترفع دائماً عن الواقع العادى، تترفع عن الحقيقة كاملة لتذكر حقيقة مركزة مصفاة، محرفة ولكنها قوية، مبالغاً فيها ولاشك ولكنها سريعة التأثير. إن أبطال المسرح قوم كالبشر ولكنهم فوق مستواهم، هم كالبشر كما يود البشر أن يكونوا، مثاليون فيما يأتون ويحسون، فإذا نزلوا لمستوى الإنسان العادى فهم لا ينزلون إليه كثيراً مهما كان اتجاه العصر أو اتجاه المؤلف نفسه.

ويختم هكسلى هذا الفصل بأنه يلاحظ أن كتّاب اليوم يميلون فى تشبعهم بحب الحق والحقيقة إلى تصوير الحقيقة الكاملة أو الواقع بحذافيره. وهم بذلك يبعدون عن جوّ المأساة الحق. ولذلك ضعف الفن المسرحى فى هذه الأيام ضعفاً ظن كثيرون من أجله أن المسرح يُحْتَضَر. ولكن الفن المسرحى لن

يموت أبداً . إن الإنسان محتاج إلى النوعين من تصوير الحقيقة أو الواقع ، محتاج إلى التصوير التفصيلى الدقيق ، وإلى التصوير المركز المصفى . هو محتاج إلى الحقيقة المثالية وإلى الحقيقة الواقعة . أما الأول فلأنها وحدها بعنفها وقوة تركيزها تستطيع أن تهز أعصابه هزة قوية لتحدث هذا الاتزان فى العواطف الذى لاحظه ارسطو فى كتاب الشعر ، وجعل مهمة المأساة تكاد تكون مقصورة عليه : هذا التصريف للشعور والإحساسات وهذا التطهير لها فتتجدد حيوية الإنسان العصبية بعد أن تصرف منها مافسد وتقوى فيها ما صلح فاتزنت أعصاب الجسد وأحس الإنسان لذلك الاتزان راحة هادئة هى ما يبعثه المسرح أو ما يجب أن يبعثه فى نفوس النظارة . وأما احتياجه إلى الحقيقة الواقعة فلأنها هى التى تصور له الحياة على حقيقتها وهى التى تضيف إلى إحساسه بالحياة إحساساً أدق وأعمق ، وتجعل حياته الحسية غنية بفيض مما يحس هو فى الحياة وما ينقل إليه الشعراء من إحساسهم لها أيضاً .

وأما الفصل الآخر الذى نجده فى نفس الكتاب فقد حاول فيه هكسلى أن يقسم الحقيقة البينة الواضحة إلى قسمين : حقيقة كبرى وحقيقة تافهة . يقول : ليست كل الحقائق البينات حقائق كبرى أو هامة . فالحياة الإنسانية فانية ، تلك حقيقة بديهية بينة . ومدينة نيويورك مزدحمة بناطحات السحاب والسكان ، تلك أيضاً حقيقة بديهية بينة ، ولكن الأولى حقيقة هامة أو كبرى بينما الأخرى حقيقة تافهة . والأدب لا يعنى إلا بالحقائق الكبرى أى الحقائق التى لها أثر فى حياة الإنسان وإحساسه . فكون الضوء يسير كذا ميلا فى الثانية ، وكون الملكة فكتوريا حكمت كذا عاماً ، كل هذه الحقائق على ما لها من خطر يستطيع الانسان أن يعيش وأن يموت فلا يحس لحقيقتها أى أثر فى حياته . فلقد عاش الناس قروناً قبل أن يعرفوا عن الضوء إلا بريقه فما ضرهم ذلك فى شىء ولا جعلهم يفكرون فيه . ولكن الإنسان منذ خلق أو منذ مات الإنسان الأول قد عرف أن الحياة فانية ، وأثرت تلك الحقيقة فى حياته أيما أثر ، وهى ما تزال تؤثر فيه إلى اليوم .

يقول هكسلى : ولكن أدباء فرنسا فى هذا العصر الحديث مجّوا اعتماد الأدب على هذه الحقائق الكبرى ، وتعمّد الكتاب إظهارها فى صور واضحة سافرة لتؤثر فى الجماهير أثرها ، فانصرفوا عنها تجديداً إلى تصوير الحقائق التافهة التى لها

أثرها الوقتى السريع . وتبع أدباء فرنسا أدباء أوربا عامة فى هذا ، إما لأنهم خضعوا لنفس المؤثرات وإما لأنهم أحبوا ما كتب أدباء فرنسا المحدثون فقلدوه. ولكن هذا الاتجاه خطر على الأدباء لأنه اتجاه نحو إرضاء ميول الشعب على حساب الفن . لقد مج الشعب اللعب على هذا النغم ، مجوا سماع الحقائق السافرة تلقى إليهم واضحة مبالغاً فيها ، والشعب دائماً ملول يريد جديداً . وجبن الأدباء عن إظهار هذا القديم الأزلى فى ثوب شيق جذّاب خوفاً من الاخفاق لصعوبة المهمة التى يواجهها الأديب فى ذلك . وظهر هذا الجبن واضحاً فى فرارهم من الشبح المخيف شبح الحقائق البديهية البينة السافرة . وجعل الأدباء يقولون لأنفسهم مسوّغين عملهم إن الطبيعة الإنسانية قد تغيرت ، فرجل اليوم غير رجل القرون الماضية لكثرة ما قد خضع له من مؤثرات عنيفة جارفة فى هذا القرن الأخير . ولكن هكسلى يسأل أحقاً قد تغير الإنسان ؟ أم إن هذه الحقائق لا زالت وحدها هى الحقائق التى يجب أن يعتمد عليها الأدب الذى يزعم لنفسه الخلود . واجهوا الوحش ولا تفرّوا منه أيها الأدباء . واجهوا هذه الحقائق التى كررت وبولغ فيها حتى مل الجمهور سماعها ، وقولوها فى نغم جديد وصوت آخر وروح حىّ تنشئوا أدباً خليقاً بالخلود . أما الفرار من الميدان والاعتماد على مزاعم كاذبة فهذا هو السر فى كثرة هذا الأدب التافه الذى يعيش عليه الناس فى هذا العصر طلباً للجديد ولو كان الجديد تافهاً .

أيكون هكسلى على حق ؟ أيكون هذا التعليل هو التعليل الصحيح لما نحس فعلا من قلة الآثار الأدبية الخليقة بالخلود فى هذه الأيام ؟ إن الأحكام على الأدب المعاصر قلما كانت أحكاماً صائبة . فلنترك للزمن حكمه على هذا الأدب الحديث الذى نقرأ ولكن يكفى هكسلى أنه جعلنا نقف وسط اندفاع الدائرة لنتساءل ، فلعل فى تلك الوقفة استجماما ولعل فيها نظرة إلى الماضى تفيد فى المستقبل . بل يكفيه أنه جعلنا نفكر فى موضوع جديد ؛ فليس أغنى للأدب من التفكير فى موضوع جديد .

سهير القلماوى

رب إقليم الفلاندر

[هذا المقال كتب خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » كتبه الأديب الفرنسى هنرى كاليه وهو من طليعة كتاب فرنسا الآن اشتهر اسمه عند ما نشر مؤلفه فى ذكريات الطفولة سنة ١٩٣٦ ثم زاد اقبال الجمهور على مؤلفاته الأخرى وهو من الأدباء الذين يشتركون فى تحرير مجلة النضال *Combat* الفرنسية] .

اهتزت « رِمين » مضطربة وتقلبت على فراشها الخشن ثم قالت فى صوت خافت :

— لقد أخذنى النوم مرة أخرى .

بدأت تثوب إلى رشدها ومدت ذراعها نحو المكان الخالى بجانبها فى السرير ، مكان زوجها ، فعادت تتبيّن بوضوح الحال الذى كانت فيه وتدرك شيئاً فشيئاً إدراكاً دقيقاً المأساة التى كانا يخضعان لها .

وصدرت منها أنة ألم :

— آه . . . آه . . .

وكانت تجسّ الملاءة القفشة تُمرّر يدها عليها .

— إنه ليس هنا . لقد قام . وهذه مرة أخرى لم أسمعه فيها . إنه عاد إليها . . .

عاهدت رِمين نفسها على أن تبقى مستيقظة ، ودقت الساعة الثامنة فى الكنيسة ، بعيدة الصوت على أنها فى هذه الأيام الأخيرة كثيراً ما كان النعاس يغالبها بالرغم منها . ولا بد أن يكون الذى أيقظها صوت صادر من الحاصل حيث لا يزال موجوداً معها . وكانت رِمين تسمع كل شىء فسألت :

— هل تقدم الليل الآن فأصبح حالك السواد ؟

وعبثاً كانت تحدّق بنظر ما فى الجو الذى يحيط بها ، وهى تهز رأسها ولا تقف عن فرك الملاءة وكأنها تريد أن تكويها ، تفركها دائماً فى البقعة نفسها حيث ضوء

المغرب ما زال يترك شعاعاً ورديًّا فى المكان الخالى . وكانت تنادى متجهه بصوتها إلى فوق :

— ستاف ! أين أنت يا ستاف ؟

كانت تعلم يقين أنه لن يجيب . وهو مع ذلك كان يسمعها ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يجيب . فكانت تكرر نداءها بصوت نائح ، لنفسها ، فى الظلمات التى كانت هى فيها :

— ستاف أين أنت ؟ أين أنت يا ستاف ؟

وصارت يدها أيضاً وردية اللون على أثر حركتها المتصلة ، كأنها تريد أن تزداد استيثاقاً من الفراغ الذى بجوارها . هو لا بد ملازم مكانه ، ولا يتحرك فيه ، لا يجرؤ أن يخطو خطوة ، وسيبقى على هذه الحال من السكون آملا أن تعود إلى نومها . ولكن الضريرة لن تعود إلى النوم .

وأخذت تهمهم :

— فى الساعة الثامنة لا يزال قليل من الشمس باقياً .

وقبل ذلك كانت الشمس فى شهر يوليو هذا توشك أن تغادر المنزل حوالى الساعة الثامنة . قبل ذلك ، عند ما كانت ترى كل شىء بعينيها ، ترى النور ، وحتى الظلام نفسه كانت تراه إذ ذاك . ولم يكن هذا الظلام الجامد العابس الذى يحيط بها الآن كأنه حائط ، بل كان ظلاماً ليناً رخواً يمكن النفوذ إليه . ثم كانت هذه الشمس تنغمس فى الماء نحو مصب النهر . وفى الساعة الثامنة كانت بالضبط على الصورة المقدسة فوق الكانون . ومنذ ذلك الوقت لا يمكن أن يكون شىء قد تغير .

لماذا لم يردّ ستاف ؟

« ربما كان لم يزد على أن ذهب ليعدّ برميل السارادين . لا ! إنهما مازالا فوق معاً . إنى واثقة . وسأصيح الآن فيسمعاننى »

جلست على السرير فبدت نحيلة بيضاء فى قميصها المشدود عند عنقها وكأنها رافعة رأسها وموجهة نحو السقف جفونها الدامية . وكانت تصيح :

— ستاف ! أنا أسمعك ياستاف . وأنت تسمعنى، إنك لا تزال معها . إنزل ! أتركها يا ستاف ! وأنت يا ابنة السوء مُريه ينزل ! اطرديه عنك . لن يأذن الله بأن تستمر مثل هذه الفضيحة هنا . . .

كانت مِين تلجأ إلى التوسل :

— . . . لست وحدى . فأنتما تنصتان إلىّ من مكانكما . أنا أعلم ذلك . إنكما تسمعانى . أجيبانى . . . لشد ما كنت أتمنى ألاّ أولد حتى لا أرى الآن . لا يمكن أن تستمر هذه الحال أكثر من ذلك . ألا تستخذيان ؟

كانا لا يجيبان شيئاً . ومِين تواصل نداءها ، وذراعاها ممدودتان إلى جانبى جسمها ، ويداها منقبضتان على الكرب الذى بها .

— ألا تسمعانى ؟ أتسمعنى يا ستاف ؟ دع ابنتنا لورا هادئة فى سريرها . ألم أعد بعد امرأة لك يا ستاف ؟ لأنى أصبحت لا أرى الآن ؟ إنى لم أستحق ما بليت به من محنة . أنا أيضاً من مخلوقات الله . وأعلمُ أنكما تُنصتان إلىّ وأنكما خائفان . . . يا لله ! ماذا نحن صانعون الآن . . . هى حامل ، نعم ، وأنت السبب أيها اللعين ! لقد تبينتُ ذلك جيداً بيدى هذا المساء . ظننتما أنى لن أعرف شيئاً ، نعم ظننتما ذلك وقلتما فى نفسكما : « إن مين لا تبصر » . أنا لا أبصر ، ولكنى مع ذلك أعرف كل شىء . ماذا سيقول أهل القرية ؟ سيقولون : يا للعار لقد مضى الأب مع ابنته .

وبقيت أثناء صمتها معتدلة القامة ، تتجه بعينيها فى نوم إلى ما فوق .

— ما كان ينبغى لك أن تمسها يا ستاف ! إن جسمها كان محرما عليك . ما كان يجوز لك أن تراه . . . ماذا تعملان الآن وقد أصبحت حاملا منك ؟ يجب أن تلقيا بنفسيكما فى الماء أيها المجرمان ! . . . أيها المجرمان ! . . .

وسكتت مين فجأة وكان باب الحاصل يفتح فى احتياط ، إنما لم يصل الاحتياط إلى حد أنها لم تسمع صريف المفصّلات .

— إنى أسمع باب الحاصل . كنت لا تزال معها أيها اللعين ! كنت معها .

وكان ستاف ينزل السلم الخشبى ببطء ، والخشب يقرقع تحت عبئه .

— إنى أسمع الخشب يقرقع .

— كان يقترب دون أن يستطيع منع رجليه العاريتين من سحق الرمل الأبيض . وهذا كانت تسمعه جيداً ، وعظام أصابع رجليه كانت تقرقع أيضاً . وحتى نفَسه كانت قد عرفته .

— ستاف أنت هنا . ! أجبنى .

وأخيراً قال الرجل فى صوت أجشّ :

— أمجنونة أنت حتى تصيحى على هذا النحو ، لقد كنت فى المنزل الصغير .

— ليس صحيحاً أنت كاذب ، كنت مع ابنتنا لورا فى الحاصل .

أجاب الرجل وهو يصعد فى السرير :

— ليس صحيحاً .

وفى اللحظة التى كان يمر فوقها للوصول إلى السرير قبضت مين بكلتا يديها على أحد ساقيه ، بكل قواها . أخيراً كانت تمسك بشىء غير الظل .

قال الرجل :

— ماذا يا مين ؟ اتركينى ! أنت تؤلميننى يا لعنة الله !

— نعم ، نعم ! كل الليالى الآن منذ مهرجان القرية الكبير . تذهب معها . هى ابنتنا يا ستاف . إنك نسيت ذلك .

— اتركى رجلى

ولكنها كانت تتشبث بها . فتخلص منها بدفعة وارتدت مين على الوسادة . استلقى الرجل فى مكانه بجانبها ، وأخذت مين تئن شاكية بصوت خافت .

— نعم ، نعم ، ابنتنا حامل . لقد أحسست ذلك هذا المساء .

فنهرها الرجل :

— إنك مجنونة ! لقد ذهبت أعدّ برميل السردين . لقد آن لنا أن ننام . كُفِّى عن ثرثرتك بعض الشىء يا مين .

على ذلك كان ينوى الكذب للنهاية . لكن مين ما فتئت تلح . مدّت ذراعها فصادفت فخذ رجلها الصلب . وقالت فى رفق :

— ستاف إنى أريد أن أعرف ماذا تعمل الآن . الوساوس تنخر قلبك طول الوقت ، فى الليل وفى النهار .

— نامى .

سحبت يدها .

— هل أمسى الليل حالك السواد يا ستاف ؟

لم يعد ستاف يجيب .

— أنا أعرف أنك لست نائماً ، ولكنك تدّعى النوم .

لماذا سجنها الله فى هذا السواد المبئس ؟ لماذا هى دون غيرها ؟ لِمَ هذا العقاب ؟ ألم تكن إحدى مخلوقاته ؟ ألم يكن لها الحق فى التمتع بالنور مثل غيرها ؟

لماذا ؟ ومع ذلك لم تكن تستطيع بعدُ أن تعتمد على غير الله ليهديها وليسندها .

— يا ربى ! يا إلهى !

ما الداعى إلى أن يتجه الإنسان إلى نفسه بهذه الأسئلة ؟ وكان الليل ينزل شيئاً فشيئاً دون أن يأتى بطراوة فى منزلهم ، أو فى منازل القرية ، أو فى السهل أو على الماء . وكان الليل الآن أسود حالكا بالقياس إلى جميع الناس . ومين لاتزال تبكى فى صمت . على أنها كانت تستطيع الآن أن تنام إلى جانب رجلها ، على حين هو على فراش الألم سيظل مستيقظاً مدة طويلة وعيناه مفتوحتان تنظران إلى جريمته . وكانت مين تعلم حق العلم أن الوسواس ينخر قلبه .

فتح باب الحاصل مرة أخرى .

فسأل الرجل :

— ما ذا ؟ ما الذى حدث ؟ أأنت يالورا ؟ أين تذهبين الآن ؟

وكانت أرجل حافية تدب على بلاط الغرفة .

صاحت مين :

— ما هذا ؟ ما هذا ياستاف ؟ أأنت يالورا ؟ إنى أعرف خطوتك ، أنت تجرين . . . إلى أين تذهبين فى الليل ؟

كان الرجل قد قفز من السرير :

— لورا !

قالت الفتاة :

— لا تمسنى !

— أين تذهبين يالورا ؟

كانت مين تصيح وهى تهزّ ذراعيها أمامها عسى أن تشق هذا الحائط الأسود :

— لورا ! لورا ! ما ذا تعملُ يا ستاف ؟ أنا أيضاً أريد أن أقوم .

قالت الفتاة :

— الوداع يا أمى . سأذهب فأغرق نفسى عند السدّ . وأغلقت الباب من ورائها .

صاح الرجل وقد توقف وهو يرتدى ملابسه :

— إلزمى مكانك ! تعالى هنا يا لورا ! انتظرى فأنا ذاهب معك . . .

— ستاف أنا نائمة . أعطنى ملابسى .

— إبق أنت نائمة .

غادرها بعد أن تحدّث إليها حديثاً خشناً . وكان يصيح فى الشارع :

— أنا ذاهب معك يا لورا !

— يا الله ! يمضى ويتركنى وحدى

انزلقت من السرير حتى وصلت الأرض . وتقدمت ويداها مبسوطتان إلى الأمام تضطربان من التأثر . فأدركت ملابسها على الكرسى ووجدتها مرصوصة مثلما وضعتها عند ما عاونتها لورا على ذلك . ولكنها التبست عليها . فكانت تجس القطع واحدةً بعد الأخرى فى حركة مترددة كمن لا يستقر على اختيار سلعة لشرائها .

— يا إلهى ! ثوبى !

سقط الكرسى واضطرت مين إلى أن تجثو على ركبتيها . وكانت تتوسل إلى الله قائلة :

— ثُوبى ! يا إلهى أمدنى بعونك ! ابنتى لورا ستغرق ! هذا عقابى . صحت بها أن تلقى بنفسها فى الماء ، ولكنى لم أفكر أن عليها أن تعمل ذلك . كنت فى حالة غضب . فأنت تعلم يا إلهى ! يا ربى ! أنى تكلمت دون أن أعقل .

لبست مين فى اضطراب وبأسرع ما أمكنها ، وكان يخيل إليها أنها تقضى الساعات فى اللبس . . . وأخذت عصاها فى ركن الحائط ، وغطت رأسها بالشال وخرجت بدورها ، تصطدم بالكرسى أولا ، ثم بالمنضدة . . .

وكان طريق السد مألوفاً لها . وكانت تسير بخطًى سريعة ، تتكئ بإحدى يديها على عصاها ، وبالأخرى تحرك الفضاء كأنها تجذب نفسها بحبل خفى يهديها إلى الطريق المستقيم .

— ستا ـ اف ! لورا ـ ا !

وكانت الروائح تقودها أكثر من تذكرها للأمكنة : الرائحة الحامضة المنبعثة من مصنع السماد الصناعى ، رائحة المستنقع ، الرائحة الخضراء لأشجار الرتم . ثم يجب أن تمر أمام شجرة البلوط الصغيرة التى كانت تبعث الفزع فى نفوس الأطفال ، الشجرة المسحورة ، وبعد ذلك تأتى رائحة الماء والطين والضباب . وكان النسيم يهز أوراق الأشجار هزًّا متصلا . وأخيراً بدأ طعم مالح يستقر على شفتيها . لقد وصلت إلى الماء . . .

— ستا ـ اف ! لورا ـ ا !

وكان أقل خطأ على طريق السدّ الضيق قد يصير خطراً ، ومع ذلك كانت تكاد تجرى يرافقها فى سيرها ، وبدون علم منها ، خفاشان . . . طيور الشؤم .

كان الناس يتجمعون فى أسفل السّد على الساحل الصغير المكون من الطين حول جسم لورا الملقى على الأرض ، وقد فارقت الحياة . وكان حارس الحقول يتكلم بصوت عالٍ .

وعلى الضوء الصغير المنبعث من مصباح مشعل بالغاز بدا الجسم صحيحاً سليما لا تورم فيه . وكان الشعر الأصفر الطويل منتشراً ومبتلاً يغطى وجه الصبية .

لم تستطع كاميلا زوجة الخباز إلا أن تقول :

— هذا شنيع ! هذا شنيع !

وأمامهم على الشاطئ المقابل كانت مداخن هوبوكن تقذف لهباً أحمر يفرقع فى الجو فتضىء السماء . وعلى النهر كان يمكن أن تتبين قارب دولف صياد الصدف ينساب خلال البخار المتصاعد من الماء . وكان رجلان يجدفان فى بطء ، على حين وقف دولف فى مقدمة قاربه ، مائلا نحو الماء ، وفى يده مصباح ، يبحث عن ستاف بين انعكاس الأضواء . وكانت بعض الطيور تطير قريباً من سطح الماء على الرغم من تقدم الليل .

لاحظ فيربلان :

— من حسن الحظ أنه لا يوجد تيّار هذا المساء .

هز حارس الحقول رأسه الضخم المنتفخ قائلا :

— فى هذه الساعة لا يتحرك الماء .

وكان كلب أسود الشعر ملطخ بالوحل يدور حول الجثة الصغيرة التى تجتذبه .

خلع فيربلان قبعته ، وتظاهر بتسديد المرمى نحوه لإطلاق الرصاص عليه .

— ابتعد أيها الحيوان القذر !

وابتعد الكلب متراجعاً .

قالت كاميلا زوجة الخباز :

— ما أسرع ما ردها الماء !

وكان « لويس المجنون الصغير » بائع الرمل الأبيض على شاطئ البحر منزوياً

فى ركن لا يجرؤ على الاقتراب مع شدة رغبته فى ذلك . فربما زجروه كما زجروا الـكلب . وها هو ذا يشاهد لآخر مرة أجمل فتيات القرية ، هامدة لا حياة فيها ، مرتطمة فى الوحل . وقد ارتسمت على وجهه ضحكته التى لا تكشف عن أسنانه ، ضحكته الصامتة التى لا يمكن فهمها أو تفسيرها . وكان اللعاب يسيل من فمه دون أى خجل أو احتشام ، كما تسيل الدموع من عين غيره وهو يبكى . وكان اللعاب يسيل من فمه فى غير انقطاع ، يغمره الحزن ، حزن المجنون الذى ليس للعزاء إليه من سبيل .

فاقترحت سيسكا لاباى وكانت جالسة على كوم من الأحجار :

— والآن لنذهب إلى « الترنسفال » فنشرب قدحاً صغيراً . . . إنى ظمأى .

رأى حارس الحقول — ولم يكن مع ذلك من عاداته أن يرفض قدحاً صغيراً إلا نادراً — إن من الواجب عليه أن يقول لها ، دون كبير اقتناع على كل حال :

— حسبك ما بلغت من السكر !

فاحتجت سيسكا لاباى بحدّة :

— لست سَكْرى . لقد شربت أنت أكثر منى يا ذا الفم الأحمر .

وكان هذا اللقب الذى يطلق على حارس الحقول . وأخـذ فيربلان يهتم بالموضوع ، فتدخّل فى الأمر قائلا :

— أنظرى قليلا . بعد برهة عند ما ينتهى كل شىء . .

ثم صاح نحو الـكلب الذى عاد يدور حول الفتاة :

— ابتعد !

وقالت سيسكا مترمتة :

— ومع ذلك فإنى ظمأى ، والحر شديد هذا المساء .

لاحظت لآسى العجوز .

— إن الأمر كذلك دائماً ، فجثث الغرقى تعود دائماً إلى منازلها .

وأخذ رجال المصنع ينضمون إلى الجمع على الساحل الصغير . وكانت تسمع مجاديف المنقذين وهى تضرب الماء ، وهيئة دولف ترتسم فى مقدمة القارب وهو يغمس المدرى . وكانت أصوات صادرة من القارب تصل إلى الشاطئ ، دون أن يستطاع تبـيّن الألفاظ بوضوح .

ولم يكن أحب إلى فيربلان من أن يقصّ على كل من القادمين ما رآه . . .

— رأيت كل شيء . . . كانت لورا تجرى على طريق السد . وقلت لنفسي : « ماذا بها الآن هذه المجنونة حتى تجرى على هذا النحو فى الليل ؟ » . فرأيت ستاف يجرى وراءها وينادى : « لورا ! لورا ! » . وكنا ذاهبين أنا وسيسكا لاباى نشرب قدحاً صغيراً فى « الترنسفال » ، وكان آخر قدح سنشربه . فقلت لنفسي : يا لعنة الله ! ماذا يصنعان ! وإذا هما يقتربان . فصحت : « ماذا يا لورا ! ماذا يا ستاف ! » . وكانت تجرى أمامه دون أن تلتفت إلى الوراء مرة واحدة ، مسرعة فى جريها حتى إنه لم يستطع أن يلحقها .

فقاطعته سيسكا لاباى :

— وأنا أيضاً صحت .

عاد فيربلان قائلا :

— صحنا ، ولـكنهما لم يسمعا شيئاً ، أو كانا يتكلفان ألا يسمعا شيئاً . وعند المطحن الصغير بالضبط توقـفَتْ وألقتْ بنفسها من أعلى السد . يا لله ! قلت لسيسكا : « إنها ستغرق » . أما هو فرأى ذلك ومازال مستمراً فى ندائه . ووقف فى نفس المـكان الذى وقفت فيه وألقى بنفسه . . . فصحت « ماذا بك يا ستاف ! لعنة الله ! ماذا تصنع ؟ » . وماذا عساى أن أعمل وأنا لا أحسن السباحة ! طفت لورا ثلاث مرات على وجه الماء . اما ستاف فلم أره . لا بد أن يـكون وصل إلى القاع فغرق للفور . قلت لسيسكا : اذهبى فابحثى عن دولف ، فأبت هذه القذرة .

صحّحت سيسكا قوله :

— يافيربلان أنا طلبت منك الذهاب معى .

— قال فيربلان وهو يبصق قليلا من عصارة مضغته :

— إن قدميها ثقيلتان بعض الشيء هذا المساء . ذهبنا معاً لنداء دولف . فقاطعه حارس الحقول فى شيء من اللوم :

— كنتما تستطيعان الإسراع أكثر من ذلك .

— لم يبق إلا أن يتدخل الآن ذو الفم الأحمر هذا ، وعسى أن يكون هذا التدخل ناشئاً عن خوذته الجديدة . لا شك أنه كان شارباً أكثر من الآخرين . على أن فيربلان كان يبرّئ نفسه :

— لقد أسرعتُ يا حارس الحقول . وكنت مضطراً إلى أن أجرّها ، فانها لا تستطيع الوقوف على قدميها .

صاحت سيسكا وهى تنهض :

— ماذا ؟ انا استطيع الوقوف .

وكان الناس يهزءون بها . وختم فيربلان روايته عندئذ قائلا :

— أما هذا فكثير . . . يا للهول ! . . . كثير أن يغرق كلاهما . . .

قالت كاميلا زوجة الخباز :

— هذا شنيع .

أخذت لآسى العجوز تتكلم فى اندفاع مفاجىء :

— إنى أقول لكم إن هذا عقاب الله . فانه لم يأذن فى أن تستمر مثل هذه الفضيحة فى القرية ، وحسناً فعل . . . الأب والابنة معاً . . .

ورفعت ذراعيها السوداوين . . .

— . . . إنه سيعاقب جميع فتيات السوء فى القرية . وسيكون هذا مصير أوديليا ديفار هذه البغىّ . . .

— قال فيربلان وكان من المترددين على أوديليا فى « الأنكر » منذ مدة طويلة :

— سدّى حلقك أيتها الثرثارة الشمطاء !

أجابت لآسى العجوز :

— ليركب الشيطان عنقك ، وليقع كل هذا على رأسك وعلى رأس بنيك .

تدللت سيسكا قائلة :

— هيا بنا يا حارس الحقول ، لنذهب إلى « الترنسفال » لشرب قدح صغير .

أجاب حارس الحقول :

— ليس هذا وقت الشرب ، فعلىّ أن أؤدى واجبى .

— إذاً بعد قليل ؟ الجو حار يا حارس الحقول .

رآها « لويس — المجنون — الصغير » تغوص فى قاع الماء ، وتعود فتطفو على وجه الماء . كان يضحك ولعابه يسيل . وانفرج ثوبها الأبيض كأنه زهرة ضخمة من تلك الزهور التى تنبت على سطح الماء ، ثلاث مرات . . .

وقد انتهز الكلب الأسود فرصة عدم الانتباه فعاد واقترب من لورا فى لؤم . وكانت سيسكا لاباى مهتمة بتتبع حركاته . شمشم الكلب بحذر وهو يمد عنقه . وفجأة ألقى بنفسه جانباً كأن الفتاة تحركت .

فصاح فربلان :

— ابتعد !

وفى هذه اللحظة سمع صوت من القارب :

— هو — و !

أجاب حارس الحقول :

— هو — و !

— وجدنا — اه !

قال حارس الحقول للحاضرين :

— إنهم وجدوه .

همهمت كاميلا قائلة :

— هذا شنيع

أعلن الصبى الذى كان مع سيسكا لاباى ، واعتادت أن تصطحبه فى كل مكان ، واسمه جوست وقد مثل دور يوحنا المعمدان فى مهرجان القرية الأخير :

— هذه المرأة الضريرة قادمة .

وكان الأطفال الذين لم يعرفوا « مين » وهى محتفظة ببصرها يسمونها « المرأة الضريرة » . أما الكبار فاحتفظوا لها باسمها .

قالت كاميلا :

— نعم . . . هذه مين قادمة . هذا شنيع .

وكانت مين قد قطعت طريق المنحدر ، دون أن يعاونها أحد ، واتجهت مباشرة نحوهم رافعة عصاها ، ففسحوا لها المكان . وسألتهم فوراً :

— من هنا ؟

وكان الناس يخشون دائماً أن تقبض على أحدهم بين ذراعيها المبسوطتين ، فلا تتركه . وكانوا لا يحبون نظرها المعتم المتجه فوق الرءوس قليلا . وكان على حارس الحقول أن يتكلم ، فقال فى بساطة :

— الواقع أنها كارثة يا مين . ابنتك لورا ماتت .

وكانت مين قد علمت ذلك . تقدمت ، فارتطمت بجثة ابنتها ، وخارت رجلاها فسقطت بكل ثقلها على ركبتيها فى وحل الشاطىء . وأخذت تتعرف على لورا بكلتا يديها ، وهى تصعد بهما فى بطء حتى وصلت إلى وجهها .

قالت كاميلا زوجة الخباز متنهدة :

— يا ربى ! يا إلـهى ! كأنها تراها .

أضاف حارس الحقول :

— زوجك ستاف مات أيضاً . ودولف يجىء به الآن .

وكانت مين تكشف عن وجه الميتة الشاحب بحركات رقيقة ملاطفة .

— قالت كاميلا :

— . . . رائعة الجمال كأنها ملاك صغير .

وقد بدأت العينان تتخذان لون أعماق البحار . نخفضت مين جفنيها ثم أخذت تتحدث فى نغمة يائسة فاجعة :

— أما أنت يالورا الصغيرة ، فليس الذنب ذنبك . لقد قلت إنه يجب عليك أن تغرقى نفسك ، ولـكنى لم أرد أن تفعلى ، يا أيتها الحلوة الصغيرة . . . كنت كلك نضارة ، كما كنت أنا من قبل . وأنا لم أكن عنده امرأة ، لأنى فقدت البصر . . .

وكانت كاميلا زوجة الخباز تشهق شهيقاً عالياً .

أمسكت مين بأحد أطراف ردائها ، وأخذت تمسح فى رفق ورقة ما على الجبين والخدين من ماء وقذر .

— . . . إنه كان يراك دائماً ، وكان يشتهى . أصبح لا يستطيع أن يقاوم نفسه . وكنت ألح عليه : « اتركها ! اتركها يا ستاف ! إنها ابنتنا لورا ! إنها محرمة عليك . وأنت لم تكونى تستطيعين أن تقولى شيئاً ، لأنه كان أباك . ومنذ اقترف ذلك كان الوسواس ينخر قلبه . أنا أعلم ذلك . لم يكن ينام الليل بل كان يقضيه مستلقياً على ظهره فاتحاً عينيه . . .

لم يعتد القوم مثل هذا الإسراف . وكانوا يتمنون أن يوضع حد لهذا المنظر . وعلى الشاطىء المقابل أمامهم كانت عاصفة تتكوم فوق هوبوكن ، وكانت ألسنة النيران المندلعة من المداخن تصبغ السماء بلون أحمر . وأراد فيربلان أن يقص مرة أخرى كيف حدث كل ذلك :

— رأيت كل شىء . . .

صاح حارس الحقول :

— والآن هذا ستاف .

وبالفعل كان القارب يرسو . وحمل صيادو الصدف جثة الغريق ووضعوها إلى جانب لورا .

قال أحدهم :

— أما هذا فثقيل الحمل .

وقال دولف ، وكان يريد أن يحظى بشيء من الالتفات أكثر مما وجه إليه :

— كان الأمر شاقاً . إنما أنا عند ما يقال لى أين سقط الشخص ، ألتقطه دائماً .

فوافقه حارس الحقول قائلا :

— لا شك فى ذلك ، فأنت تلتقطه دائماً .

لبثت مين لا تنبس بكلمة . وفجأة انفجرت لآسى العجوز :

— لا ينبغى أن يكون هنا هذا الرجل ! فأنا لا أطيق رؤية هذا المنظر ، يا إلهى ! يا ربى ! الأب والابنة . . .

فتدخل فيربلان ناصحاً :

— سدى حلقك أيتها الثرثارة .

— لن أسكت ! فهذا عقاب الله . لن يمنحا المسحة الكنسية الأخيرة . فلن يحضر سيدنا القسيس بصليبه . إنهما لعينان ! كلاهما . وينبغى أن يدفنا فى قطعة أرض بعيدة ، لا فى مدافن المسيحيين .

وكان حارس الحقول يحاول تهدئتها :

— ماذا بك يا لآسى . . . ماذا بك . . .

فدمدمت قائلة :

— أنا ذاهبة الآن ، وقد قلت كل شيء .

فأصدر حارس الحقول أوامره :

— هيا بنا أيها الرجال . سنحملهما إلى المنزل قبل أن تحل العاصفة ، قومى يا مين ، إلى الأمام !

وأخذ الموكب يسير . وفى السماء خلال السحب كانت بعض النجوم تتألق للورا الصغيرة .

وكان دولف وأحد صيادى الصدف يتقدمان الموكب حاملين ستاف ، وكان عليهما أن يتسلقا منحدر السد . وكانت تليهما لورا ، وما أخف وزنها ، يحمل رجليها

ورأسها حارس الحقول والصياد الآخر . وفقد حارس الحقول خوذته الجديدة الجميلة أثناء الصعود . وكان فيربلان يضىء الطريق بالمصباح . لم تكن المسافة طويلة . وكانت كاميلا قد أخذت مين من ذراعها ، والقوم يتبعونهم « لويس — المجنون — الصغير » بخطوته اللاصقة فى الأرض كأنه يجرّ عالماً وراءه ، والكلب ، وقد كان وجلا منكمشاً على نفسه . وكان الماء يقطر من الجثتين تاركا شرشرة داكنة على طريق السد الضيق ، كأنها كانت دماً .

وعند ما مرّوا أمام المطحن الصغير لم يستطع فيربلان أن يمنع نفسه من أن يلاحظ :

— هذا هو المكان الذى رأيتهما يثبان منه .

بعد المستنقع تركتهم سيسكا لاباى واتجهت نحو اليسار فى طريقها إلى « الترنسفال » . وبما أنه لم يقبل أحد الذهاب معها فقد قررت الذهاب وحدها إلى « الترنسفال » وكانت ترجو أن تجد فيه صديقتها مى جامبون .

بدأت بضع قطرات من المطر تتساقط ، ولن يمضى إلا وقت ضئيل حتى تنقض العاصفة على القرية .

عند ما وصلوا إلى المنزل دعا حارس الحقول الناس إلى العودة إلى بيوتهم . ودخل الحمالون فوضعوا الثقلين جنباً لجنب على السرير الذى ما زال محتفظاً ببعض الدفء .

وعرضت كاميلا الطيبة خدماتها :

— أتريدين أن أبقى معك للسهر ؟

أجابت مين :

— لا يا كاميلا ، أنت طيبة جدًّا ، ولكنى لست محتاجة إلى أحد .

— سأشعل المصباح

— لا

— وهو كذلك . إلى الغد يامين . سأذهب فى الصباح لأحضر مينا للتغسيل .

وخرجوا جميعاً . أما فيربلان وحارس الحقول ، وقد تصافيا ، فذهبا للبحث عن سيسكا لاباى . والكلب التائه استلقى عند مدخل الباب ، و « لويس المجنون الصغير » أخذ يتجه نحو شاطىء البحر حيث عشته .

أرادت مين أن تبقى وحدها . ولم تكن عيناها تذرفان الدمع . جلست إلى

جانب السرير للسهر على فقيدتها . ازداد المطر وكان وقعه على قراميد السطح يغطى غمغمة الكرب والأسى المنبعثة من الظلام . وكانت يدها تداعب شعر لورا ، الشعر الجميل الذى أخذ يجف ، وما زال لزجاً عند اللمس . وكانت مين فيما مضى تصفف هذا الشعر على شكل بديع أيام الآحاد قبل الذهاب إلى الكنيسة . وكانت حبات من الرمل تنزلق تحت أصابعها . وفى الخارج كان الكلب ينبح نباح الموت . وتذكرت يوم أن تناولت لورا أول مناولة ، وكانت هى لا تزال مبصرة ، وبدت لورا فى ثوبها الأبيض كأنها عروس صغيرة . كان الجميع يقولون ذلك . ولم يرض لها ستاف أن تشتغل فى مصنع الأسمدة الصناعية مع بقية الفتيات ، فقد كان يراها أجمل من أن تقوم بهذا العمل . . . كلا الجسمين تنبعث منه رائحة الماء والوحل . . . ولقد قالت لآسى العجوز : لن يقام لهما قداس ، ولن يحضر سيدنا القسيس ومعه صليب الموتى . كان المطر يزداد شدة .

اتخذ وجه كل من ستاف ولورا ، على الوسادة ، شكله الأبدى . وقد ذهبا الآن معاً ، كلاهما . أما هى فبقيت وحدها فى الليل الداكن .

كان هذا عقاب الله .

إن الله لا نفهم حكمته دائماً . فقد أراد أن يكفّ بصرها ، وأن ينصرف عنها ستاف رجلها أيام يمسّ الأب ابنته . ثم بعد ذلك غضب غضباً شديداً وعاقبهما كليهما . . . بل ثلاثتهم . الشر مثل الخير ، هو الذى يصنعه ، لماذا ؟ فصاحت متجهة إلى عل :

— ليس هذا عدلا ، ليس هذا عدلا .

لم يكن عدلا أن يكون لها عينان لا تستعملان إلا لذرف الدموع . لم يكن عدلا أن تموت الصبية قبل أمها .

ملأ وميض برق الغرفة بضوئه ، فى حين كانت مين تسب وتثور على الله . وعندئذ سُمع دوى رعد هز الجدران وأرض المنزل .

— يا إلـهى ! يا ربى !

إنها كانت تراه . الرب الرهيب لإقليم الفلاندر ، يشع فى جلال جبروته العظيم ، جالساً على عرش مجد من السحاب ، وقاذفاً بكلتا يديه الصاعقة على المنزل الضعيف الذى به الخاطئان .

كادت تشك فى عدالة الله . إلا أن المصباح المعدنى المعلق فى السقف ما زال

يضطرب . فكل ما يقضيه الله خير . وإلى الله فى هذا الوقت أكثر من أى وقت آخر أن يهديها فى وحدتها . وأخذت مين تقرأ صلاة الأموات :

« يا ربى امنحهما هدوءاً أبديًّا ، وليغمرهما نورك الأبدى . . . »

عند مدخل الباب كان الكلب ينبح . لن تطول العاصفة ، وستمر بسرعة . أما الجسمان فستقيم لهما مين بما جمعت من مال ضئيل قبرين متجاورين عليهما شاهدان متشابهان ، فى نهاية المدفن الصغير ، بعيداً عن بقية القبور . وعن قريب ستلحق بهما وتثوى بجانبهما . أما الأرواح . . . فان أرواح المنتحرين تهيم حول منازلهم إلى الأبد . ولكن الله سيصفح عنهما ذات يوم . سيرثى لما بهما من بؤس وشقاء . ألم تصفح هى نفسها ، مين ؟

هنرى ثاليه

نقلها عن الفرنسية دكتور توفيق شحاته

الثقافة والمجتمع

الثقافة إصطلاح مرن مترامى الحدود كثير الجوانب ، ولكنى سأقصره هنا على ناحيتين هما فى رأيى واعتقادى أبرز معانيه وأقربها إلى جوهره ، وهاتان الناحيتان هما الفن والعلم . والفن قوامه الخلق وهو بوجه عام عمل ذاتى مرده إلى شخصية الفنان ومزاجه ومدى إحساسه بالحياة ونظرته الخاصة لها . والعلم مجاله كشف أسرار الطبيعة المجهولة ومعرفة قوانينها الخفية المستورة ، وهو فى جوهره عمل موضوعى ينسى فيه العالم نفسه وينسرح من ميوله وأهوائه .

والعلاقة بين الفنان والمجتمع لها جانبها الاقتصادى الذى يخضع لقانون العرض والطلب والإنتاج والاستهلاك . والفنان من حيث هو فرد يعيش فى بيئة اجتماعية خاصة . فمن شأن هذه البيئة أن تؤثر فيه وتهذبه وتصقله وتطبعه بطابعها وتسبغ عليه مميزاتها وخصائصها وتفرض عليه تقاليدها ومألوف عاداتها ، وقد تستفزه إلى المقاومة والمعارضة وإلى أن يقف منها موقف التحدى والمناجزة ، وقد ينقاد لها ويساير أهواءها ونزعاتها ويديم التغنى بمحاسنها وأمجادها والإشادة بمواقفها وآثارها ، وهى فى الحالتين توجه جهوده وتملى عليه خططه واتجاهاته وتفرض عليه مذاهبه . وسواء كانت هذه البيئة مجتمعاً أرستقراطيا أو قبيلة بدوية أومجتمعاً دمقراطيا فإنها ستكون الوسط الذى ينشأ فيه فنه وتتكون فلسفة حياته ويستمد منه تجاربه وموضوعاته وتتفتح فيه عبقريته ، فهو يحتم اختياره للموضوعات وكيفية معالجته لها . والعمل الفنى لا يتأثر بالنبع الذى ينبثق منه فحسب بل يتأثر كذلك بالغرض الذى يهدف إليه الفنان ويتجه صوبه ، وبميول الجمهور الذى يتوخى مرضاته والتقرب منه . ولا نزاع فى أن حماة الفنون ورعاة الأدب وأنصار الشعر فى العصور السالفة كان لهم أثر كبير فى توجيه الأدب والفن والنهوض بالشعر وإنمائه وازدهاره . فشاعر

كالمتنبى مثلا مدين بانتاجه إلى حد ما لسيف الدولة ، وما أحسبه كان يبالغ فى قوله مادحاً له :

لك الحمد فى الدر الذى لى لفظه فإنك معطيه وإنى ناظم

ومن الحوافز التى حفزت المتنبي على الإجادة فى شعره وتحرى الروعة والفخامة وإظهار التمكن من اللغة والقدرة على التصرف فى المعانى علمه أن سيف الدولة نفسه كان أديباً متمكناً بارع الناقدة قوى الملاحظة حسن التذوق لفنون الأدب ، وكان المتنبي يحشد ويكد خاطره ويسهر جفنه ليرتفع إلى المستوى الذى يرضى ممدوحه الذى يعيش فى كنف زعامته ويستذرى بظل سلطانه .

ولقد ازدهر الشعر فى صدر الدولة العباسية ازدهاراً عظيما ، ووجدت العبقريات الشعرية التى شرفت هذا العصر ورفعت من شأنه وخلدت حوادثه ورجاله الحيز المناسب لتفتحها ونمائها وبلوغها ذروة الإجادة والإتقان . ومن أقوى الأسباب التى ساعدت على ذلك وجود أرستقراطيتين متنافستين ، الأرستقراطية الفارسية الناشئة التى مكنت لها الدولة العباسية وفسحت المجال لظهورها ، والأرستقراطية العربية التى أخذت تشعر بشدة وطأة المنافسة وتعمل جاهدة على استبقاء نفوذها المتداعى ودولتها الدائلة .

والناقد الذى يقتصر على دراسة الشاعر أو الكاتب من حيث علاقته بسائر الشعراء أو الكتاب وتأثره بهم ويفصله عن الحركة التاريخية السائدة فى عصره وأحوال المجتمع الذى يعيش به ولا يتناول تأثيرها فى فنه وصناعته ، تغيب عنه أشياء كثيرة .

ومن ثم كان التناول التاريخى الاجتماعى للفن والأدب من الأمور الهامة . وقد لاحظ ذلك الناقد الانجليزى كورتهوب فى قوله : « يسود الظن بأن لباب الشعر هو الوحى الذى يتنزل على الشاعر الفرد ، وأن منابع هذا الوحى من وراء منال البحث الانتقادى . ولكن برغم ذلك فانه فى مختلف الفنون سرعان ما يدرك الطالب أن هؤلاء الذين يريدون التفوق لا مناص لهم من مراعاة ظروف لم يخلقوها وليس لهم عليها سوى سيطرة جزئية ، وقد اعترف بذلك كل فنان عظيم . فالشاعر هو من بعض الوجوه خلاصة الحياة الخالية لعصره وأمته . وفى الحق أنه يمكن أن يقال إن ما يسمى مادته الخام — فكره وخياله وشعوره —

يتعاون أفراد أمته معه فى عمله وتكوينه ... والقصيدة العظيمة هى فى الحقيقة صورة للشعور القومى . والحياة الداخلية للأمة ليست أقل انعكاساً وظهوراً فى الشعر منها فى مظاهر نموها الخارجى كأعمالها القانونية المجيدة أو تجارتها أو اسلحتها ومجالى قوتها »

ولا نزاع فى أن محتويات الأدب ومشتملات الفن وموضوعات القصائد والروايات مستمدة إلى حد كبير من البيئة الاجتماعية ، وإن كان للصور الأدبية والفنية تطور داخلى خاص بها خاضع لمنطقها ، ولكن هذا التطور نفسه يتأثر وينفعل بالتغيرات العامة التى تطرأ على المجتمع . فالحياة السياسية والاجتماعية فى العصر الأموى مثلا ساعدت على تطور فن الهجاء فى الأدب العربى ، والحياة الاجتماعية فى الأندلس مهدت السبيل للتجديد فى صور الشعر وأعانت على ظهور الموشحات الأندلسية . وتاثير البيئة الاجتماعية فى الصناعة الفنية من الموضوعات الطريفة التى لم تستوف بعد نصيبها من البحث والتنقيب والشرح والتعليل فى مختلف آداب الأمم ، ويعنى بها فى العصر الحاضر بوجه خاص النقاد الماركسيون ويبدون فيها ملاحظات قيمة ويقدمون معلومات ثمينة لولا ما يفسد عليهم أمرهم من النظر إلى المسألة من جانب واحد ؛ فإنه لا يكفى لتقدير الآثار الأدبية والفنية النظر إلى قيمتها من الناحية الاجتماعية وحدها ، ولقوة التعبير وبلاغة الأداء وجودة البناء دخل كبير فى جمال الآثار الفنية والأدبية وخلودها . والنظرة إلى الأدب والفن من الناحية الاجتماعية ترشد وتجدى إذا نظرنا إلى الأدب والفن من ناحية كلية عامة حيث يظهر تأثرها بالتيارات السياسية والاجتماعية العامة ، ولكن فى الحكم على الأثر الفنى أو الأدبى الخاص لا مناص من الاستعانة بالمقاييس الأدبية الخالصة والفنية المحضة . ومن ثم كان للمركسية أثر محمود فى النظر إلى تاريخ الأدب بوجه عام ، أما من ناحية النقد البيانى وتقدير العمل الفردى فكثيراً ما يختل ميزانها وتنحرف عن الجادة . وحرية الفنان فى الانتاج ليست مطلقة ولها بطبيعة الحال حدود تقف عندها ولا تتخطاها إلا إذا أصبح الفن فوضى لا نظام له ولا قانون ، وهو أمر لا يتفق مع طبيعة الفنون القائمة على النظام والتناسق . ولا مفر للشاعر من أن يعمل فى حدود ممكنات اللغة وقواعد النحو وأصول البيان ، كما أن الفنان لا مفر له من العمل فى حدود ممكنات مواده ومقتضيات الجو الذى يعيش به . وتتجلى البراعة الفنية فى جعل المواد

ملائمة للغرض، وكذلك فى جعل الغرض نفسه ملائماً للمواد، ولكن هذه العقبات التى تعترض حرية الفنان وتخضعه لضروراتها مستقلة استقلالا تامًّا عن النظم السياسية والاجتماعية .

وهناك ناحية هامة يؤثر بها بناء المجتمع فى التعبير عن النزعة الفنية تأثيراً مباشراً ؛ فقد تكون عبقرية الفنان عبقرية فردية بطبيعتها فتظهر فى الشعر الغنائى أو فى فن التصوير ، وقد تكون عبقرية اجتماعية فى أساسها فتتجلى فى الدراما والرواية أو فى فن العمارة والبناء . ومجال الدراما والمعمار يستلزم نوعا من التعاون الاجتماعى ، والجماعات المتماسكة المترابطة الشديدة الشعور بكيانها والاعتزاز بشخصيتها تؤثر هذا اللون من ألوان الفن لأنه أوضح تعبيراً عن ميولها وأهوائها وأدخل للسرور على قلبها وأبعث على التسرية عنها . وقد كانت القبيلة العربية — وهى شبيهة بالوحدة المتماسكة — تعتبر الشاعر قلبها النابض ولسانها الناطق ، فعمله الذود بشعره عن حياضها والمنافحة عن أعراضها ونشر مطوى مفاخرها وإذاعة مجهول فضائلها . وكان الشاعر يقدر خطورة موقفه وأهمية رسالته فيعرض عن وصف مشاعره الخاصة والتعبير عن ميوله ونوازعه ، ويتخذ من شعره أداة للتعبير عن وجهة نظر القبيلة والإعراب عن آمالها ومخاوفها وتطلعاتها ومراغبها . ولذا كثر فى الشعر العربى الوصف الدراماتيكى للحوادث والرجال وتحليل أخلاقهم والإشادة بمواقفهم وقلت فيه المناجاة الخفية والهمسات النفسية . وبعض كبار شعراء العرب كانوا يفرضون أنفسهم فرضاً على ممدوحيهم فيتحدثون عن أنفسهم ويصفون عواطفهم فى خلال التحدث عن فضائل ممدوحيهم والتغنى بمحامدهم ومناقبهم . والمتنبى من أسبقهم فى هذا الميدان ؛ فهو لا ينسى نفسه فى خلال وضعه الدراماتيكى البارع لمواقف سيف الدولة وغيره من ممدوحيه ويقحم نفسه إقحاماً ؛ ولذا يتوافر فى شعره العنصر الغنائى الشخصى والعنصر الدراماتيكى الوصفى ، ولعل هذا من أسباب شدة الإقبال على شعره وكثرة التعلق به .

وقد ساعدت أسباب الحياة فى المدن اليونانية القديمة على ظهور كتّاب الدراما العظماء ، وكذلك حياة الانجليز فى عهد الملكة اليصابات ، وكذلك حياة النرويج فى القرن التاسع عشر ، ولا تكفى المصادفة وحدها لتفسير ظهور مثل شكسبير وأضرابه وأبسن وأنداده . وأى إلمام يسير بالحالة السياسية والاجتماعية فى إنجلترا

فى عصر شكسبير أو بحالة النرويج فى أيام أبسن تبين أن ظهورهما وذيوع أدبيهما كان منطقيًا مع اتجاه عصريهما وأحوالهما الاجتماعية والسياسية .

وفى عصر إحياء العلوم فى إيطاليا قويت النزعة الفردية ، وكان ذلك عصر الشخصيات الجبارة المختالة الشديدة الأثرة النزاعة إلى الفوضوية والتحلل من القيود ؛ ولذا كثر الاقبال على الشعر والتصوير . وساد فى انجلترا فى أوائل القرن التاسع عشر مذهب الحرية الفردية والمنافسة المنطلقة من القيود وترك الحبل على الغارب فى الشؤون الاقتصادية ، فاستتبع ذلك نهوض الشعر الغنائى . فالمجتمع الشديد الشعور بوحدته وتماسكه يشجع بطريقة غير واعية الفنان الذى يميل إلى التعبير عن نفسه فى الفنون التى تحتاج إلى التعاون والمشاركة مثل الدراما وفن البناء ، أى إنه يشجع مايصح أن نسميه « العبقرية الاجتماعية » . أما المجتمع الذى يفترق فيه الأفراد شعباً وأحزابا ويقل فيه التماسك قلة نسبية فهو ربما كان اكثر تشجيعاً للعبقرية الفردية التى تتجلى فى الشعر ، وبخاصة الشعر الغنائى ، وفى التصوير .

وأظن أن تأثير البيئة لا يبلغ من نفس الفنان أبعد من ذلك المدى ، ومادام الفنان قد رزق البصيرة الفنية فانها ستنفذ من خلال غواشى بيئته وعصره إلى الحقائق الخالدة . وإذا كان فى نفسه اللهب المقدس فان هذا اللهب سيتوهج وتتألق أنواره مهما كانت أحوال الزمن وظروف البيئة ؛ فاللون المحلى لا ينفى الوحى العلوى ولا يطفىء الشرارة المقدسة . وليس من اللازم أن يكون الفنان مستجيباً لعصره ، فاذا كان هناك ملاءمة واتفاق بين الفنان وعصره جاء شعره معبراً عن هذا الاتساق وروح العصر ويكون إلى حد كبير ممثلا لعصره . وإذا لم يكن متفقاً مع عصره جاء شعره حزيناً ثائراً حافلا بالألم والشكوى والغضب والنقمة ليس فيه فكاهة وإنما فيه هجاء مر . والمهم هو صدق الاحساس والأمانة فى التعبير ، وهذا يتوقف على الفنان لا على البيئة أو العصر .

وكان من المحتمل أن يكون للحياة الكلية المتماسكة فى إيطاليا الفاشية أو فى ألمانيا النازية تأثير ملحوظ فى تشجيع الفنون القائمة على العبقرية الاجتماعية ، ولكن هذين النظامين وقعا فى خطأ خطير ، وهو محاولتهما أن يمليا على الفنان طبيعة عواطفه وأن يفرضاها عليه فرضاً ، وأن يخضعا الثقافة بوجه عام لحدود سياستهما ؛ فكان أى فن لا يلائم عقيدة موسولينى أو مذهب الآرية يمنع ويقاوم ويضطهد صاحبه . والخلق الفنى بطبيعته ليس من الأشياء التى يمكن

وضعها تحت سيطرة الديكتاتور وإخضاعها لنزواته وأهوائه . وقد استهدفت الفنون التى تحتاج إلى التعاون والمشاركة لهذه السيطرة الديكتاتورية البغيضة . وذلك لأن الدراما والسينما والآداب لها تأثير اجتماعى عظيم ، ولذا عملت الفاشية والنازية على تسخيرها للدعاية ، وهذا التسخير عرض نزاهة الفنان وإخلاصه لفنه للخطر الشديد . وقد أفسدت مقتضيات الدعاية هذه الفنون ؛ ولذا لوحظ تأخرها وجمودها فى ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية . والفن يتأثر بالمجتمع بطريقة غير واعية لا عن طريق القسر والارغام والاستعباد والطغيان .

وحاول الشيوعيون فى روسيا أن يسيطروا على الفنون ، ولكن كان يلطف من حدة هذه السيطرة الشعور المتفزز بمجتمع جديد ابتعثته تجربة الشيوعية . وقد أعفى الفنان من المهام المادية ليفرغ لفنه وإنماء ملكاته ومواهبه ، ومفروض أنه الوسيط بين فنه وبين الجمهور أو الشعب . ولكن الاستقلال الاقتصادى شىء والمحافظة على النزاهة الفنية شىء آخر . وكما أن الفنان قد يذهب ضحية لنظام المباراة الحرة ، فكذلك قد يذهب ضحية لعبودية الدولة ومحاولتها السيطرة على كل شىء وتوجيهه الوجهة التى تلائم مصلحتها وتحقق غايتها . وقد تتعارض غاية الدولة وغاية الفن كما تعارضت غاية الدين وغاية الفن فى بعض الأزمنة السالفة ، والفن هو الخاسر والمجنى عليه فى الحالتين .

وهذا ينقلنا إلى مسألة أخرى ، وهى : إلى أى حد يتأثر الفنان بجمهوره ؟ فاذا فرضنا أنه الوسيط بين الجمهور والفن فان عليه أن يراعى ما يريده الناس وما يستطيعون فهمه . ومن الصعب أن نحكم أى الحالين أهون ضرراً أن يكون الفنان مضطراً إلى إرضاء الجمهور أو أن يكون فى رعاية فرد من النبلاء أو أمير من الأمراء مثل كتاب الرومان وشعراء العرب ورجال الأدب فى القرن الثامن عشر . وقد يستمتع الفنان فى حمى الأمير بحرية أوسع وإن كان قد يستهدف كذلك لشذوذه ونزواته ، كما أن اضطرار الفنان إلى ترضى ذوق الجمهور الهابط قد يعرقل فنه ويعصف بملكاته . وقد يكون انتماء الفنان إلى حزب من الأحزاب السياسية أو شيعة من الشيع الدينية من أشد القيود التى تعوقه عن السير المستقيم والوثبات البعيدة . والتعميم هنا لا يخلو من الخطر ؛ لأن الأمر يتوقف على ملابسات شتى . وإذا كان معنى الخضوع للذوق العام هو الاستسلام للتقاليد الجامدة والعادات الراكدة فان فى ذلك مضيعة للفن .

والفنان بوجه عام محتاج إلى الجمهور لا لأسباب اقتصادية — وإن كان للأسباب الاقتصادية شأن يذكر — وإنما لأن الفن اجتماعى الغاية قبل كل شيء. وبعض الفنانين يهمهم الاعتراف بقيمتهم وتقدير فنهم أكثر مما يهمهم المثوبة والجزاء المادى، ولو أنهم يشعرون بامتزاج العاملين. وتقدير المعاصرين وإقبالهم وإعجابهم قد يكون عاملا فى تقوية ثقة الفنان بنفسه وباعثا لقواه الخالقة على خلق جديد وعنصراً مهما فى تقدم فنه وترقى صناعته.

وتجربة الفنان ليست حقيقة مفروغا منها مجهزة تامة، وإنما هى حقيقة فى دور التفاعل والتكوين يلتمس بها الفنان خير أساليب التعبير، وقد تستكمل التجربة عناصرها وتستتم صورتها فى خلال عملية التعبير عنها، فهى صور مستخلصة من التجارب المعهودة والحياة الواقعة يلعب فيها المجتمع دوره ويؤثر تأثيره. والتعبير عنها كذلك مستهدف لضغط الممكنات المادية والتقاليد والبيئة الاجتماعية والرأى العام. وإذا كان العمل الفنى له قيمة اجتماعية فلا مناص من أن يتم إنتاجه ويكمل تكوينه تحت ضغط المجتمع وتقاليده، وهذا جزء من جوهره لا ينفصل عنه ولا يفارقه.

والعلاقة بين المجتمع والجانب الآخر من جوانب الثقافة الذى أسميته «العلم» أبسط من ذلك بكثير؛ فالعلم كما قدمت كشف لا خلق، وموضوعى لا ذاتى؛ فهو من ثم مجهود تعاونى يتطلب المشاركة والتساند، وهو أكثر نفعية من الفن لا لأن كل ضروب العلم تدر النفع المباشر وتجىء بالفائدة العاجلة، فان هناك علوما لا تفيد فائدة مباشرة مثل الرياضة والفلك، وهى تستلزم نزاهة فى البحث مثل الفنون، ولكن العلم نفعى بمعنى أن المجتمع يميل إلى الاستفادة من المعرفة الفنية واستغلالها ليريح نفسه من الجهود وليحسن استثمار الموارد المادية ويمكن لكيانه المادى؛ ومن ثم يختص المجتمع العلماء بنصيب أوفى من التوقير والاحترام ويضعهم فى مركز أسمى من الفنانين ولا يضن عليهم بالمال أو التشجيع.

ولكن العلم مثل الفن يتوقف تقدمه على العلاقة المتبادلة بين النبوغ الفردى والمجتمع؛ لأن سبيل العلم هو الفرض النظرى الذى يعرض للتجربة العملية، والفرض النظرى هذا هو مجال النبوغ الفردى، والعناصر المختلفة التى تمتزج فى عقل العالم العظيم لخلق مثل هذا الفرض قد تستمد من موارد كثيرة فى الجو العلمى السائد والبيئة الفكرية العامة، ولكن التجربة العلمية هى مجال التعاون

والمشاركة . وشعور المجتمع الحديث بالفوائد المستمدة من العلم أقوى من شعوره بالفوائد المستمدة من الفن ؛ ولذا يعنى بالعلماء أكثر من عنايته بالفنانين . وهذا مصدر قوة العلم الاقتصادية فى العصر الحديث ، ولكنها فى الوقت نفسه مصدر ضعف له من الناحية الثقافية ؛ لأن ذلك معناه أن النزاهة العلمية أكثر استهدافا لدوافع الربح وأهواء السياسة .

وخلاصة القول أن وحى الفنان أو بداهة العالم اللماحة الكاشفة ، من مسائل العبقرية الفردية ، ولكن خلق الفنان واكتشافات العالم واختراعات المخترع من المسائل الاجتماعية التعاونية مع اختلاف النسب وتفاوتها . وهذا التعاون يربط الفرد بالمجتمع ، فكلما كانت الروابط الاجتماعية من المرونة واللين بحيث تسمح بظهور التنوعات الفردية وتحتملها وتوسع لها صدرها ، تقدم الفن وارتقى العلم . أما إذا كانت الروابط الاجتماعية من الصلابة والإحكام بحيث لا تسمح بالتنوعات الفردية وتضيق بها وتعمل على محاربتها فهنا يتعطل نماء الفن ويقف تقدم العلم . والعالم والفنان كلاهما فى حاجة ماسة إلى حياة اجتماعية سرية مليئة حافلة ومجتمع متجانس ولكنه متعدد الجوانب مستقر النظم . وكلما كان المجتمع شريكا فى العلم وشريكا فى الفن وشريكا فى كل فضيلة وكل امتياز ، تقدم العلم وترقى الفن وسما المجتمع . والنظام الذى يقاوم نزاهة العلم وإخلاص الفنان يهبط بالعلم وبالفن وبالمجتمع .

على أدهم

الشـــــاعر

تشتَّتَ فى الدنيـا وحيداً مشرداً ... تطارده الأقـدار أنَّى توسـدا
سرى ما سرى والشوك فى طرقاته ... يُجرِّح منه الخفُّ والجنب واليدا
إذا ابتسمت دنيـاه يوماً تجهَّمت ... وإن ضحكت أبكته فى الحين سرمدا
هو الطائر الغِرِّيد يخفى نواحـه ... عليك إذا غنـّاك سَرّى وأسعدا
يُلَقِّنُه جِنٌ فيصغى مُسجِّلا ... على الجِنِّ ما أوحى ويُملى مردِّدا
إذا قال لم يفعـل وليس بكاذب ... ولـكنها الأقدار تُخْلِف موعدا
يطير به نحـو السماء مُجَنَّحٌ ... تَحَرَّر من أغـلاله وتمردا
ويهوى به فى كل واد جَناحُه ... فإن ضلَّ فى وادٍ سما عنه واهتدى
يرى العالم العُلْوىَّ أدنى من الثرى ... منالاً ويأبى أن يعيش مُصَفَّدا
تَنَازَعَهُ الإيمان والشكُّ وانتهى ... به السيرُ نحو الشكِّ فارتدَّ مُجْهَدا
يقولون مجنونٌ وما جُنَّ ويحهم ! ... ولـكنَّها الأحقادُ يَلْفِظُها العِدا
هو البحرُ إمّا ضاحكٌ مُتَرقْرِقٌ ... وإلاَّ فبركانٌ تفجَّرَ مزبدا
يثور ويرضى غيرَ مُبْدٍ شعورَه ... تراه على حاليـه لغزاً معقَّـدا
ذكىٌّ يرى الأحداث قبـل وقوعها ... ويعـلم ماذا سـوف يعقبها غـدا
عنيدٌ وقد يبـدو على غير طبعه ... يلينُ ويقسـو قلبـهُ متعمـدا
يفيض حنـاناً أو يذوب صَبابَةً ... ويبـدو على غـير الحقيقة جلمدا
إذا جنَّه اللَّيلُ استبدَّ به الأسى ... وخضْخَضَ منه الليل قلباً مُسَهَّدا
تأبَّى ولم يرضَ النواح لشـعره ... فساجل فى اللّيل الكنارَ مغردا

وكابَرَ حتى قيل لا يعرف الهوى ... وغنّى فكان اللحنُ صوتاً مجرَّدا
وَعَفَّ فلم يرضَ الهوانَ لقوله ... ولم يتملَّقْ فى البريَّةِ سيدا
سما عن فُتات الخيِّرين بشعره ... وودّ لو استغنى سواه عن الندى
وما الشعر إلا ما يُحَسُّ وما يُرى ... وليس كما ظنوا رِخواناً وَمَوْرِدا
إذاً أنت لم تَعْرِفْ لشعرك قدرَه ... فلا تكُ قوّالا ولا تكُ منشدا
وإن أنتَ لم تعرف لنفسك حقها ... عليك فعش عبداً ومولىً مُسَوَّدا

عزيز فهمى

عامان فى الحبشة

أتاحت لى الظروف أن أقضى مدة فى الحبشة ، تلك البلاد التى طالما شغلنى تاريخها وأدبها ولغاتها ، فأمكننى أن ألمس الحياة هناك عن قرب ، وأجد الجواب الشافى لما كان يدور فى ذهنى من أسئلة لم أكن لأستطيع أن أجيب عليها بسهولة .

ملاحظات جغرافية

أبحرت من السويس فى شهر مارس وهو من الشهور المعتدلة الحرارة ، فوصلت إلى چيبوتى عاصمة الصومال الفرنسى ومينائه ، بعد أن رفع عنها نطاق الحصار البحرى البريطانى . حرارة معرطوبة ليلَ نهارَ لا يدركهما خيال المصرى . والماء بها ساخن يميل إلى الملوحة ، بها لونان من ألوان الطعام ، أرز بالكركبة وسمك بالبسبسة ، وشعب خليط بين الصومال والعرب والهنود . ومع أن چيبوتى فرنسية شكلا فإنها يونانية الصبغة ، يتكلم أهلها العربية وأنت تحتاج إلى شىء كثير من المعرفة بمقارنة اللغات حتى تستطيع فهمها . وچيبوتى فى جملتها تعطيك فكرة عن جهنم . سار بنا القطار من چيبوتى إلى أديس أبابا مسافة ٧٩٩ كيلومتر فى مفازة جرداء خاوية إلا من بعض محطات السكة الحديدية أطلق عليها هذا الاسم تجاوزاً . ويعيش فى هذه الصحراء قبائل من الدناكل عارية النصف الأعلى من أجسادها ، لا ترى الرجل منهم إلا ممسكا رمحه مستنداً عليه رافعاً كعب قدمه اليسرى إلى أعلى فخذه الأيمن وقد يمضى الساعات على هذه الصورة دون تبديل .

وصل القطار إلى مدينة ديرداوة وهى أول مدينة حبشية كبيرة ، ترتفع عن سطح البحر ١٢٠٠ متر ، جوها معتدل نوعاً ، تتراوح حرارتها بين ١٨ و٣١ درجة مئوية . يصلها بمدينة هرر طريق معبد للسيارات يجتازه المسافر صعوداً إلى ارتفاع ١٩٠٠ متر فوق سطح البحر فى ساعتين . والطريق غنى بمناظره الطبيعية

الجميلة ، ومدينة هرر غنية بفواكهها وخضراواتها إلا أن صعوبة المواصلات بينها وبين أجزاء الإمبراطورية الأخرى فوّت استغلال هذه المميزات . وجوها معتدل جاف طول السنة ، يبلغ متوسط حرارته ٢٠ درجة مئوية . ثم يسير بك القطار من ديريداوة صاعداً الهضبة الحبشية صوب أديس أبابا فى طريق صخرى متنوع المناظر الخلابة .

تقع أديس أبابا على ارتفاع ٢٥٠٠ متر فوق سطح البحر ، جوها بارد كجو الخريف عندنا معدل حرارته بين ١٥ — ١٧ درجة مئوية . ولا يستطيع الإنسان مع هذا الارتفاع أن يبذل مجهوداً جسمانيا كبيراً . ويسقط مطرها فى موسمين : الموسم الصغير من مارس إلى مايو ومتوسط عدد الأيام الممطرة فى بحر الثلاثة الأشهر ٢٩ يوماً ومتوسط ما يسقط من المطر فى الشهر ١٠٠ مليمتر . أما الموسم الكبير فمن يونيه إلى سبتمبر وعدد الأيام الممطرة فيه ٩٢ يوماً ومتوسط ما يسقط من المطر فى الشهر ٢٢٠ مليمترا . ولكن هذه الأرقام لا تعطى صورة صادقة عن حالة المطر ، ولا يجدى الوصف لإعطاء المصرى صورة عن مطر الحبشة ، ولعل أسهل الصور إلى ذهنه أن يتصور ماء النيل مفتوحاً فوق رأسه بضع ساعات يومياً .

وبمجرد انتهاء موسم الأمطار تكسو البلاد طبقة من الزهور المتنوعة الجميلة وخضرة براقة ، كما تكثر الطيور التى تسترعى الأنظار بتباين ألوانها وتناسقها . وقد تسير فى طريق مدينة جمّة فتصحبك رائحة الياسمين البرى الذى يترعرع على جوانب الطريق ، وقد تسير فى طريق أديس أبابا — اسمرا وهو طريق يبلغ ١١٠٠ كيلومتر فتبهرك مناظره الطبيعية الخلابة من جباله وأوديته . وقد أطلق أهل أوربا على الحبشة بحق « سويسرا افريقيا » . وتمتاز الحبشة بوجود مياه معدنية بين ربوعها ، نذكر منها فى أديس أبابا « الفول وها » وهو نبع حار مجهز بالحمامات ، تخرج مياهه من منفذين أحدهما حرارته ٧٦ درجة مئوية والآخر ٥٧ درجة مئوية . ثم نبع « أرار جوتا » فى الطريق بين ديريداوة وأديس أبابا ، وهو نبع تبلغ حرارته ٤٠ درجة مئوية . ولعل أشهر ينابيعها ما وجد فى بلدة أمبو وهى تبعد عن أديس أبابا حوالى ١٣٠ كيلومتر ، منطقتها بديعة للناظر . وهى خط تقسيم مياه ثلاثة أنهر : النيل الأزرق وأواش وأمو . وحرارة نبعها ٣٠ درجة مئوية . وبها استعداد للحمامات ، على أنها لاتزال تفتقر إلى كثير من العناية .

المواصلات

تربط مصر بالحبشة وسائل ثلاث : الطائرة وهى أسبوعية ، فالسكة الحديدية تسير مرتين فى الأسبوع من القاهرة إلى أسمرا مارة بكسلا مع مواصلة من كسلا إلى أجوردات ثم تستمر بالسكة الحديدية إلى أسمرا ، وتستغرق المسافة بين القاهرة وأسمرا ، سبعة أيام ومن أسمرا تقطع سيارات الإمنيوبوس الطريق إلى أديس أبابا مرتين فى الشهر ، وتحتاج لقطع المسافة وهى ١١٠٠ كيلومتر إلى ثلاثة أيام .

أما الطريق الثالث فهو طريق البحر . وتبحر بواخر الشركة الخديوية الآن من السويس إلى چيبوتى مرتين فى الشهر ، ويستغرق الطريق فى البواخر العادية من أربعة إلى خمسة أيام إلا أن البواخر الخديوية تقطعه فى مدة تتراوح بين ١٠و١٢ يوماً ؛ لأن بواخرها تقف على جميع موانى البحر الأحمر تقريباً . ثم يسير القطار من چيبوتى إلى أديس أبابا ثلاث مرات فى الأسبوع والمسافة ٧٩٩ كيلومترا يقطعها القطار المباشر فى ٣٦ ساعة . أما قطار المواصلة فيضطرك للمبيت ليلة فى ديرداوه .

والملاحظ أن هذه الطرق الثلاث لا تكفى لربط الحبشة بالخارج من الوجهة التجارية . لذلك تسعى الحكومة الأثيوبية أن تتلافى هذه الصعوبات بتوجيه اهتمامها لدى الدول المختصة بوسائل مختلفة ، منها :

١ — التفاهم مع حكومة الصومال الفرنسى لإمكان تعزيز الخط الحديدى وخفض أجور النقل . وقد التفتت الحكومة إلى هذه النقطة فى المعاهدة البريطانية الأثيوبية سنة ١٩٤٤ ، وكذلك نسمع هذه الأيام من الصحف عن اتصالات الفرنسيين والأثيوبيين فى هذا الصدد .

٢ — استيراد سيارات الشحن الكبيرة لتيسير النقل بين أديس أبابا وأسمرا ومنها إلى ميناء مصوع . ويحتاج هذا إلى التفاهم مع الإدارة البريطانية القائمة بأرتريا إذ أن ما أحضره الطليان أصبح لا يفى بالغرض المطلوب لسوء حالة السيارات بعد مضى مدة طويلة ، هذا فضلا من ارتفاع أجور النقل .

٣ — تحسين الطريق القديم الذى يربط الحبشة بأعالى السودان ومنها إلى

مصر . والطريق صالح فى جميع أوقات السنة ما عدا موسم الأمطار الكبير ، وهو الطريق البرى إلى جميلا ، وهى مدينة تقع على حدود السودان وتبعد عن أديس أبابا حوالى ٧٠٠ كيلومتر ثم تتغير وسيلة النقل عند جميلا من الطريق البرى إلى النهرى على السوباط فالنيل الأبيض حتى الخرطوم . وتحتاج الرحلة إلى ثلاثة أسابيع على الأقل . وهذا الطريق يمر وسط الأقاليم الغنية بالحبشة مثل الأروس وكافاووجا ، وهى الأقاليم التى تنتج الحبوب والبن والأخشاب . ومن الممكن أن تزداد تجارة هذه الأقاليم مع السودان ومصر إذا أمكن أن ترسل البضائع منها إلى الخارج رأساً أى بدون أن تمر بأديس أبابا . أما طول الطريق وما يحتاج إليه من وقت فقد لا يضر فى هذه الحالة إذ أن تلك الأنواع من البضائع لا يتلفها طول الوقت . وأظن أن الاهتمام بتحسين هذا الطريق واتفاق حكومة أثيوبيا مع حكومة السودان يجرى فى سبيل يبعث على الارتياح .

وتفكر الحكومة الأثيوبية أيضاً فى مد خط حديدى يصل أديس أبابا بالسودان ، وقد يساعد هذا أيضاً — إذا تم — على تبادل التجارة .

ونلاحظ أن الطليان فى وقت الاحتلال قد بذلوا جهداً ومالاً لتحسين طرق المواصلات ؛ لأن المعروف أن وحدة الحبشة السياسية واستغلال مواردها وارتياد مناطقها لا يتم إلا بإنشاء شبكة من الطرق . ولكن صيانة هذه الطرق وإصلاحها يستنفدان مالاً كثيراً ، أظن أن ميزانية الدولة الأثيوبية لا تحتملها إلا بمقدار .

الجنس

تمتاز الحبشة بتعدد الأجناس فيها ، حتى إن العلماء يطلقون عليها « متحف الشعوب » . وفى رأيى أن تاريخ الحبشة فى عصوره المختلفة لا يمكن أن يفهم على حقيقته إلا إذا أقمنا اعتباراً لمشكلة الجنس . وأهم العناصر التى تتكون منها أجناس الحبشة ثلاثة : عنصر سامى ، وعنصر كوشى ، وعنصر أفريقى . أما العنصر السامى فقد دخل البلاد من الشرق وأتى من جزيرة العرب . ويظهر أنه استمر فى دخول الحبشة عن طريقين طريق الأرتريا وطريق الصومال . وقد نفهم كيفية دخوله على مر السنين من ملاحظة ما هو حادث الآن فى الحبشة . فأهالى اليمن

وحضرموت منتشرون فى جميع البــلاد الصغيرة والـكبيرة يحترفون التجارة الـكبيرة منها والصغيرة ، وهم يهاجرون بالتدريج إلى الحبشة . هذه ظاهرة أظنها لا تختلف عما كان يحدث بل هى استمرار للقديم . ويمكننا أن نتصور كيف كوّن هؤلاء الساميون لأنفسهم قديماً قوة فسلطاناً فمالـكا . وهذا يعلل لنا الصلة القوية الطبيعية المستمرة بين شبه الجزيرة العربية وسواحل الحبشة على البحر الأحمر قبل ظهور الإسلام وبعده . ومما هو جدير بالذكر ما نعلمه عن وصول مهاجرين يبلغ عددهم ٨٠٠ نسمة حوالى عام ١٨٦٩ من قبيلة الرشايدة من أهالى منطقة جدة واستقرارهم على الشــاطئ الشمالى فى أرتريا . وأهم العناصر السامية الآن : الأمهرا والشعوب التى تتكلم التجرى والتجرينيا والهررية ثم العرب .

أما العناصر الـكوشية (الحامية) فقد دخلت الحبشة من الشمال والشمال الغربى ، أهمها الجالا والصومال ، وكانت مصدر حروب دائمة مع العنصر السامى .

أما العناصر الأفريقية فأتت من الجنوب والجنوب الغربى ، وأظهرها الشنقلا والوجا ، وهى العناصر التى يعتبرها الحبشى من العبيد . ونلاحظ أن اسم قبيلة شنقلا أصبح يطلق اصطلاحاً بمعنى العبد .

وعلى الرغم من اختلاط بعض العناصر الأخرى بالجنس الأصلى فإن التمييز بين العناصر المختلفة من حيث الشكل سهل ميسور .

كان السلطان منذ فجر التاريخ الحبشى فى القرن الثالث الميلادى إلى احتلال إيطاليا فى يد العنصر السامى . وقد جاهد الجنس السامى الحاكم فى كل العصور التاريخية حتى حافظ على هذا السلطان . ولاحظ الطليان هذه الظاهرة عند دخولهم الحبشة فأرادوا أن يغيروا الوضع عندما حاولوا الحط من قيمة العنصر الأمهرى وهو العنصر الحاكم بل القضاء عليه ورفعوا من شأن الجالا والصومال والعرب الداخلين وغيرهم وقربوهم إليهم . فنشأ من تغيير الوضع القديم بمثل هذه السرعة مشكلة تواجهها الحـكومة الأثيوبية الآن إلا أنها تعالجها بحكمة ؛ فقد أبقت الوضع الجديد الذى خلقه الطليان وبدأت تدخل بالتدريج العنصر الأمهرى الذى استبعده الطليان ، وأمكنها بذلك أن توازن بين الأجنــاس المختلفة . وهذه أول مرة فى تاريخ الحبشة يسوى فيها بين جميع الأجناس ، وهذا بدوره سيقضى على كل الثورات الداخلية فى المستقبل ويقوى وحدة أثيوبيا القومية والسياسية .

اللغة

يتبع تعدد الأجناس تعدد اللغات فى الحبشة ، بل أكثر من هذا فان الجنس الواحد قد تتفرع لغته إلى لهجات ، وهذه بدورها تتباعد عن الأصل مع مرور الزمن وتغير البيئة حتى تصبح لغة . والحبشة غنية بظواهرها اللغوية فإن وضعها الجغرافى وسط حضارات مختلفة من سامية وكوشية ونيلية وغيرها جعل منها بيئة صالحة للتطورات اللغوية .

وهناك ثلاث مجموعات من اللغات السامية والكوشية والنيلية . أما اللغات السامية فهى أكثرها انتشاراً بين العناصر السامية وغيرها ، وقد عددت ثمانى لغات مختلفة أهمها الجعز (أو كما ينطقونها الآن الجيز إذ أن نطق العين والحاء سقط تحت تأثير اختلاط الساميين بغيرهم) . وهذه اللغة أقدمها تاريخاً وهى لغة الكنيسة إلى الآن ، وكانت إلى عصر قريب لغة الأدب الذى لم يصلنا منه إلا الأدب الكنسى ومعظمه إن لم يكن كله مترجم عن الأدب القبطى العربى ، وهى فى تراكيبها ومعانى كلماتها أقرب ما تكون إلى اللغة العربية . أما اللغة الأمهرية فهى لغة الدولة منذ القرن الثالث عشر الميلادى إلى الآن ، ونعتبرها أختاً للجعز وليست مشتقة منها ، وهى متأثرة فى صيغتها باللغات غير السامية التى عاشت بينها قروناً طويلة قبل أن تصير لغة الدولة .

واللغة العربية منتشرة على الشواطئ وفى الداخل خصوصاً فى المراكز التجارية . أما اللغة الهررية فهى لغة سامية أيضاً تكتب بحروف عربية .

وأما اللغات الكوشية فقد عددت منها تسع عشرة ، أهمها لغات الجالا والصومال . ولغة الجالا موسيقية رقيقة على السمع فيها أدب شعبى كبير لم يدون وقد بدأ المستشرقون فى جمعه ونشره بالحروف اللاتينية .

أما اللغات النيلية فلم نتمكن من إحصائها كلها إحصاء دقيقاً ، وقد عرفنا منها إلى الآن أربع عشرة لغة ، أهمها الكوناما والباريا . وتعد الآن اللغة الأمهرية أهم هذه اللغات شأناً إذ أنها اللغة الرسمية للدولة . وقد اهتمت الحكومة الأثيوبية أخيراً بأن تعمم استعمالها فى جميع مناطق الحبشة . فإن توحيد لغة الكتابة أول

مظهر من مظاهر القومية . وليس معنى هذا أن يقضى على اللغات الأخرى بل على العكس قد اهتم جلالة الإمبراطور مثلاً بتعليم اللغة العربية فى المناطق المختلفة وخاصة تلك التى يكثر فيها المسلمون . ولكن جلالته أشار بأن يوجه التعليم فى اللغات توجيهاً قومياً . وقد عهد إلىّ بوضع كتب فى المطالعة العربية وقواعدها يراعى فيه هذا الاتجاه القومى ، كما عهد إلى أحد الأساتذة من الأمريكيين فى وضع كتاب للمطالعة الإنجليزية يراعى فيه الاتجاه نفسه . وهناك مدرسون للغة العربية فى المدارس الحكومية فى هرر وديريداوة وججججه وأديس أبابا وديسى وجمة .

ومع أن اللغة الأمهرية كانت لغة التخاطب منذ قرون فانها لم تصل إلى مستوى اللغات الأدبية إلا قريباً ؛ فإن أقدم ما وصلنا منها مكتوباً يرجع إلى القرن الرابع عشر الميلادى ولعل ضعفها يرجع إلى وجود لغة الكنيسة (الجعز) إلى جانبها . ولما اشتد الجدل بين رجال الدين من الأحباش وبين الإرساليات التبشيرية الأجنبية منذ القرن السادس عشر وشرع رجال الإرساليات من الكاثوليك فى تدوين آرائهم بالأمهرية لم يجد رجال الدين الحبشى بدًّا من الرد عليهم بالأمهرية ، ومن ثم ترجم الكتاب المقدس بالتدريج إلى الأمهرية ، وهكذا رفعت اللغة الأمهرية إلى مصاف اللغات الأدبية .

ويواجه الأحباش مشاكل لغوية كثيرة حتى يجعلوا هذه اللغة تساير الحضارة . وقد أمكننى أن أساعد أثناء إقامتى هناك على وضع المصطلحات العلمية فى الحساب والهندسة العملية والجغرافيا . ولكن الصعوبة التى وجدتها ويجدها أهل الفنون المختلفة من الأحباش هى رفضهم إدخال المصطلحات الأجنبية بلفظها ، فإذا أخذنا فى ترجمة المصطلحات إلى اللغة الامهرية — كما فعلت — وجدها الناس لا تتفق مع ما اعتادوا عليه من معانى الألفاظ الأصلية فاستغربوها . وهكذا تحتاج المصطلحات العلمية إلى وقت طويل حتى يستسيغها الناس كما هو الحال عندنا . واللغة سائرة فى دور التطور ، إلا أن الأحباش يبالغون الآن فى التمسك بها والتعصب لها . وربما كان لهم بعض العذر فى هذا التصرف ؛ فقد خرجوا من الاحتلال الإيطالى الذى حاول القضاء على لغتهم بمنع تدريسها فى المدارس وإحلال اللغة الإيطالية محلها ، فلما استردوا بلادهم وجدوا أن الطليان قطعوا ما بينهم وبين ما كانوا قد شرعوا فيه من احياء اللغة .

كانت اللغة الأمهرية غير منتشرة انتشاراً بعيداً فى أنحاء الحبشة ، إلا أن الاحتلال الإيطالى أظهر للأحباش جليا قيمة اللغة الواحدة فى إنشاء الوحدة ؛ إذ أن المسافر الآن يمكنه أن يتفاهم باللغة الإيطالية فى جميع أنحاء الحبشة بعد خمس سنوات من الاحتــلال ، وقد سمعت رجلين من الجالا والأمهرا يتفاهمان فيما بينهما بالإيطالية :

الأدب الشعبى

والشعب الحبشى لديه إحساس أدبى رفيع يظهر فى الأدب الشعبى من شعر قصصى وحكم وأمثال وهم مغرمون بالتلاعب بالألفاظ والجناس والكنايات والمعانى المجازية وما إلى ذلك ، إلا أن أثر الأدب الكنسى جعلهم يشعرون بأن تدوين هذه الآداب الشعبية يتنافى مع الوقار ؛ فلذلك لا يعطينا الأدب الأمهرى المكتوب صورة صحيحة عن الشعب الحبشى . وسأحاول أن أعرض بعض أنواع الأدب الأمهرى المتداول بين الشعب .

ولعل الشعر هو أظهر أنواع هذا الأدب ، وقلما تجد إنساناً هناك لا يزن الشعر ويغنيه على القيثار ، وهم يلتزمون القافية فى الشعر ، فتجد عنــدهم الشعر الذى يتغنى به الأبطال وأظنه معروفاً من زمان قديم بسبب الحروب الدائمة التى مرت على الحبشة ، ومثاله :

« افسـحوا الطريق
لباشا أباى الشـجاع
فهو يعرف كيف يصلح الحال بفرسه الأبيض
يعرف من يقتل ومن يرحم
خضّب أيدى وأرجل الفرسان »

وكذلك ينتشر بينهم شعر التهريج الذى ينشدونه فى المناسبات المختلفة مثل رأس السنة وأول الصيام والأعياد المختلفة . ولـكل مناسبة من هذه المناسبات نغمة معروفة ينشدون بها الأشـعار المختلفة ، بل قد تجد نغمة

للأطفال ونغمة للبنات ونغمة للشبان . ووزن هذا الشعر قصير ذو أربعة أو خمسة مقاطع ، ومنه :

« أمضيت نهارى أناجى الزهور
وعند المساء طبخت الفول
أعطيت زوجى ليأكل
فضربنى بالمغرفة على ضلوعى »

ثم هناك نوع آخر من الشعر وهو الشعر الإمبراطورى يقال فى المناسبات المختلفة فى يوم التتويج أو الميلاد أو غيره . وهو شعر وزنه فى الغالب رزين ستة مقاطع ، يتحاشى فيه الشاعر المعانى المجازية حتى لا يحمل على غير محمله .
وإليك بعض أبيات مقتبسة من قصيدة فى عيد ميلاد الإمبراطور :

« إن لم تولد يا مخلصنا
فمن تجد بلادنا الفردوسية
نريد أن نغنى لك أناشيد جميلة
أحلى من العسل والسكر
قد أضاءت أثيوبيا بنور ساطع
واختفى الليل وصار نهاراً . »

وكذلك يتبارى الشعراء فى تقوية القومية عند النشء بوضع أناشيد قومية عن أثيوبيا ، مثال ذلك :

« أثيوبيا التى تنتج لإرضاء أطفالها
تنبت الزرع بدون أن تبذر — لا تتعب كثيراً
تحمى القمح وتقلع الحشائش
رأينا كيف تطعمنا بعد أن أنضجتنا الشمس
وطننا يمتل بالحصاد
ومملكتنا بالمطر . »

وهم يحثون النشء على تعلم اللغة الأمهرية قبل كل شيء ، من ذلك قولهم :

« لساننا كالملعقة الصغيرة
لا يقوى أن يحمل مع لغتنا لغة أخرى
إذا عرفت جيداً الجيز والأمهرية
يمكنك بعد ذلك أن تسرق اللغات الأجنبية . »

ولكن الشعر المفضل عندهم هو الشعر الذى يحمل معنى مجازيا ، ويزداد شغفهم به كلما شعروا بضغط سياسى داخلى أو خارجى أو إذا أرادوا أن يوجهوا النقد الاجتماعى أوالسياسى . وقد انتشر هذا أيام الطليان حتى إنه ضايقهم كثيراً ، ولكنهم لم يتمكنوا من القضاء عليه . وهذا النوع من الشعر قصير يتغنى به . ومن أمثلة ذلك :

« قد حل الوباء فى منزلنا
متى يمكن أن نتحرر من هذا الداء »

وقد ظهرت قصيدة عام ١٩٣٧ أيام الاحتلال الإيطالى على طريقة المجاذبة يقول الأول :

حل يوم الوليمة
هلا ساعدتنى فى إحضار الخبز والتوابل !

فيرد الثانى :

لا مانع عندى سأضع ما فى استطاعتى
فطاهيتنا خضراء تعرف الواجب
يمكننا أن نحضر الحبة البيضاء
وأنت تحضر الحبة السوداء

القول الأول موجه من الإمبراطور لكى يساعده الشباب على طرد العدو فيرد عليه شباب أثيوبيا (اسم الطاهية خضراء) بأنه على استعداد لطرد الطليان

(الحبة البيضاء) وما على الإمبراطور إلا أن يحضر ليحكم أثيوبيا (الحبة السوداء) .

وقد يوجه النقد إلى الحكام على هذا النحو :

« أسمع صوت الناى والنفير ، أين هذا ؟
الناى فى الباب المسروق (اسم الباب الخلفى من القصر الإمبراطورى)
والنفير فى القصر (ومعنى الكلمة أيضاً الزواج) »

أى إن الترقية لا تأتى إلا عن طريقين : الأول السرقة وإعطاء الرشوة ، والآخر الزواج من بنات العظماء .

وللأحباش غرام خاص بالأمثال والحكم ، فهم يقولون « يجب أن يبدأ الحديث بحكمة كما يبدأ النشيد بهليلويا » والحكمة عندهم — كما فى غيرها من اللغات — مختصرة يغلب عليها السجع ، ولذلك يصعب نقلها إلى لغة أخرى إذ يضيع رونقها وبلاغتها ولكن معناها يكفى ليدل على ناحية من أنحاء الشعب فى التفكير ، ويصور — إلى حد ما — بعض خصائص حياته الاجتماعية . وسأسوق طرفاً مما جمعته منها :

— من يقاضى كثيراً لا يربح .
— إذا كانت العصا فى يدى فالحق فى فمى
— إذا دخل المرأة الكبرياء احترق الغداء والعشاء
— من تحبه المرأة فمصيره إلى جهنم
— وطن المرأة زوجها
— العصا للحمار والنساء
— أنظر إلى الأم ثم تزوج البنت
— القروى خجول فى مأكله جرىء فى كلامه
— يكره القروى من يحترمه
— لايمكن الأجنبى أن يستقر (أى لا جذور للأجنبى)
— صداقة الأجنبى كالماء ينقصه البهاء
— الأجنبى كالخيط ينفذ من الإبرة ثم لا يلبث أن ينتشر كالجيز

— على الإنسان الابتداء وعلى الله الانهاء
— التفاهم أهم من العلم ، والتجفيف أهم من الغسل ، والاستعلام أهم من السفر .
— البطين لا يعرف الحب
— من يتكلم أولاً يكره ، الفاكهة التى تنضج أولاً يأكلها العصفور
— الرئيس والقطن إذا بيتا ثقلا
— رب تلميذ أعلم من أستاذه
— لا تمسك ذنب النمر ، فإذا أمسكته فلا تتركه
— اترك قلبك يحترق خير من يدك
— أرى البائس فتؤلمنى عينى (يقال للبخيل)
— الاتحاد يورث القوة ، والحرية تنشر المعرفة
— اسمع واسكت يرض الله عنك
— إذا أقفلت فاك لا يدخله الذباب
— اسمع قبل أن تتكلم ، وامضغ قبل أن تبلع
— تشاجرت بطتان على قمح غيرهما
— يمكنك أن تسرق بقرة الأخرس
— إقبل ما تعطاه ، واذكر ما يصنع معك
— القرية المكتظة بالعزّاب تجدب بعد عام
— لابد للفجر والحقيقة أن يظهرا
— أطعمه حتى لا يتكلم ، وادفعه حتى لا يأكل
— الخمر : الكأس الأولى تلهب قلبك ، والثانية تبرد قلبك ، والثالثة تحقد قلبك والرابعة تسل سيفك
— مرر عسله وسوّد لبنه
— دخل ليشرب فجلس ، ثم انتهى بأن ورث
— قبل أن تلف العمامة كن عالماً
— لا ترى الإبرة بسمها الصغير ، وبالرغم من هذا ففائدتها كبيرة
— يكون الضيف ذهباً ثم فضة ثم حديداً
— إذا ضربت الأنف بكت العين

— الملك أعظم من رسوله
— مهما تجمع الذباب فلن يفتح الجرة
— إن لم تقترض تعش فى سلام
— الطفل الذى لم يتعود الضرب يبكى إذا لمسته
— أشجع الشجعان من يطعن وهو جالس
— السماء قريب للجالس
— اجعل غيرك يعطى خير من أن تعطى
— شيطان معروف خير من قديس مجهول
— اذا شفى المريض نسى الله
— إذا أردت أن تفضح الكاذب فاسأل أخاه وأخته
— إذا لم تمطر السماء سلمت البيوت ، وإذا لم تحضر الضيوف سلمت النساء
— لا يمكث الزبد فى بطن الكلب (يقال لمن لا يحفظ السر)
— لا يمكن أن أبكى إلا من عينى ، ولا يمسح دموعى غيرى
— تعرف البقرة عالفها لا صاحبها
— يطيع المرء حكمه أكثر مما يطيع حكومته
— جارك القريب ولا قريبك البعيد
— شاهد لا يخيف وعين لا تؤكد (أى لا تخف من شهادة شاهد واحد عليك ، فما رأته عين واحدة لا يمكن إقامة الدليل عليه)
— إذا احترق بيت غيرك خيل إليك أنه قش يحترق
— إذا أكل الخادم الدسم احتاج إلى من يؤدى عمله
— ما يتركه الأسد يأكله الضبع
— الأقارب والدواء تحتاج إليهما فى اليوم العسير
— يحب الإنسان أن يرى أولاده تقبّل ، وما يقدمه للضيوف يؤكل
— فرق عظيم بين من يضحك من الفرح ومن يضحك الألم
— الأرض التى تتعب تنتج الحشائش
— ليس للموت قانون
— من يعطى العالم درساً كمن يقطع اللحم للأسد

— إذا أمكنك أن تمسك سيدك من رجله أمكنك أن تضربه
— المعلم الحليق كالكنيسة الجرداء
— العمل الموكول إلى الشيوخ ينجح إن عاجلا أو آجلا
— تعرف قدر المرء من قوله
— اذا تكلم السفيه سمعه العاقل
— يحكم على البغل بمنظره، وعلى الخادم بعمله

وقد تغلغل الغرام بالحكم والأمثال عندهم حتى لقد ينطق القاضى حكمه فى قضية بحكمة قصيرة تنطبق على مادة من مواد القانون الجنائى، فمنها :

— لا يقاضى الميت فإن ما سكب لا يمكن أن يغرف
— ينبح الكلب حيث يأكل (اللص يجلد حيث سرق)
— كما يمكن السماك أن يصطاد الحية البرية، كذلك يمكن من يبحث عن مال غيره أن يضيع ماله
— يؤذى الشر فاعله كما يؤذى حد السيف جرابه
— لا تلعب مع الطفل فإنه يخزك بالعصا
— كما أن الخشبة لا تحترق وحدها، كذلك الإنسان لا يحكم وحده (واحد لا يحترق، واحد لا يحكم)

هذه هى أهم مناحى الأدب الأمهرى الشعبى . بقى نوع آخر وهو القصص . وقد اتجه الأحباش فى قصصهم اتجاها غير قصص الشاطر حسن والغول إلى آخر ماهو معروف عندنا ؛ فقد أولعوا بقصص الحيوانات وفضلوه على غيره ؛ إذ أن المجال فيه واسع لتوجيه انتقاداتهم وهم فى مأمن من السلطان . إلا أن القصص بوجه عام قليل فى الأدب الأمهرى ولو أنه تطور تطوراً محسوساً فى أدب الجالا الشعبى، وهو يذكرنا إلى حد ما بقصص إيزوب وابن المقفع ولافونتين . وإليك مثالاً من هذا القصص فى أدب الجالا : الضبع وابن آوى

« فى يوم من الأيام التقى ضبع مع ابن آوى فى غابة . فقبض الضبع على ابن آوى ثم قال له : إما أن تحضر لى ماء وإما أن تهيئ لى مكاناً للراحة . فقال له ابن آوى وهو يرتعد من الخوف : لو كنت أنا رجلاً لما جسرت على معاملتى بهذا الشكل السيء . فسأله الضبع قائلاً : ما هو الرجل ؟ فأجاب : إذا أردت فتعال معى دلك على معنى الرجل . وبينما هما يسيران مرّا على رجل مسن ، فسأله الضبع قائلاً : أهذا هو الرجل ؟ فقال ابن آوى لا ، هذا كان رجلاً ، وهو الآن ليس برجل . فاستمرا فى السير حتى لقيا صبياً ، فسأله الضبع هل هذا هو الرجل ؟ فأجاب ابن آوى لا ، هذا سيصير رجلاً . وبينما هما فى طريقهما مرّا بشاب فى يده بندقية ، فسأله الضبع هل هذا هو الرجل ؟ فأجاب ابن آوى قائلا هذا هو رجل حقّاً ، إذا كنت شجاعاً فاقبض عليه . فذهب الضبع لينقض عليه . فأطلق الرجل رصاصة أصابت أذنه ، فصدق الضبع حينئذ ابن آوى وفرك أذنه ثم ولى هارباً »

دكتور مراد كامل

(يتبع)

دولة إسلامية شيوعية

فى القرن الرابع الهجرى

تتبوأ المبادىء الاشتراكية مكانتها بين النظم المعاصرة، وتشق طريقها بنجاح إلى كثير من المجتمعات المتمدنة، وتحظى بكثير من القوة والنفوذ العملى فى عدة من أعرق الأمم الديمقراطية الأوربية؛ وتسيطر الفكرة الشيوعية وهى خلاصة الفكرة الاشتراكية وغايتها المثلى على نظام دولة أوربية عظمى معاصرة هى روسيا السوڤيتية.

وإذا كانت الفكرة الاشتراكية تبدو اليوم من ناحية التطبيق العملى أحدث فكرة لتنظيم الدولة والمجتمع، وإذا كانت روسيا السوڤيتية من حيث الوضع التاريخى هى اول دولة متمدنة تقوم على الفكرة الاشتراكية وأول دولة متمدنة طبقت الفكرة الشيوعية بصورة عملية، فإن ذلك لا ينفى أن الفكرة الشيوعية، كأساس لتنظيم الدولة والمجتمع هى فكرة قديمة مثلت فى التفكير الإنسانى منذ أقدم العصور.

ففى جمهورية أفلاطون نجد شرحاً للمجتمع الشيوعى الذى تصوره الفيلسوف، وهو يشير إلى نقص النظم الاجتماعية القائمة فى عصره، ويقول بوجوب تغييرها من أساسها، وأن يقام مجتمع تسوده المساواة العامة فى ظروف الحياة تمحى فيه الفوارق الاجتماعيـة بين الأغنياء والفقراء. ولم يكن المجتمع الذى تصوره السير توماس مور فى كتابه المثالى الشهير Utopia فى القرن السادس عشر سوى مجتمع شيوعى بكامل معانى الكلمة يقوم على شيوع الثروات ووسائل الإنتاج.

ولم تقف الفكرة الشيوعية فى المجتمعات القديمة عند حد الدعوة المجردة، ولكنها طبقت بالفعل بصورة عملية فى أحيان كثيرة. ففى عصور المسيحية

الأولى كانت ثمة جماعات نصرانية تطبق النظام الشيوعى فى حياتها . وفى العصور الوسطى كانت ثمة جماعات وطوائف كثيرة ولا سيما الهيئـات الدينية وجماعات الرهبان تعيش فى ظل الشيوع .

بل لقد غزت الفكرة الشيوعية المجتمع الإسلامى ذاته وهو فى ذروة قوته ونضجه ورسوخه : غزته فى أوائل القرن الرابع الهجرى على يد طائفة من الدعاة الغلاة الذين اعتنقوا مبادئ دينية واجتماعية جديدة متطرفة ، ونجحوا فى إقامة دولة من طراز جديد تقوم على نوع من الشيوع الاقتصادى والاجتماعى .

أولئك هم طائفة القرامطة الذين ظهرت دعوتهم الثورية لأول مرة فى أحواز الكوفة فى أواخر القرن الثالث الهجرى . وكان فى مقدمة دعاتها رجلان يحيط بأصلهما الغموض ، هما الفرج بن عثمان القاشانى المعروف بذكرويه ، وزميله وتلميذه حمدان الملقب بقرمط [1] وهو الذى غدا من بعده إمام المذهب وزعيمه . ولم تكن دعوة قرمط فى البداية سوى طرف من الدعوة الإلحادية العنيفة التى شهرها عبد الله بن ميمون فى جنوبى فارس باسم الحركة الشيعية فى أوائل النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى . وكانت مثلها تقوم على الدعوة إلى إمام من آل البيت هو المهـدى الذى يملأ الأرض بعدله . وكانت الفـكرة الدينية فى الواقع قوام كل دعوة جديدة تبدو فى المجتمع الإسلامى للقيام بأية محاولة لانتزاع السـلطة السياسية . وكان الدين دائمـاً عضد السياسة ودعامتها الأولى . ولم يشذ داعية القرامطة عن هذه القاعدة ، فألقى إلى صحبه وأنصاره تعاليمه الدينيــة فى صورة أوامر وتعاليم جديدة سواء فى التحريم والإباحة ، فعدل أحكام الصلاة والصوم ، وأباح شرب الخمر ، وفرض الجزية على أنصاره إلى غير ذلك من التعاليم والبدع الجديدة التى يتميز بها مذهب القرامطة .

وقد انتهت إلينا عن فلسفة القرامطة ومراتب دعوتهم أقوال كثيرة متضاربة . بيد أنه يكاد يكون من المجمع عليه أنها فلسفة مادية تقوم على تعاليم الباطنية ومذاهب الدهرية ، وأساسها ترك العبادات والمحظورات ، واستباحة المحرمات . وأما وسائل الدعوة فقد رتبت على عدة مراتب خمس أو سبع أو تسع وفقاً لمختلف

(١) يرى بعض الباحثين أن كلمة « قرمط » ربما اشتقت من لغة القبائل الأرمينية بالجزيرة ومعناها « المدلس » (دائرة المعارف الاسلامية فى مقال القرامطة) .

الروايات ، تبدأ بالتفرس والتأنيس والتشكيك وتنتهى بالخلع والنسخ ، أوبعبارة أخرى تنتهى بنسخ العقائد المقررة وهدم الأديان .

على أنه يبدو مع ذلك أن دعوة القرامطة كانت تشتمل على برنامج سياسى واجتماعى وثقافى منظم ، يقوم على العقل والتسامح والمساواة الاجتماعية والاقتصادية . وهذه الناحية من تعاليم القرامطة هى التى تعنينا فى هذا البحث قبل كل شىء . ذلك أن المساواة الاجتماعية والاقتصادية التى غلبت على مجتمع القرامطة كانت فى ذاتها بدعة جديدة فى تعاليم الفرق الإسلامية . ويرى الأستاذ ماسنيون أن مجتمع القرامطة الثورى الذى قام فى جنوبى الجزيرة (العراق) كان يقوم على أساس شيوعى [1] . والواقع أن قرمط داعية المذهب وإمامه الأول ابتدع أصولاً وقواعد جديدة لتنظيم مجتمع إسلامى جديد من أنصاره يقوم على الإباحة والشيوع ، ففرض على أنصاره فى البداية ضريبة عامة ، ثم ضوعفت هذه الضريبة حتى كادت تستغرق الدخل الفردى ، ثم انتهى بأن أقنع أنصاره بمزايا الشيوع وإلغاء الملكية الفردية ، واشترط على الصحب والأنصار وضع الأملاك الخاصة فى ملكية عامة أو ما يسميه دعاة المذهب « بالألفة » . ونظم الدعاة فى كل مكان وجدت فيه طائفة من الأنصار مجتمعاً شيوعيًّا حقيقيا ، ولم تلبث هذه الدعوة الشيوعية أن انتشرت بالأخص بين العمال والفلاحين فى جنوبى الجزيرة كما انتشرت فى بعض أنحاء خراسان وسوريا واليمن .

ولم يلبث مجتمع القرامطة أن تحول فى ظل هذه النزعة الشيوعية ، وفى ظل هذه الإباحة المطلقة ، إلى عصبة خطرة من الخوارج والناقمين ، تستحل الأموال والأعراض ، وتنشر الدمار والرعب فيما حولها من الأنحاء . ولم تلبث أن نشبت بينهم وبين جند الخلافة العباسية معارك دامية . وذاعت دعوتهم فى قلب الجزيرة العربية ، وطاردتهم جنود الخلافة إلى الداخل وهم يزيدون قوة وجموعاً . وظهرت قوتهم وجرأتهم لأول مرة بصورة خطرة حينما زحفوا على مدينة دمشق سنة ٢٩٠هـ (٩٠٢م) ولم يُرَدُّوا عنها إلا بعد معركة طاحنة اشتركت فيها جند مصر والشام . واستفحل أمر القرامطة فى أنحاء البحرين ، والتفوا هنالك حول زعيم

(١) فى دائرة المعارف الاسلامية فى مقالة عن القرامطة .

قوى صارم العزم ، هو الحسن بن بهرام المعروف بأبى سعيد ، وزحفوا على البصرة وهزموا جند الخليفة فى ظاهرها . ثم أنشأ سليمان أبو الطاهر ولد أبى سعيد مدينة الأحساء وجعلها عاصمة لإمارته . ثم غزا البصرة مرة أخرى ، وتجرد بعد ذلك للبطش بقوافل الحجاج والتجار ، وبسط سلطانه على أواسط الجزيرة العربية ، واستمر أمره فى ازدياد . وفى سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩م) سار أبوالطاهر إلى مكة وفتك بالحجاج ، واقتحم البيت الحرام ، واقتلع الحجر الأسود وحمله إلى الأحساء ، فارتاع العالم الإسلامى لذلك الاجتراء . ولم يردّ القرامطة الحجر الأسود إلى مكانه إلا بعد جهود كثيرة بذلتها الخلافة العباسية والخليفة الفاطمى فى ذلك السبيل . ولبث أبو طاهر سيد البحرين زهاء ثلاثين عاماً يتردد بالإغارة والنهب على مدن العراق والشام ، حتى اضطرت حكومة بغداد ذاتها أن تقدم له إتاوة سنوية لتنجو من عدوانه .

ويمكننا أن نعتبر سليمان بن الحسن مؤسس دولة القرامطة الحقيقى ومنظم دستورها السياسى والاجتماعى ، وعلى يده اتخذت فلسفة القرامطة وتعاليمهم شكلها النهائى ، وطبقت بمنتهى العنف والشدة . وقد ورد فى رسالة « القاموس الأعظم » التى وجهها بعض أئمة المذهب إلى سليمان وصف مجمل لأصول الدعوة ووسائل إذاعتها قال فيه : « ادع الناس بأن تتقرب إليهم بما يميلون إليه ، وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم ، فمن آنست منه رشدا فاكشف له الغطاء ، وإذا ظفرت بالفلسفى فاحتفظ به ، فعلى الفلاسفة معولنا . وإنا وإياهم مجمعون على أن نواميس الأنبياء ، وعلى القول بقدم العالم لوماً ما يخالفنا فيه بعضهم من أن للعالم مدبراً لا يعرفه » . وجاء فيها أيضاً إبطال القول بالميعاد والعقاب ، وأن الجنة هى نعيم الدنيا ، وأن العذاب إنما هو اشتغال أصحاب الشرائع بالصلاة والصيام والحج والجهاد . . . الخ .

ثم يقول الداعى لسليمان بن الحسن : « وأنت وإخوانك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس ، وفى هذه الدنيا ورثتم نعيمها ولذاتها المحرمة على الجاهلين المتمسكين بشرائع أصحاب النواميس . فهنيئاً لكم بما نلتم من الراحة عن أمرهم »[1] .

---

(١) الفرق بين الفرق لعبد الظاهر البغدادى ص ٢٧٨و٢٧٩و٢٨٢ .

ووصل القرامطة إلى ذروة قوتهم فى أواسـط القرن الرابع الهجرى حين زحفوا على الشام وعاثوا فيها، ثم زحفوا على مصر سنة ٣٦٣هـ (٩٧٣م) فى عهد المعز بقيادة زعيمهم الحسن الأعصم، ولم يُرَدُّوا عنها إلا بعد معركة طاحنة بالقرب من بلبيس. وكان القرامطة ينضوون فى بادئ الأمر تحت لواء الخلافة الفاطمية باعتبارهم من فرق الشيعة الإمامية. ولـكن المعز أنكر عليهم بعد ذلك جرأتهم وعبثهم واعتداءهم على أراضيه، ونشبت الخصومة بينه وبينهم. ولم ينقطع خطر القرامطة على مصر إلا فى عهد ولده العزيز حيث رُدُّوا عنها وعن الشام بصورة نهائية

وما نود أن نلفت النظر إليه بإيراد هذه اللمحة الموجزة عن تاريخ القرامطة هو أن القرامطة استطاعوا ان ينشئوا بالرغم من مبادئهم الغريبة المتطرفة فى قلب الجزيرة العربية مجتمعاً منظماً متماسكاً، ودولة بلغت من التنظيم والقوة، أن استطاعت أن تهدد الخلافة العباسية فى الشرق والخلافة الفاطمية فى الغرب، وأن تثخن فى أنحاء الجزيرة العربية شمالاً وغرباً، وأن تصل فى غزواتها إلى قلب الأراضى المصرية. وقد كانت هذه الدولة العربية التى تتسم بسمة الإسلام دولة خارجة على سائر الأمة الإسلامية، تقوم على أصول وتعاليم تنكرها تعاليم الإسلام الصحيحة السياسية والاجتماعية فضلاً عن الدينية. كانت دولة عسكرية شيوعية، تقوم على شيوع الثروات الطبيعية والمكتسبة يوزع الإمام منها ومن ثمراتها على رعاياه وفقاً لمشيئته. ولا تحترم مبدأ الملـكية الشخصية الذى يعتبر قاعدة أساسية فى تكوين المجتمع الإسلامى الاقتصادى، والذى تحيطه الشريعة الإسلامية بضمانات قوية. بل لقد ذهب القرامطة فى تطبيق مبدأ الشيوع إلى حد الإباحة المروعة، فأباحوا شيوع النساء، وكانت المرأة عنصراً بارزاً فى مجتمع القرامطة يسمح لها بالانتظام فى سلك الدعوة والتدرج فى مراتبها. وكان الدعاة من المراتب العليا يطبقون هذا النوع من الشيوع المثير بطريقة منظمة، وكانوا يعتبرونه نوعاً من الـكمال الذى يقوم على أقصى درجات الصداقة والإخاء. ويروى لنا ابن الأثير عن زعيم القرامطة أبى سعيد حادثاً من هذا النوع يؤيد انحدار القرامطة إلى هذه الفوضى الأخلاقية المروعة، التى كانت عنوان مذهبهم[1]. وقد كان من الطبيعى أن تقترن هذه الإباحة المغرقة

---

(١) ابن الأثير (مصر) ج ٧ ص ١٦٣ وراجع أيضاً الفرق بين الفرق ص ٢٨١.

بإلغاء أحكام الإسلام الأساسية من الصلاة والصوم وسائر الفرائض الأخرى .

ولقد كانت هذه الناحية الدقيقة من الشيوع التى اعتنقها القرامطة فى القرن الرابع الهجرى من أشد ما تهاجم به الشيوعية الحديثة ؛ إذ يقول خصوم الشيوعية إن شيوع الثروات ووسائل الإنتاج يؤدى إلى شيوع النساء . ويرد ماركس إمام الشيوعية فى البيان الشيوعى على هذه التهمة ويفندها ، ويحاول أن يدلل على أن المجتمع البورجوازى يتخبط فى معترك الفوضى الأخلاقية ، ويقوم فى الواقع على نوع مستتر من شيوع المرأة ، وأن الشيوعية ترمى بتحرير الطبقات الدنيا من الفقر والعوز ، إلى تحرير النساء وإلغاء هذا البغاء المستتر الذى يحميه النظام البورجوازى (الراسمالى) .

وقد تأثرت فلسفة القرامطة فيما يبدو بمبادئ الخوارج الكلامية والسياسية . وقد كان بين الخوارج فرق ترى إباحة شرب الخمر والسرقة وغيرها إذا ارتكبت بغير إصرار[1] ومن جهة أخرى فقد كان بين الخوارج من يرى أنه لا ضرورة لتنظيم المجتمع أو أن يقوم بين الناس إمام أو حكومة . وإنما يجب على الناس أن يتعاطوا الحق فيما بينهم . وهذه بلا ريب هى اللاحكومية الحديثة بعينها .

وعلى أى حال فإن هذه الإباحة الدينية والسياسية التى غلبت على مذهب القرامطة منذ البداية لم تكن إلا طوراً من أطوار الثورة على الإسلام وعلى مبادئه ونظمه . وهى ثورة بدأت مبكرة جدًّا مذ قامت الحركة الشيعية وتسربت إليها تعاليم الملاحدة والمتآمرين السياسيين ، ولا سيما الدعاة الفرس أئمة هذه الثورة الإلحادية وأكبر دعاتها . وقد كانت هذه النزعة الإباحية المغرقة تقترن عند القرامطة بالعنف الذريع ، فكان ذلك مما يضاعف خطرها على المجتمع الإسلامى . وقد استطال هذا الخطر السياسى والاجتماعى زهاء قرن ، ولم ينحل مجتمع القرامطة إلا فى أواخر القرن الرابع الهجرى بعد جهود ومعارك عنيفة ، اشتركت فيها الدولة العباسية ومصر الفاطمية على ما بينهما من أسباب الخصومة والتباعد .

محمد عبد الله عنان

---

(١) هم الأزارقة (الشهرستانى ج ١ ص ١٦٦)

ذكريات أول وجدانى الذهنى

كنت فى سنة ١٩٠٥ تلميذاً فى السنة الأولى الثانوية قد تركت بلدتى الزقازيق ورحلت إلى القاهرة ؛ إذ لم تكن فى تلك السنين مدارس ثانوية إلا فى القاهرة أو الاسكندرية . وكانت سنى إذ ذاك نحو ١٥ أو ١٦ سنة ، فشرعت أقرأ الجرائد اليومية وأشترى المقتطف والجامعة وأسأل عن الكتب . ولم تكن هناك مجلات أسبوعية . وبقيت الحال كذلك إلى أن أنشأت أنا أول مجلة أسبوعية سنة ١٩١٤ وهى « المستقبل » .

وعرفت المقتطف . وكان اهتدائى إليه من المصادفات البديعة التى أعانتنى على التثقيف الذاتى . وكنت أشترى الأعداد القديمة بل أحياناً الأعداد الجديدة ، من الإدارة ، على غلاء ثمنها ، وألتهمها من الغلاف إلى الغلاف . وعند ما عدت إلى الزقازيق وجدت فى بيت صديق لى بقرية قريبة من الزقازيق نحو مئة عدد من هذه المجلة ، فاقترضتها وقرأتها جميعها . وكان يحرر المقتطف فى تلك السنين الدكتور يعقوب صروف . وكانت بؤرة اهتمامه الذهنى فى ذلك الوقت نظرية التطور التى كان يسميها نظرية النشوء والارتقاء . ولذلك لم يكن يخلو عدد من بحث هذه النظرية .

وفى مجتمعنا المصرى كثير من الكظوم التى ترهق الذهن بالقيود والسدود . وكان الإيمان بنظرية التطور نوعاً من التفريج والانتقام . ولذلك وجدتنى فى ذلك الوقت داعية متحمساً لهذه النظرية فى البيت والمدرسة وفى كل مكان آخر . وشعرت كأنى ممتاز بهذه النظرية . فبعثنى هذا إلى التوسع فيها ، وعرفت لذلك الدكتور شبلى شميل ، وكان رجلا كبير الذكاء محدود المعارف . فكان يعتمد على الحجة المنطقية أكثر مما يعتمد على البينة العلمية . وفى الوقت الذى كان يعتمد فيه المقتطف على البينات العلمية وينقل أقوال البيولوجيين فى أوربا عن هذه النظرية كان شبلى شميل يدفع عنها ويدعو إليها بقوة المنطق . ولكن يجب مع

هذا أن نذكر فضل شبلى شميل فى أنه نقل إلى العربية كتاب بوخنر فى المادة العلمية . والحق أن هذه النظرية كانت رؤيا جديدة لشاب مثلى لم يكد يخرج من طور الصبا ، كما كان شبلى شميل بجرأته وذكائه شخصية فذة لها قوة الإيحاء والتوجيه فى نفسى .

ولكن مع ذلك لم يستطع المقتطف ولا شبلى شميل تكوين مدرسة فكرية . لأن الركود الذهنى كان عاما كما كان الشرق بقواته التاريخية الساحقة يخيم علينا بل يحط علينا بكلكله . فلم يكن المجتمع المصرى وقتئذ يجيز لنا أن نبوح ونعلن سرائرنا . فكنا لذلك أفراداً متفرقين نناقش هذه الأفكار والآراء فى همس متسترين أو فى استحياء يشبه الاعتذار إذا صادفنا غرباء . وكثيراً ما كنت أجد أن الحجة تنتقل من الرأس إلى الذراع ، فأسارع إلى التسليم وأعلن صحة العقائد والتقاليد وكذب الآراء والعلوم . لأن المنكرين كانوا فى العادة أكبر منى سنًّا وأضخم جسماً . . .

وإنى أعزو إلى المقتطف هذه النزعة العلمية التى لازمتنى طيلة حياتى الماضية كما أعزو إليه هذا « الأسلوب التلغرافى » الذى أكتب به والذى يظن كثيرون أنه من اختراعى . وكان الدكتور يعقوب صروف لا يعرف التراويق بل كان فى الأغلب لا يتذوق الجملة البليغة أو الكلمة الناصعة أو العبارة المتلألئة أو سائر تلك الألاعيب الصبيانية التى كان الكتّاب يرفعون من شأنها إلى قبيل الحرب الكوكبية الأولى .

وكان يرافق هذا الوجدان العلمى بالنظر المادى وجدان أدبى آخر غمرنى وبسط لى آفاقاً جديدة . ذلك أننا فى تلك السنين أى حوالى سنة ١٩٠٥ أو ١٩٠٦ لم نكن نعرف من معنى الأدب سوى القواعد الجامدة للبيان والبلاغة التى نحفظها عن ظهر قلب فى جمود أو كراهة . ولكنا كنا نتذوق شيئاً من الجمال الفنى ومقالات اللواء ومصباح الشرق . وكنا نقرأ كتاب أدب الدنيا والدين للماوردى أو كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع . والواقع أن أسلوب الأول يخالف أسلوب الثانى ؛ فإن الماوردى مسهب غير ململم أو محبوك فى حين أن ابن المقفع موجز رصين مضبوط . ولذلك كانت رؤيا جديدة بل إلهاماً جديداً أن أعرف مجلة «الجامعة» لفرح أنطون . فقد عثرت على بضعة عشر عدداً من هذه المجلة ، ثم اقتنيت مؤلفات هذا الكاتب العظيم ، فرأيت دنيا جديدة من الأدب

الأوربى لم نكن نعرف عنها شيئاً من قبل . وقد مس هـذا الأدب أوتاراً فى نفوس جميع قارئيه فى الشرق العربى . لأن هذه الدنيا الجديدة من الأدب الأوربى كانت تختلف ، لا بل تناقض ، ما تعلمنا من أدب عربى . ذلك لأن الأدب العربى ، كما نعرفه فى ذلك الوقت ، كان أدب السلطة والتقاليد والعقائد . ولـكن الأدب الأوربى ، أو بالأصح الفرنسى ، الذى نقله إلينا فرح أنطون ، كان أدب الثورة والتمرد ، أدب العقل الذى يحس والقلب الذى يعقل . أدب ڤولتير وروسّو وديدرو وبرناردين سـان بيير . وكان جميع هؤلاء مجاهدين يكافحون استبداد الملوك والأمراء واستبداد العقيدة وسلطان التاريخ .

وكنا نحن فى مصر فى حالة اجتماعية وسياسية تحملنا على الترحيب بهذا الأدب ، ففتحنا له قلوبنا ، لا بل تفززنا وتمردنا . وكان هذا الأدب هو الذى هيأ فرنسا ، التهيئة الذهنية للثورة الـكبرى . ويبـدو لى الآن أن فرح أنطون لم يكن على جهل بما يعمل . فإنه خرج من لبنان حوالى سنة ١٩٠٠ وكان هذا القطر يغط فى ركود تاريخى آسن وقد خيمت عليه الدولة « العثمانية » ومنعت عنه النور إلا بصيصاً يتلقاه الشباب فى كلية بيروت الفرنسية أو الجامعة الأمريكية . ودرس فرح أنطون الفرنسـية وتشبعت نفسه وذهنـه بآدابها . فلما رحل إلى مصر وجد شيئاً من الحرية . ولـكنه أدرك أن الظلام الذى يشكوه لبنان هو نفسه الظلام الذى تشكوه مصر مع فرق فى الدرجة فقط . فعمد إلى هؤلاء المؤلفين الفرنسيين الذين ذكرت أسماءهم ينقل عنهم أو يستلهمهم فى كل ما يكتب . ومن هنا جِدّته وطرافته لى بل لجميع قرائه . فإن المقتطف لم يكن يعنى بالأدب . وكان «مصباح الشرق» جريدة أدبية يصدرها المويلحى ، ولـكن لأدب العرب فقط . أما الجامعة فانفجرت بيننا تنير وتشير . أى تنير عقولنـا وتشير إلى مبادئ ومناهج رتبها أدباء فرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر ، وكان يحس أننا فى حاجة إلى هذه المبـادئ والمناهج . ولذلك زادنا بترجمة قصة الثورة الفرنسـية لألكسندر دوماس . ولا أعرف واحداً يقظاً فى تلك السنين لم يقرأ هذه القصة ولم يتغير بها وبسائر مؤلفات فرح أنطون .

وكان جديراً بهذه المؤلفـات أن تحدث حركة رومانتية فى الأدب العربى ، ولـكنها للأسف لم تحدث . فإن خلاصتها أن الإنسان حسن مسالم ، ولـكن المجتمع سيئ يحمل على الرذائل . وما أبدعها من فـكرة لأنه مثل أمتنا فى مثل

عصرنا سنة ١٩٠٥ أو ١٩٠٦ . فإن هذه الفكرة كانت جديرة بأن تختمر وتبعث النشاط الذهنى فى جميع القراء ، كما تبعث وجداناً أدبيًّا جديداً ينضج ويتوالد فى شتى الأفكار والآراء .

ولعلى محتاج هنا إلى أن أشرح ماذا أقصد إليه من الاتجاه الرومانتى فى الأدب . فإن الأدب يمكن أن يقسم من ناحية المزاج والاتجاه وقواعد التفكير واللغة بأنه أدب سلفى أو أدب رومانتى . وليس أحدهما خيراً من الآخر ، ولكنهما مختلفان . وفى فترة ما تحتاج الأمة إلى النزعة السلفية فى حين أنها فى فترة أخرى قد تحتاج إلى النزعة الرومانتية .

فالنزعة السلفية تقتضى العناية بالماضى والجرى على أساليب السلف فى قواعد التفكير واللغة . فڤولتير سلفى . وطه حسين فى كتابه عن المعرى سلفى . والعقاد فى كتبه عن رجال الإسلام الأولين سلفى . وقس على هذا .

والنزعة الرومانتية تقتضى الخيال أكثر من التقيد بالنصوص . وهى تجنح إلى الابتداع بدلا من النص والقاعدة . ولذلك كان روسّو رومانتيا ، كما أن طه حسين فى « الأيام » رومانتى . وكذلك توفيق الحكيم رومانتى فى معظم ما يكتب .

ونحن محتاجون إلى النزعتين ، ولكننا فى مصر أكثر احتياجاً إلى النزعة الرومانتية . وإنما هى فى النهاية نزعة التجديد واقتحام المستقبل .

وكان فرح أنطون فيما ألف ونقل رومانتيًّا . بل إن أول الكتب التى نقلها عن الفرنسية كان كتاب « إميل » لجان جاك روسو ، وهو يعد أساساً للحركة الرومانتية فى أوربا ، ويقول بأن الطبيعة البشرية حسنة يفسدها المجتمع والحكومات والقوانين . وهذا الكتاب مع الأسف لم يطبع إلى الآن .

ولكن حياة فرح أنطون فى ذلك الوقت بترت ؛ لأنه وقع فى مناقشات تمس الدين مع الشيخ محمد عبده ، فبارت مجلته بعد الرواج . ورحل إلى القارة الامريكية حيث اشتبك فى خصومات صحفية لم يكن القلم وحده أداة الرأى والحجة فيها ، فعاد مهزوماً إلى مصر .

وكان أثر فرح أنطون فى نفسى أنى أكبرت الأدب الأوربى إكباراً عظيما. ولم يكن هذا غريباً فى مثلى . فإن فرح أنطون استبدل بالماوردى عندى جان جاك روسو ، وحملنى على أن أستبدل بالكلمة الوضيئة والعبارة المذهبة أدب المبادئ والفلسفة والفكرة .

وعرفت فرح أنطون بعد ذلك حين اشتغلت معه فى جريدة اللواء ، وكانت جريدة الحزب الوطنى يرأسها المرحوم عثمان صبرى حوالى سنة ١٩١٠ ، فزادنى توجيهاً نحو الأدب الأوربى . وعاش فرح فى مصر إلى سنة ١٩٢١ حين توفى وهو فى الحادية والأربعين . وكانت وفاته نكبة على النهضة المصرية السياسية والأدبية . وكان من السوريين القلائل الذين اندغموا فى الحركة الوطنية المصرية اندغاما تاما . وكان سعد زغلول يحبه ويقدره . وزاره واصف غالى باشا وهو فى فراش المرض قبيل وفاته بمنزل أخته السيدة روزا حداد وقدم له تحية الوفد .

والآن أعود بالذاكرة إلى هذه الشخصية الفذة وأتساءل : ما مقدار ما ضاع منا بوفاته ؟

الحق أن ما فقدنا فيه عظيم فادح . فلو أنه عاش إلى أيامنا مثلا لطبع النزعات الأدبية والسياسية فى مصر بطابعه . ولعله كان يوجه الأدب المصرى هذه الوجهة الرومانتية التى آسف على أنه لا يتجهها الآن . لأننا على الرغم من كل جديد فى هذا الأدب ما زلنا نعيش فى أسر التاريخ بأدب أغلبه سلفى ، نفكر بمزاج سلفى فى لهجة سلفية . وأدبنا هو أبعد الآداب عن روسو ، بل لقد أصبحت حركاتنا الاجتماعية سلفية أيضاً .

وكان فرح أنطون بشرى النزعة والإيمان ، يؤمن بالإنسان ويكره الأساطير الغيبية بل يشمئز منها . وكان يمتاز بالذهن الاستطلاعى يرود كل جديد فى الثقافة الأوربية . فهو أول من كتب عن نيتشه . وأظن أنى أنا كنت الثانى ؛ لأن أول مقال صحفى لى كان فى المقتطف سنة ١٩٠٩ بعنوان « نيتشه وابن الإنسان » وقد وصلت إلى نيتشه مستقلا وأنا بأوربا .

ولذلك عقب عودتى من أوربا واتصالى به كنت لا أجد موضوعاً أختلف فيه معه . وكنا نتحدث عن الاشتراكية والنزعات الأدبية الجديدة والسياسية فى مصر ، فنكاد نتفق فى كل شىء حتى فى العقيدة الدينية .

***

وفيما بين سنة ١٩٠٧ وسنة ١٩١٠ ظهرت قوة جديدة فى مصر لها أثر آخر فى توجيهى النفسى ، وكانت هذه القوة أحمد لطفى السيد . ففى تلك السنين كانت الوطنية المصرية فى طور اليرقة لم تنسلخ بعد إلى الجسم الحى الكامل . وكانت

عرضة لأخطار شتى وتطوحات مختلفة . وحسب القارىء أن يعرف أن كلمة « وطنية » ليست عربية ، وأننا سككنا هذه الكلمة كى نعبر عن وجدان جديد . ذلك أن مصر فى بداية هذا القرن كانت لا تزال فى أسر الماضى . وكانت الدولة « العثمانية » هى دولتنا التى كنا نكافح بها الأمبراطورية البريطانية . وكان بيننا متنبهون تعلموا فى المدارس الفرنسية او نبهتهم الحوادث وأيقظت فيهم وجداناً وطنيا ، فلم يكونوا يسيغون منطق اللواء والمؤيد فى الدفاع عن استقلال مصر بحق الأتراك فى سيادتها . وكان الأقباط ينفرون من هذه الوطنية العثمانية نفوراً عظيما.

وظهر لطفى السيد فى الجرائد يدافع عن هذه البديهية الواضحة ، وهى أن مصر يجب أن يملكها المصريون دون الأتراك ودون الإنجليز. ووجد فى الأول مصادمة قوية من الكتاب الذين ألفوا الدعاية للأتراك . ولكن سرعان ما انتصر وظفر بالرأى العام فى مصر . ووجد الأقباط منطقاً فى هذه الوطنية كما وجد المثقفون فيها أملا جديداً يعبىء الأمة للإصلاح والتجديد فأقبلوا على الجريدة وشغفوا بمقالات لطفى السيد .

وكثير من القراء فى أيامنا ، أى بعد نحو ٣٥ سنة من هذه الحركة ، لايعرف مقدار هذه الحركة وفضل أحمد لطفى السيد فيها. ذلك أننا جميعاً قد اعتنقنا هذه الوطنية الجديدة ، وطنية مصر للمصريين ولم نعد نعرف غيرها . ولكن على القارىء أن يذكر أن الدولة « العثمانية » كانت شيئاً أكبر من تركيا الحاضرة . وكانت إمبراطورية شاسعة لها جيوش وموظفون فى اليمن والحجاز والعراق وطرابلس . وكانت الرحلة السنوية إلى استامبول أو كما كان يسميها الصحفيون وقتئذ « دار السعادة » لا تقل فى عدد المسافرين المتنزهين عن الرحلة إلى باريس . وكان حبل الدسائس لا ينقطع بين القاهرة واستامبول . ولكنه مع ذلك كان واهيا ، كما كانت هذه الدسائس عقيمة .

وكان لطفى السيد وعبد العزيز فهمى وقاسم أمين جيلا جديداً فى مصر بعد الجيل الذى كان منه الأفغانى ومحمد عبده . وكان هذا الجيل أكثر جرأة . ولذلك نجد أن قاسم أمين يدعو إلى سفور المرأة وإلغاء الإعراب فى اللغة . ولطفى السيد يدعو إلى العامية . كما نجد عبد العزيز فهمى يدعو إلى الخط اللاتينى . وقد حفظ هذا الأخير شبابه الذهنى إلى ما بعد السبعين . وهو يعانى الآن من هذا الشباب عنتاً من خصومه أولئك الشبان الذين شاخوا قبل الأوان .

والواقع أن لطفى السيد مهد لحركة سنة ١٩١٩ بجمع الأمة على رأى موحد فى الوطنية ، كما أنه جعل التجديد مساغاً لا يتهم القائمون به بالهوج أو الرعونة . بل أصبحت الدعوة إلى حرية المرأة وتعليمها شيئاً وقوراً محترماً ، واحتُرِمت «الجريدة» بعد أن كانت موضوعة للنكات البذيئة .

وقد سبق أن قلت إن أسلوب المقتطف كان علميًّا مقتصداً وإنى أخذت عنه ما أسميته « الأسلوب التلغرافى » . ولكن أسلوب لطفى السيد كان موجزاً مقتصداً أيضاً . وهو أشبه الأساليب بأسلوب ابن المقفع . وأظن أنى تأثرت به أيضاً .

وقد كان هؤلاء الثلاثة : يعقوب صروف ، وفرح أنطون ، ولطفى السيد ، من القوات التى صاغت شخصيتى الثقافية الذهنيــة . فإن الأول وجهنى إلى طريق العلم . والثانى بسط لى الآفاق الأوربية للأدب . والثالث جعل من المستطاع لى ، بوصف أنى غير مسلم ، أن أكون وطنيًّا فى مصر .

سلامه موسى

كتاب تَنْسر

١

يشير كتاب دينكرت (نص پهلوى من القرن التاسع الميلادى) إلى تنسر ويلقبه بلقب هربدان هربد أى كبير رجال الدين ، وهو الموبد الكبير الذى أمره أردشير مؤسس الأسرة الساسانية ، بجمع ما تفرق من نصوص الأفستا ويسطر ما بقى منها فى صدور المؤمنين ، بعد أن أحرق الإسكندر المقدونى ما لقى من نسخها ، وبعد فوات ما يقرب من ستة قرون من حكم السلوكيين وملوك الطوائف لم يكن للدين الزردشتى أثناءها شأن يذكر . وقد لقب تنسر بعد أن جمع شتات نصوص الأفستا برجل الدين القديم .

وقد أشار المسعودى (حوالى ٣٤٦/٩٥٧) فى كتابيه « التنبيه والإشراف » و « مروج الذهب » إلى تنسر ، فقال إنه كان موبد أردشير والداعى إليه والمبشر بظهوره ؛ ثم يقول إنه كان أفلاطونى المذهب من أبناء ملوك الطوائف ، أفضى ملك أبيه إليه بأرض فارس فزهد فيه . ثم يحدثنا المسعودى عن نشاط تنسر لتمكين أردشير من ملوك الطوائف وتوحيد إيران وجعلها دولة واحدة يحكمها ملك واحد ، وتدين بدين واحد ؛ وقد نجح فى سعيه ، واستظهر أردشير ، بعد أن وطأ له تنسر الأمر ، على جميع ملوك الطوائف . ثم يشير المسعودى إلى « كتاب تنسر » ، وهو موضوع المقال ، فيقول :

ولتنسر رسائل حسان فى أنواع السياسة الملوكية والدينية ، يخبر عن أردشير وحاله ، ويعتذر عنه عما فعل فى ملكه من أمور أحدثها فى الدين والملك لم تعهد لأحد الملوك قبله . وذكر المسعودى قطعة من هذا الكتاب .

٢

نقل ابن المقفع كتاب تنسر هذا من اللغة البهلوية إلى اللغة العربية ، كما ترجم إلى هذه اللغة كليلة ودمنة وخداى نامه من قبل . وقد نقل المسعودى والبيرونى عن ترجمة ابن المقفع هذه .

ولكن ترجمة ابن المقفع العربية لكتاب تنسر ضاعت ، أو لم يُعثر عليها حتى الآن . ولكنها وجدت كاملة باللغة الفارسية ، فقد حفظها ابن اسفنديار فى مقدمة كتابه « تاريخ طبرستان » . كان هذا المؤرخ الفارسى ينقب عن الوثائق الخاصة بتاريخ بلاده ، فأمضى فى خوارزم خمس سنوات ، يبحث فى مكاتبها ، فعثر فى دكان ورّاق على النسخة العربية لكتاب تنسر بقلم ابن المقفع فنقلها كاملة للغة الفارسية (حوالى سنة ٦٠٦/١٢١٠) .

٣

ويسائل المؤرخ عن صحة نسبة هذا الكتاب لتنسر ، موبد أردشير . ذلك أنه إذا صحت هذه النسبة ، فان الكتاب يعتبر أقدم نص تاريخى عن الدولة الساسانية ، فيلى فى الأهمية نقش رستم ، وتكون له الأفضلية على الأفستا نفسها ، لأنه يكون سابقاً عليها — إذا عرفنا أن الأفستا الحديثة دونت رسميا فى عهد الملوك من بعد أردشير (أيام شاپور الأول ٢٤١ — ٢٧٢ م وشاپور الثانى — ذو الأكتاف — ٣١٠ — ٣٧٩ م) — . والذى لا شك فيه أن ابن المقفع زاد على النص البهلوى بعض عبارات لا يصعب تمييزها ، كآيات القرآن ، ونبذ الإنجيل والتوراة ، والأقوال المنسوبة للإمام على ، كما أنه زاد قصة مأخوذة عن كتاب پنج تنترا . ولكن ابن المقفع لا يمس جوهر الكتاب حين يضيف هذه الزيادات ليفيض على ترجمته من الجدة ما يناسب القارئ المسلم للكتاب . أما الموضوعات الأساسية فتؤيدها الشواهد التاريخية ، والنصوص البهلوية الأخرى التى تناولت نفس الموضوع ، وهى تؤيد صحة نسبة الكتاب إلى تنسر موبد

أردشير . ويرى كريستنسن أنه كتب أيام أنوشروان ، وقد رددنا على رأيه هذا فى تعليقاتنا على كتابه تاريخ الساسانيين . والنسخة التى ترجم عنها ابن المقفع مذكور فيها أنها منقولة عن بهرام بن خورزاد عن أبيه منوچهر عن علماء فارس . ولا نجد إشارة إلى تاريخ بهرام هذا . ومهما يكن فإنه إما أن يكون فارسيا عاش فى الإسلام ، أو ساسانيا عاش قبل الفتح الإسلامى . وعلى الفرض الأول فإنه يكون فى العصر الذى كانت اللغة البهلوية حية فيه ، أى قبل وفاة ابن المقفع .

٤

والكتاب يحتوى على رسالة كتبها تنسر ، يرد بها على رسالة وجهها إليه ملك طبرستان جُشْنَسْف شاه ، يأخذ فيها على أردشير سلوكه فى بعض المسائل ويسأل تنسر النصح .

وتحوى المقدمة حديثاً عما ألمّ بإيران حين أتيح للإسكندر أن يغلب دارا ويحتل بلاده ويحكمها ، وكيف قُتل دارا بيد جماعة من خاصته ، فأتى بهم الإسكندر وأمر بشنقهم ليكونوا عبرة لمن تحدثه نفسه بالاعتداء على ملكه . ثم يتحدث عن الإسكندر وقد استقر له الأمر فى إيران ، فأمر بدعوة عظمائها وكبرائها ، فأتوا جميعاً لحضرته ، فلما رآهم تذكر ماسمع عن قوتهم وثرائهم ، فأخذ يفكر فى أمر البلاد التى فتحها ، وفى المستقبل الذى ينتظره ؛ فكتب إلى معلمه أرسطو يحدثه عما جال بخاطره من قتل أمراء إيران وعظمائها حتى لا تحدثهم أنفسهم بالثورة عليه وطرد رجاله من ديارهم والإغارة على بلاد الروم ، إذا هو فكر فى ترك إيران ليغزو الهند والشرق الأقصى . فرد عليه معلمه أرسطو ينهاه عن فكرته ، ويؤكد له أن أسوأ ما ينتاب الإدارة فى بلد ما هو أن يتولى أمورها شرارها وأن يمحى من الوجود خيارها ؛ فإن فى كل أمة عنصراً ممتازاً بفضائل تختلف عن فضائل العناصر الممتازة فى البلدان الأخرى . وقد امتاز أمراء إيران بالشجاعة والجرأة والحذر ، فإذا قضيت عليهم فقد أعدمت خير من فى إيران ، وسلمت الأمور لمن لا يقدرونها قدرها ، فيكونوا عبئاً عليك . والخير أن تستبقى الأمراء والعظماء ، وأن تجعل منهم آلات لك فى حكم البلاد ، على أن

يتقربوا جميعاً منك، ويتفرقوا أشتاتاً فيما بينهم، وليس بلوغ ذلك بعسير. عليك أن تولى كلا منهم إمارة صغيرة، وتتوج كلا منهما فى إمارته. وإذا الأمير رأى نفسه وقد علا التاج مفرقه، فثق أنه لن تحدثه نفسه بشيء غير الاحتفاظ بتاجه وعرشه فى ظل حمايتك. وسوف يتنافس هؤلاء الملوك الصغار ويدب الخلاف بينهم، ويتنابذون على سعة السلطان والثراء، ويتشاحنون على ما بينهم من تفاوت فى الذكاء والمكانة منك، ولن يفكر أحدهم فى غزو بلادك. وحينئذ يخلو لك الجو، فتذهب حيث شئت فاتحاً، وأنت هادئ البال، مطمئن الخاطر.

فلما بلغ الإسكندرَ جوابُ أرسطو عمل بنصحه، وقسم إيران بين الأمراء، وكان نظام ملوك الطوائف.

وذهب الإسكندر للغزو، ثم عاد إلى بابل حيث مات؛ فتفرق جنده، وأخذ كل من ملوك الطوائف يعمل على رأس مملكته الصغيرة، وكلما أحس أحدهم بالقوة أغار على المستضعفين من جيرانه. وكانت إيران تقاسى من ويلات هذه المنازعات كثيراً من الآلام. ثم إن الاسكندر قد أحرق الأفستا وهدم كثيراً من بيوت النار، كما اضطهد رجال الدين الزردشتى فى عهده وفى عهد ملوك الطوائف. وظل الحال كذلك إلى أن قام أردشير بن بابك بن ساسان ليوحد إيران، إقليما ودينا.

وفى ذلك الوقت كان اردوان ملكا على العراقين وماه (ماه نهاوند وماه بسطام — مادا) وماسباذان وقزوين وسمنان. وكان اردوان هذا أقوى ملوك الطوائف وأبعدهم نفوذاً، فقاتله أردشير وقتله وأسر ثمانمائة من الأمراء من أبناء خلفاء الإسكندر. وكان على طبرستان ملك من أقارب أردشير اسمه جشنسف شاه، ملكَ فرشودجر وطبرستان؛ وكان أردشير يعامله برفق واحترام لأن آباءه من نبلاء إيران الذين استخلصوا بلادهم من أتباع الاسكندر، فلم يرسل إليه جيشاً، وذلك حرصاً على مودته. وبعد مقتل أردوان، لم ير جشنسف شاه بداً من الاعتراف بأردشير ملكا أعلى لإيران كلها. وكان تنسر يعمل وزيراً عند أبيه، فكتب إليه يسأله النصح، وينتقد سياسة أردشير فى أمور دينية وسياسية واجتماعية؛ فكتب إليه تنسر ينصحه بالمثول فى بلاط أردشير، ويرد عليه شارحاً ما أشكل عليه من سياسة أردشير فى إصلاح أمور الدنيا والدين.

٥

بدأ تنسر كتابه شاكراً للملك جشنسف ثناءه عليه ، فإنه سعيد من يظفر بثناء مثله من عظماء الملوك . ثم يذكّر الملك بأنه قد ترك متاع الدنيا وزهد فيها منذ خمسين سنة ، فهو يعيش محروماً من الزوج والأولاد ، كأنه لا بيت له ، وذلك ليعرف الناس جميعاً أنه قد تجرد من الهوى وكرّس حياته كلها لخدمة إيران وملكها ، فلا يتسرب لنفس أحد أنه يتصرف عن هوى أو ينصح عن غرض فى نفسه . ويذكّر الملك بأن والده كان يثق به ويستمع لنصحه مع ما كان له من عظيم التجارب بعد أن حكم طبرستان ثمانين سنة ، ثم يؤكد أنه ، فى زهده لا يستند إلى أصول من عنده ، إذ كيف يجرؤ على مهاجمة الدين ويحرم ما أحله من النساء والخمر والشهوات ! فإن تحريم الحلال أشد كفراً من إباحة الحرام ؛ إنما أستند فى سلوكى ونصحى إلى قواعد أخذتها عن الحكماء الأذكياء الذين تعلموا من كبار رجال الدين منذ أيام دارا ، وقد آثروا ، منذ رأوا الفساد يدب فى الأرض ، العزلة ومجانبة الأشرار .

وبعد أن ينصح الملك بأن يسرع فيقدم فرائض الطاعة لأردشير ، وليتسلم منه التاج والعرش ، يتناول بالبحث عدة مسائل ، أهمها : حقوق الملوك ، وتدوين الأفستا ، ونظام الطبقات ، وقانون العقوبات .

٦

حقوق الملوك

يعيب جشنسف شاه على أردشير أنه يطلق لقب ملك على غير الملوك من أقاربه وأنه وضع قواعد للوراثة وبقاء النسل قد لا تحفظ الدم الملكى من التلوث ؛ وأنه لا يريد أن يعين أميراً من بيته يخلفه على عرش إيران .

١ — فأما عن الأمر الأول فإن أردشير قد وضع قاعـدة وهى ألا يخلع على أحد من الولاة لقب ملك إلا أن يكون من البيت الساسانى ، واستثنى من ذلك

أصحاب الثغور وحكام آلان ومناطق الغرب وخوارزم ؛ على ألا يكون الملك وراثياً فيهم ، كما هو الحال فى الوظائف الأخرى . ولكن ملك كرمان ، قابوس ، قد أتى إلى أردشير خاضعاً طائعاً ، فرأى أردشير أن لايحرمه من ملكه ، فسمح له بأن يلقب «ملكا» ، وتوّجه بنفسه . ولكى يشجع الأمراء من ملوك الطوائف على الاستسلام والخضوع ، جمعاً للشمل وحقناً للدماء ، أعلن أنه سالك مع من يخضع منهم سلوكه مع قابوس . وقد وضع أردشير بعد ذلك قاعدة تقضى بأن على الملوك أن يكونوا فى خدمته دائماً ، من غير أن تكون لهم وظائف معينة فى البلاط . وحكمة ذلك أنهم لو وظّفوا لجرى عليهم ما يجرى على سائر الموظفين من المنافسة التى قد تؤدى عند ضعاف النفوس إلى الدسيسة والوقيعة ، وبذلك تضيع هيبتهم ، وهو ما لا يريده لهم الملك أردشير .

٢ — وأما عن الأمر الثانى فإن أردشير وضع نظاماً للميراث خاصا بالملوك ، فاشترط أن يكون أبدال أبناء الملوك أبناء ملوك مثلهم ، وأبدال أبناء الأمراء أبناء أمراء أيضاً . وهكذا ميزهم عن بقية أفراد الشعب . فإن الرجل العادى إذا مات بلا ولد ، وكانت له زوجة ، زُوّجت هذه من أقرب أهله له أو لأحبهم إليه ، وكذلك لو ترك بنتاً . فإذا مات بلا زوجة أو بنت ، اختيرت إحدى جواريه وزوجت بأقرب أهله إليه ؛ والأولاد الذين ينجبهم هذا الزواج يعتبرون أبناء للميت ، وذلك حتى لا ينقطع نسله (٢١ مينوى) .

فاشتراط المُلك أو الإمارة فى الابدال بالنسبة للملوك والأمراء يحفظ دم هؤلاء سليما غير ملوث باختلاطه بدم أحد من الجوارى أو أفراد الشعب .

٣ — أما عن الأمر الثالث وهو أن أردشير لم يعين له خلفاً من الأمراء ، فإنه أقدم على هذا لأسباب كثيرة ، أهمها أنه يخشى أن يضعف حب وارثه له بسبب رغبته فى العرش ، حتى إنه قد يفكر فى موته . ثم إنه قد يكون الأمير المعين هدفاً للأعداء ، إذا ما عرفوا فيه قوة الإرادة ومضاء العزم .

على أن أردشير لم يقرر هذه القاعدة لكى تكون واجبة الاتباع ، فقد يعدل عنها فى المستقبل . وينص تنسر صراحة على أن رجال الدين قد أرادوا أن يكون الملك بعيداً عن اختيار ولى عهده ، وقد عدل عنها أردشير فعلا ، وعين ولده من بعده .

أما الطريق الذى رسمه أردشير فهو أن يودع الملك ثلاث وصايا عند كل من

كبير الموابذة (موبدان موبد) ، وكبير الكتاب (دبيران دبير) ، وكبير رجال الجيش (إيران سپهبد) . فإذا مات اجتمع ثلاثتهم ، وتشاوروا وفضّوا الوصايا ، فإن اتفق رأى الآخيرين مع الأول ، أعلن اسم الملك الجديد . وإذا اختلفا معه ، انفرد هذا (كبير الموابذة) مع رجاله من الهرابذة والزهاد فى خلوة ، وأخذوا يرتلون ويزمزمون بالأدعية ، ومن ورائهم أهل التقوى والصلاح ، فى خشوعهم وتضرعهم ، يقولون آمين . فإذا فرغوا من صلاة المغرب ، اعتُمِد الملك الذى أُوحىَ إلى كبير الموابذة باسمه . وفى هذه الليلة يؤتى إلى قاعة العرش بالتاج والسرير ، ويحضر أرباب المناصب والمراتب ، فيجلس كل منهم فى مقعده المعد له ، ويذهب الموابذة والأمراء إلى حيث الأمير الذى وقع عليه الرأى ، ثم يقفون صفًا واحداً ، ويقول الموبدان موبد : لقد استشرنا الإله العظيم فألهمنا وأرشدنا وأطلعنا على الخير ، ثم يرفع صوته قائلا : « إن الملائكة قد رضوا بمُلك فلان بن فلان ، فأمّرُوه على العرش أيها الناس وأبشروا » (٤٠ — ٤١ مينوى) . ثم يحمل العظماء الملك ويجلسونه على العرش ويضعون التاج فوق رأسه ، ثم يمسكون بيده ويقولون : « أَقبِلْتَ من الإله دينَ زردشت الذى ثبته كشتاسپ ابن لهراسب ؟ » فيقول الملك : « قبلت وسأعمل على إسعاد رعاياى » .

وبعد ذلك ينصرف الحاضرون إلى أعمالهم ، أما العظماء ورجال الدين فيبقون مع الملك .

ثم يذكّر تنسر الملك جشنسف بما أتم أردشير من إصلاح إيران ، إصلاحاً يوطد الأمن ويديم الرخاء بها ألف سنة .

٧

تدوين الأڤستا وعلوم الدين

وقد أخذ الملك جشنسف على أردشير أنه أمر بتدوين الأڤستا وما يتعلق بها من العلوم ، ويرى جشنسف أن فى هذا مخالفة لأمر الشريعة .

ويتحدث تنسر فى هذا الموضوع فيبين للملك أن هناك شريعتين ، قديمة وحديثة . أما الشريعة القديمة فهى العدل نفسه ، وقد ضاعت هذه الشريعة فى

أيامنا لضياع العدل ، ويصف الناسُ الرجلَ العادل — إذا وجد — بالجهل وقصر النظر . أما شريعة المحدثين فهي العنف والعدوان . وقد طال أمدها في الناس حتى إنهم لا يذكرون اليوم تفضيل العدل الذي فيه نفع لهم . وكلما أراد أحد من المحدثين أن يقيم العدل ، الذي هو الشريعة القديمة ، قالوا له إن الزمن فاسد غير ملائم ، وهكذا لم يبق للعدل أثر . وكذلك إذا أراد أردشير أن يهدم قاعدة ظالمة منذ القدم ، قالوا له قف فإنك تعتدي على قاعدة قديمة .

ولكن أردشير مؤيَّد من الإله ، وهو سائر قُدُماً لإصلاح الدين ، وسيهدم قواعد ويبني غيرها ، وهو في هذا خير ممن تقدمه من الأقدمين . ولو نظرت بعين الإنصاف والمعرفة الحقة للدين لما رأيت فيما يقدم عليه إخلالا بقواعد زردشت أو هدماً لها .

ثم يذكر تنسر أن الإسكندر حين استولى على اصطخر حرق الكتب الإيرانية المقدسة ، التي كتبت على اثني عشر ألف جلد من جلود الثيران ، ولم يبق في صدور الناس من هذه الكتب غير القصص والأحاديث . وقد امتد فساد الجيل وضياع الدين إلى هذه القصص والأحاديث بما في الناس من نفاق ونزوع إلى حب الشهرة ، فضاعت من ذاكرة الكثيرين منهم ، واختلطت بخرافات كثيرة في ذاكرة من يعونها . ولذا وجب أن يوجد ملك عادل أمين عامل على إحياء الدين . ولم يبذل ملك في هذا السبيل ما بذله أردشير .

وبضياع كتب الدين ضاعت السجلات التي دونت فيها أنساب الملوك والأمراء وتاريخهم وتقاليدهم ، وقد نسيها الناس نسياً تاماً . ويلفت تنسر نظر جشنسف إلى أنه نسي ما جرى في أيام آبائه من حوادث ؛ ثم يسأله كيف نحفظ أنساب الملوك وكيف نحفظ الدين وعلومه ؟ وقد كان الناس في الأزمنة القديمة يعرفون الدين معرفة كاملة ، ويتمسكون بقواعده تمسكا تاما ، ولكنهم كانوا دائماً في حاجة إلى ملك قوي عادل يفصل فيما يقع بينهم من منازعات إذا كان أمر الدين ليس واضحاً فيها ، فما بالك بهذا الزمان الذي نعيش فيه ؟ .

وبهذا يبرر تنسر إقدام أردشير على جمع الأفستا ، وإلحاق العلوم من تاريخ وطب وفلسفة بها ، وهو العمل الذي قام به تنسر نفسه .

٨

طبقات الشعب

ويعترض جشنسف على التقسيم الذى فرق به أردشير الناس إلى طبقات أربع، وهو يرى أن هذا التقسيم يخالف أوامر الدين .

ويرد تنسر على صاحبه مذكراً إياه بأن إيران خير بلاد العالم، وأنها من الدنيا الرأس، والسرة، وسنام الجمل، والمعدة. هى الرأس لأن أعظم الملوك فيها، وهم يسودون ملوك العالم، ويفضّون منازعاتهم بقوانينهم. وهى السرة لأنها تتوسط الأقاليم كلها، وسكانها خير البشر أمانةً وشجاعةً وتقوى، وإذا كان الله قد خص كل شعب بمزايا خاصة، فإنه قد خصنا بمزايا الشعوب كلها. وهى سنام الجمل لأنها تحوى من الخيرات أكثر من أى بلد. وأخيراً هى المعدة، لأن خيرات الدنيا تنصب فيها، كما يدخل الطعام والشراب إلى المعدة (٤١ مينوى) .

وقد انقسم هذا الشعب الإيرانى إلى أربع طبقات منذ القدم، وتجد النص على ذلك فى أكثر من موضع فى الأفستا. ولم يغير أردشير فى نظام الطبقات الذى قال به زردشت، إنما جعل تطبيقه أكثر فائدة فى حياتنا العملية، وقد جعل نفسه على رأس الطبقات الأربع التى تتكون من :

١ — الطبقة الأولى : رجال الدين، ومنهم المعلمون والسدنة والزهاد والحكام (القضاة) .
٢ — الطبقة الثانية : رجال الجيش، ومنهم الرجالة والفرسان .
٣ — الطبقة الثالثة : الكتاب؛ ومنهم الأدباء والمحاسبون وكتاب الأحكام وموثقو العقود والمؤرخون والشعراء والمنجمون .
٤ — الطبقة الرابعة : العمال، ومنهم الزراع والتجار والمبادلون وأهل الحرف المختلفة .

وهذا التقسيم لا يتعارض مع نصوص الأفستا التى تجعل الناس أربع طبقات : رجال الدين، ورجال الجيش، والزراع، والصناع. ويرى تنسر أن فى تقسيمه ضماناً للنظام العام .

وقد حُرم الانتقال من طبقة إلى طبقة ، إلا فى حالات استثنائية يبدو فيها الرجل ممتازاً وجديراً بأن يرتفع طبقة فوق طبقته . وكانت القاعدة أن يجتمع الموابذة والهرابذة ويمتحنون الرجل ويرقونه إلى الدرجة التى يستحقها ؛ إلى درجة الـكـتّاب إذا كان نابهاً فى العلوم ؛ وإلى طبقة رجال الجيش إذا كان نابغاً فى شئون الحرب ؛ وإلى طبقة رجال الدين إذا أبدى فى العلوم الدينية تبحراً وإحاطة تؤهلانه لأن يكون واحداً من رجال الدين .

وقد لجأ أردشير إلى التدقيق فى التفرقة بين طبقات الشعب لما رأى من اختلاط الأنساب واضطراب الأمور ، قبل أن يلى عرش إيران . فقد كان من نتيجة ضعف الملوك وتنابذهم أن هزأ الناس بهذا النظام الحكيم . وعند ما ضعف الُخلق ، وأهملت الشريعة سار الناس يخبطون بغير وعى ، واستعمل القوى العنف فانقض على جاره الضعيف ، وزال الشرف والأدب ، وظهر أناس من عامة الشعب لا ينتسبون إلى النبلاء ، ولم يكن لهم وظائف فى الدولة ، ولم يرثوا أملاكا عن آبائهم ، ولم يكونوا يعبئون بأصلهم ، أناس ممن لا صناعة لهم ولا حرفة ، ولـكنهم قادرون على السعاية بين الناس وإيذائهم ، يكذبون ويفترون ؛ وهم يتخذون من هذه الصفات وسائل للإثراء . وقد استطاع أردشير بما له من ذكاء ، وبما أوتيه من الحـكمة ، أن يضع كل رجل فى طبقته ، فأنزل أناساً ورفع أناساً ، وبهذا عادت الأمور إلى نصابها ، حسب أوامر الشريعة . وقد أتاح للأذكياء أن يرقوا إلى درجات أعلى .

ولـكى يحافظ الملك على النبلاء ، وضع تشريعات لم يسمع تنسر أن ملـكا أمر بمثلها . فقد وضع قواعد مادية لتمييز النبلاء عن عامة الشعب ، فجعل لهم مراكب عظيمة ، وملابس فاخرة ، وأسلحة ذات أبهة ، ومساكن وحدائق تمتاز عن مساكن وحدائق غيرهم ، وخص نساءهم بثياب الحرير وهكذا . . . ثم إنه قسم النبلاء أقساماً وميز كل قسم منهم عن الأقسام الأخرى ، وحرم على الرجل من النبلاء أن يتزوج بامرأة من طبقة أقل من طبقته ، وذلك لـكى يحفظ أنسابهم وطهر دمائهم ؛ وحرم على عامة الناس شراء أملاك النبلاء .

أما رجال الجيش فقد أعد لهم مكانة رفيعة ، وخصهم بكل أنواع الامتيازات . وبما أنهم يضحون بأنفسهم وبأموالهم فى سبيل الشعب وخيره ، فإنهم يحاربون أعداء الوطن ، فى الوقت الذى يكون فيه الشعب مستريحاً هادئاً آمناً ينعم

بالسكن المطمئن إلى بيته وأهله ، فقد أوجب أردشير على أفراد الشعب أن ينحنوا أمام رجال الجيش تحية وإجلالا إذا رأوهم . وعين معلمين (مؤدب الأساورة) يعلمونهم استعمال الأسلحة وآداب الحرب .

وقد أعد أردشير سجلا تقيد فيه أسماء أفراد كل طبقة ، ورتب لكل طبقة رئيساً يليه « عارض » وظيفته تعداد أهل الطبقة وإثبات أسمائهم فى السجلات ، يليه فى المرتبة « مفتش » ثقة يبحث عن دخل كل فرد ؛ يليه « معلم » عليه أن يعلم أطفال كل طبقة حسب درجتهم ، وذلك ليشب أطفال إيران على ما ينبغى أن تكون عليه حياتهم المستقبلة . وقد جعل أردشير لهؤلاء الموظفين أجوراً ثابتة .

وهكذا يطمئن كل فرد إلى مكانته فى بلاده ، ويتفرغ كل إلى عمله ، فلا يفكر فى الاعتداء على غيره أو عصيان ملكه ؛ فقد قال الحكماء . القلب الفارغ يبحث عن السوء (١٦ مينوى) .

٩

تعديل العقوبات

وقد أخذ جشنسف شاه على أردشير إسرافه فى إراقة دماء من يخالفون آراءه ولا يعملون بأمره ، ولكن تنسر بين له حقيقة الأمر فى ذلك :

كان الملوك القدماء أقل ميلا لسفك الدماء من أردشير ؛ لأن خلع الطاعة والانحراف عن السبيل السوى لم يكونا من طباع الناس ، فقد كان كل منهم منصرفاً إلى عمله ، لا يفكر فى خيانة ملكه وتدبير الثورة عليه . ولما انقضى عهد هؤلاء الملوك الذين حكموا الرعية الصالحة ، واضطربت الأحوال كما بينا ، لم يكن بد — لإعادة الأمن إلى البلاد — من الإسراف فى إراقة الدماء . فإسراف أردشير راجع إلى رغبته فى إصلاح ما فسد من الأمر ، لا إلى قسوة فيه (١٦ مينوى) .

على أن أردشير ، مع هذا ، يتصف بالرحمة والرقة ، وهو فى هذا يفوق بهمن واسفنديار .

ويذكر تنسر أن الجرائم ثلاثة أنواع :

١ — الأولى جريمة الفرد ضد الإله ، حين يرتد عن الدين الصحيح ، ويحدث فيه البدعة .

٢ — الثانية جريمة الفرد ضد الملك ، حين يتمرد عليه أو يعلن العصيان والطغيان .

٣ — الثالثة جريمة الأفراد فيما بينهم ، فيظلم بعضهم بعضاً ، بالقتل أو السرقة أى باعتداء على الأنفس أو على الأموال .

وفى هذه الحالات سن الملك تشريعاً أرقى من التشريعات التى سنها من سبقه من الملوك (١٧ مينوى) .

فقد كان مرتكب الجريمة الأولى — فى العصور القديمة — يقتل فى الحال . فجاء أردشير وأمر بأن يحبس المتهم ثم يتصل به رجال الدين فى سجنه ، ويحاولون هدايته ونصحه ، وذلك مدة سنة كاملة ، فإذا تبدد الشك من نفسه وتاب ، عفا الملك عنه وأطلق سراحه . أما إذا أبى إلا الضلالة وأصر على الكفر ، فإنه يقتل .

ولا شك أن هذا التعديل فى العقوبة أجدى على المجتمع من القتل الوحىّ من غير إقناع المجرم بخطئه ، وإعطائه فرصة الإيمان بعد الكفر .

أما الجريمة الثانية فقد كانت القاعدة أن يقتل مرتكبها ، ولا يعفى عنه ، مثله كمثل الهارب من القتال . فجاء أردشير وأمر بألا يقتل جميع الخارجين عليه ، إنما يقتل منهم العدد الذى تتحقق به العبرة والعظة للآخرين ممن قد تحدثهم نفوسهم بالخروج عليه ، ويترك الباقون فى السجن ليأملوا فى عفو الملك ، وهكذا يظلون بين الفزع من القتل والأمل فى العفو . وهذا التعديل أصلح للمجتمع .

أما الجريمة الثالثة فقد جرى العرف فى الأزمنة القديمة بضرب الضارب وقطع يد السارق والغاصب ، وأن تكون الجروح قصاصاً . فكان المجنى عليه لا يستفيد شيئاً ، وأما المجتمع فيضار بإلقاء عضو أشل فيه فيبقى عالة عليه . فجاء أردشير وسن الغرامة أولا ، فإذا عاد المجرم مرة أخرى فإنه يحكم عليه ببتر عضو فيه ، بشرط أن يفضحه دون أن يقعده عن العمل ، كبتر الأنف أو الأذن مثلا .

وقد أمر آردشير ببسط هذه القواعد فى القانون المدون ليعمل بها القضاة . وقد قسم الناس من حيث تطبيق العقوبات إلى ثلاثة أقسام ، وجعل لكل قسم سياسة خاصة به :

١ — القسم الأول ، طبقة الخاصة ، وهم الصالحون — وهم قليلون — وسياستهم المودة الخالصة .

٢ — والقسم الثانى ، طبقة الأشرار وأهل السوء — وهم كثيرون — وسياستهم المخافة الصرفة .

٣ — والقسم الثالث ، طبقة العامة — وهم لا يحصون — وسياستهم الجمع بين الرغبة والرهبة ، فلا أمن حتى لا يطمعوا ، ولا رعب حتى لا يجزعوا ، فيقتل الجانى منهم ، وقد تكون جريمته أكثر استحقاقاً للعفو ، وأحياناً يعفى عن القاتل منهم وقد تكون جريمته أدنى إلى الإعدام .

وهكذا عدّل أردشير قانون العقوبات ، وجعله ملائماً لروح العصر ، متمشياً مع مصلحة المجنى عليه وغير ضار بالمجتمع ، وجعل هدفه إصلاح المجرم ليصبح مواطناً صالحاً (١٨ مينوى) .

١٠

وقد عنى العلماء من المستشرقين والشرقيين بكتاب تنسر هذا ، فنشره دارمستتر ونقله إلى اللغة الفرنسية . ولكن النسخة التى اعتمد عليها لم تكن كاملة . ثم جاء مينوى ، العالم الإيرانى ، فنشر الكتاب بعد أن وجد منه نسخة كاملة . ولكن أحداً من العلماء لم يعثر على النسخة العربية التى ترجم عنها ابن اسفنديار إلى الفارسية . وإنا لنرجو أن يتاح لنا أن ننقل إلى اللغة العربية هذا الكتاب ، آملين أن يجد فيه العرب عوضاً عن كتاب ابن المقفع المفقود .

يحيى الخشاب

تذكار من القدر

كنت أسكن ضاحية المعادى ، تلك الضاحية المتأنقة المتعالية على غيرها من الضواحى ، المزهوة بشوارعها التى تزين جوانبها الأزاهير اليانعة المتباينة الأجناس والألوان ، وقصورها الفخمة التى تشهد بأرستقراطية سكانها ، وهدوئها الشامل الذى يبعث إلى النفوس الاطمئنان والسلام.

ظلت « الفيلا » المقابلة لمسكنى خالية طوال شهرين. حتى إذا كان أحد الأيام دبت الحياة فيها ، وألفيت نوافذها كلها مفتوحة ، والخدم يذهبون ويجيئون بين أرجائها ، يزيلون ما علق على جدرانها من غبار ، ويغسلون أرضها . ولم تمض أيام قلائل حتى هيئت الفيلا وأثثت وحل بها الساكن الجديد .

وبدا لى جليًّا أن الأسرة الجديدة التى سكنت الفيلا واسعة الثراء . تنبئ عن ثرائها السيارة الأنيقة اللامعة السوداء التى أقلّتها ، والرياش الفاخرة الوثيرة التى أثثت بها الدار ، وكثرة الخدم مع أن أفراد الأسرة لا يزيدون عن ثلاثة أشخاص : ربها ، وهو رجل نيف على الأربعين جميل الهندام فى غير تأنق ، صبوح الوجه ، لم أره قط إلا ضاحك السن ، معتدل القامة ، موفور الصحة . وزوجته ، وهى سيدة متحفظة وقور ، أو هى من ذلك النوع الذى أصبح نادراً فى هذه الأيام . لم أرها قط عند نافذة ، أو فى الحديقة ، وأحياناً كانت تقلها السيارة وتمضى بها بعض الساعة ثم تعود . ثم ابنتها ، وهى لم تتجاوز السابعة عشرة ، ذات جمال عذب رقيق غريب ، ضاحكة مرحة ، لم أر قط من تماثلها مرحاً . كنت أراها طوال الوقت فى صحبة أبيها ، لا تفارقه ؛ فهى معه فى الحديقة ، يتنقلان بين أرجائها ، وقد تتركه فجأة لتعدو إلى زهرة تقطفها وتعود لتضعها فى عروة ردائه وهى تنظر إليه ضاحكة ، وهو ينظر إليها فى حنان وحب . وفى العصر كانا يلعبان « التنس » فى حلبة خلف الدار ، وكانت الغلبة لها كل مرة ، أو كان أبوها ينهزم لها ؛ فالمرأة تكره أن تغلب ولو كان غالبها أباها .

كانت من تلك الاسر السعيدة الهنيئة التى لا تجدها كثيراً فى هذه الأيام التى أصبح فيها معنى الأسرة والدان وأولادهما يسكنون بيتاً واحداً لا يأوون إليه إلا فى فترات قليلة ، ولا يجتمعون إلا نادراً ، فاذا اجتمعوا قام بينهم النزاع والعراك . ولم يكن الرجل من أولئك الذين يصرفون أوقاتهم بعيداً عن بيوتهم . وسيدة الدار محتشمة لا تعرف غير زوجها وابنتها . وهذه الجميلة الضاحكة المرحة لم تكن من الفتيات العصريات إذا فهمت من العصرية أن تكون للفتاة علاقات ومغامرات .

وكانت هذه الأسرة تقضى سهراتها فى حديث رقيق فيه عطف وحنان ؛ أو يستمع الوالدان إلى عزف ابنتهما على البيان . وهى عازفة بارعة ، عزفها ساحر فتان .

لم يكن طاهر بك — رب الأسرة — من عشاق العزلة والعزوف عن الناس ، كان يبتسم لكل من يمر به من الجيران ، ويحييه أجمل تحية . ولعل هذا ما شجعنى على التقرب إليه ؛ وهناك شىء آخر هو تلك الجاذبية التى تميزه ؛ فهو من أولئك الذين تحس بالميل إليهم ، حين تراهم لأول مرة ولا تملك إلا أن تحبهم . وهكذا لم تمض بضعة أسابيع على قدومه حتى أصبحنا صديقين .

كان كثيراً ما يأتى لزيارتى ، فيصرف ساعات طويلة بين الكتب فى مكتبى ، إذ كان معجباً بمجموعة من الكتب فى الموسيقى ، وكان شغفه بالموسيقى عظيما . وكنا نقضى سهراتنا فى بيته نتحدث ، وأكثر ما نتحدث عن الأدب والفن . وكانت سميرة ابنته لا تفارقنا فى هذه السهرات . كان يلذ لها أن تقف منحنية على أبيها وتلف ذراعها حول كتفه وتضع رأسها إلى جانب رأسه . وسرعان ما ألفتنى هذه الفتيّة الحسناء ، التى كانت كزنبقة عاطرة ، فأقبلت تحادثنى فى غير كلفة من أول يوم رأيتها فيه . وبدا لى فيها شذوذ ، ولكنه شذوذ حبيب جميل .

وكان أبوها لا يكف عن النظر إليها ، نظرات كلها حب وعطف . . . لكم أثار هذا الحب الأبوى فى نفسى غيرة مكتومة . وساءلت نفسى فى حدة : لماذا لم أكن أنا أيضاً أباً لى أولاد أحبهم مثل هذا الحب ؟

سألنى طاهر بك يوماً :

— لماذا لم تتزوج ؟

ولم أتردد فى أن أجبته قائلا :

— لا أعرف ! . . وأعترف أنى طالما رددت على نفسى هذا السؤال وقد

بلغت الثامنة والثلاثين ولما أتزوج . . . ولعلى نسيت أن أتزوج . فقد مر شبابى ، كما مر شباب غيرى من الناس بين عبث ولهو دون أن أفكر فى الزواج .

وضحك طاهر بك كثيراً ، وأطلقت سميرة ضحكة كرنين أجراس فضية ، ثم تركتنا وخرجت تعدو من الغرفة . والتفت إلى الرجل وقال :

— لعلك تعجب من حبي لهذه الفتاة ، ذلك الحب الذى يفوق ما عرفت من حب الآباء لأولادهم !

— الحق أن ما رأيته من حبك الفياض لها أدهشنى كثيراً ... بل أثار غيرتى ، وجعلنى أفكر فى حرمانى عاطفة الأبوة !

— إن لهذا الحب الأبوى الذى أدهشك أمره ، قصة من أعجب قصص غرائب القدر ! وأطرق مفكراً ، كأنما يستجمع ذكريات طوتها الأعوام . وارتجفت أهدابه قليلا ، وخيل لى أنى أرى دمعة تترقرق فى عينيه . فقلت له فى صوت خافت :

— أهو سر دفين ؟

— كنا نعده سرًّا فى عهد الشباب ، وما كنا نهمس به إلا فى آذان الشباب ! أما الآن فلم تبق منه إلا ذكريات ، بل إن زوجتى تعرف الأمر كله .

وسكت قليلا ثم قال :

— سأقص عليك الأمر ، فاستمع إلى :

وأنا فى العشرين من عمرى كنت طالباً بمدرسة الحقوق ، وكنت أسكن « بنسيون » بشارع سليمان باشا ، إذ كان والدى بحكم وظيفته يقيم بالإسكندرية .

اخترت هذا « البنسيون » معجباً بنظافته ، وحسن ترتيبه ، وظرف صاحبته . وزدت به إعجاباً حين وجدت نزلاءه ظرفاء حسنى العشرة . كان أحدهم أمريكيًّا جاء إلى مصر فى مهمة تتصل بالشركة التى يعمل بها ، والآخر يونانيًّا جاء إلى مصر كغيره من اليونانيين ، وهو لا يدرى لماذا جاء ، ومع ذلك يجىء ، ثم يعمل ، ثم يكتسب أموالا طائلة ! ... وثالثهم ألمانى ، لا أدرى ولا يدرى أحد ماذا يعمل ، كان ينصرف مبكراً ، وهو يحمل محفظة أوراق لا تفارقه ، ويعود ساعة الغداء فلم نكن نراه إلا تلك الساعة ... ثم شقيقتان مجريتان ، كانت إحداهما تعلم البيانو ، والأخرى تعلم الكمان ، ومع ذلك لم أسمعهما قط تعزفان ، ولا تتحدثان عن الموسيقى . . . كانت الموسيقى فى نظرهما مهنة يتكسبان منها العيش . لم يبق من سكان البنسيون غير شيخ فرنسى كان يشتغل أستاذاً بإحدى المدارس الفرنسية .

كنا نلتف حوله أكثر الليالى ليحدثنا ، وكانت أحاديثه لا تنتهى ... ولعلى أطلت عليك الحديث عن البنسيون وسكانه ، وما أردت إلا أن أصور لك صورة كاملة لما كنت عليه فى ذلك العهد .

أحسست بميل نحو الأمريكى منـذ شاهدته أول مرة . ولاشك أنه أحس بمثل هـذا الميل نحوى ، فسرعان ما تآلفت روحانا . وسرعان ما فهم كلانا الآخر . وأصبحنا نقضى أوقات الفراغ معاً . ومضى العام وأنا سعيد بهذا البنسيون وبصحبة نزلائه . وقضيت إجازة الصيف بين والدىّ بالإسكندرية ثم عدت إلى القاهرة وإلى البنسيون وواصلت حياتى به كما كانت .

وفى أحد الأيام ، عدت إلى البنسيون عقب الدراسة ، وذهبت إلى غرفتى لأعدّ نفسى للجلوس على مائدة الغداء . ولم أكد أدخل الغرفة حتى اقتحم الأمريكى الباب ، وارتمى على المقعد وهو يلهث :

— اسمع ! ... ملاك هبط البنسيون !

— ملاك ؟

— نعم ! ملاك من السماء ، حل ضيفاً بيننا نحن الآدميين !

— أتريد أن تقول إن فتاة حسناء جاءت البنسيون ؟

— فتاة ؟ . . . إياك أن تنعتها بأى صفة من الصفات الآدمية . لا يمكن أن تكون الإنسانية قد سمت فجأة إلى هذا الجمال السماوى . . . والآن استعدّ لتراها ، ولـكن اجمع أطراف شجاعتك ، وتماسك !

— أتماسك ! . . .

— نعم ! قد يصعقك جمالها وأنت غير مستعد !

— كلا ! لا تخف . إنى لا أتصور الجمال إلا رقيقاً رحيما .

— صدقت ، فالجمال لا يؤذى ... ومع ذلك تماسك ، ولو على سبيل الاحتراس ، وخرجنا إلى القاعة الـكبرى .

ورأيتها ! . . . كان جمالها . . .

إن جميع ما فى معاجم لغات الدنيا من أوصاف للجمال والفتنة ، تبدو حقيرة تافهة عاجزة عن أن تعبر عن هذا الجمال السماوى الذى هبط هذا المـكان العادى فى القاهرة ، فشغل كل من كان به .

كان جميع نزلاء البنسيون ملتفين حولها ، يُصغون إليها مسحورين مأخوذين

وهى تحدثهم بصوت موسيقى عذب ، حتى الفرنسى العجوز الذى لم أره لحظة واحدة يكف عن الكلام ، كان يصغى إليها بكل ما فيه من حواس ، ويهز رأسه فتهتز لحيته الفضية . ورأيت الشقيقتين المجريتين تصغيان إليها مبتسمتين ولا أثر فى عيونهما للغيرة النسوية المألوفة ... حتى الألمانى جاء مبكراً ذلك اليوم على خلاف عادته ، وجلس بين الجماعة ، ولم يكن يجلس بينهم قبل اليوم ، وأقبل يصغى إلى الفاتنة الجديدة ، وعلى فمه العريض ابتسامة أعرض منه ، ومحفظته التى لم تفارقه لحظة تركها على مائدة بعيدة عنه . . .

ومنذ حلت هذه الفتاة — واسمها « نورا » — البنسيون ، انقلب كل نظام فيه رأساً على عقب ، واختلت مواعيد الطعام ؛ إذ أصبحت هذه المواعيد مرتبطة بحضورها ، وأصبح سكان البنسيون لا يجتمعون إلا إذا كانت هى موجودة . والكل راض عن هذا الاضطراب مسرور به ، حتى الألمانى كان مسروراً به أيضاً ، ذلك الألمانى الذى كان يتبع فى صحوه وخروجه وعودته وطعامه نظاماً مرسوماً محدوداً . وقد أهمل حذره الشديد فى مخالطة النزلاء فى البنسيون ، والتبسط فى الحديث معهم .

بعد ثلاثة أيام من حضورها ، كنت أنا وصديقى الامريكى راجعين إلى البنسيون ، فرأيناها فى المصعد ، واغتبطت بمرآنا كثيراً ، ثم أبدت لنا رغبتها فى مشاهدة أهرام الجيزة التى سمعت عنها كثيراً .

مضينا إلى الأهرام ، ووقع نظر « نورا » ، لأول مرة فى حياتها ، على هذا الأثر الضخم الشاهق .

وقفتْ فوق رمال الصحراء الوهاجة ، ووقفتُ أنظر إليها ، وهى تتطلع إلى الأهرام فى ذهول وإعجاب ، مفتونة بسحر هذا الأثر الغامض ، محدقة كأنما تخترق حجب الأسرار الكامنة فى جوف البناء العظيم ، كإلاهة خرجت من معابده تروى للناس قصة الأجيال الغابرة .

وانتقلنا إلى مشاهدة أبى الهول ، ووقفت ترنو إليه ، مأخوذة إعجاباً بهذا الرابض فوق الرمال منذ آلاف السنين ، وبابتسامته الساخرة الصامتة !

لن أنسى طوال حياتى ذلك اليوم الذى قضيناه بين الأهرام وأبى الهول ... ومنذ ذلك اليوم لم أفارق قط « نورا » ولم تفارقنى . كنت أحس شيئاً يجذبنى إليها ، فكنا نخرج معاً ، وكنا نجلس على مائدة الطعام متجاورين ، وتدعونى إلى

قضاء السهرة معها . ورأى زملائى فى البنسيون كل ذلك ، فكانوا يبتسمون لنا فرحاً بسعادتنا ، وكان الامريكى أشدهم اغتباطاً وسروراً .

وعرفت « نورا » من أحاديثى عن الموسيقى شدة حبى لهذا الفن ، فأخذتنى من يدى إلى البيانو وهى تقول : سأسمعك موسيقى لا شك ستحبها .

لم أسمع فى حياتى مثل هذا العزف الرائع . كانت أصابعها العاجية الشفافة تجرى فوق مفاتيح المعزف ، حيناً فى خفة وسرعة ، وحيناً فى بطء ونعومة ، وتنطلق الأنغام أحياناً مرحة جذلة ، وأحياناً كأنات قلب متوجع . عزفت لبيتهوفن «سوناتا» ضوء القمر ، ثم «بالاد» من شوبان ، وأخيراً «رابسودى هونجرواز » لليست . لقد شعرت كأنى أحلق على أجنحة غير منظورة فى أجواء متباينة مختلفة ، هادئة حيناً ، وصاخبة أحياناً ، وأسمع آناً تغريد العصافير ، ثم يدوى الرعد فيصم الآذان ، وأمر فوق حقول الزهر ، وأخترق شم الجبال .

لقد سمت فى عزفها إلى عوالم من خلق أولئك الفنانين العظام .

مرت بى فى صحبتها أسعد أيام حياتى . لا تحسب أنى أهملت دراستى ، فقد كانت « نورا » تحتم علىّ أن أكد وأعمل . مرت أيام أو أسابيع قد تكون شهراً أو شهرين ، لا أدرى ، فقد كنت نسيت الزمن !

وعدت فى أحد الأيام إلى البنسيون . ولما دخلت القاعة الكبرى كان النزلاء مجتمعين إلا نورا ، وكانت تبدو عليهم كآبة لم أعهدها فيهم قط ، فقلت فى نفسى : « إنهم كاليتامى فى غيابها ، الآن تعود ويعود إليهم مرحهم ! . . . »

ولكنها تأخرت ، وانصرفنا إلى الغداء ، وكان غداء كئيباً صامتاً ... لكن ما هذا الشحوب الحزين الذى يبدو على وجوههم ؟ . . . لماذا يتجنبون جميعاً النظر إلى ؟ . . . وهذا الشيخ الفرنسى يخلع نظارته ويمسحها بمنديله . . . والامريكى ، ماله يحنو علىّ عطفاً وإشفاقاً ؟

ونورا ! لماذا لم تحضر إلى الآن ؟

وما الذى ألجم لسانى فأسكته عن سؤال زملائى ؟

وتركنا المائدة ، ولعلنا لم نمس شيئاً من الطعام .

ومضيت إلى غرفتى ، ولازمنى صديقى الامريكى وجلس معى .

وعرفت كل شىء ! . . .

خرجت «نورا» صباحاً ، وفى الطريق دهمتها سيارة ففاضت روحها على الأثر .

أتريد أن تعرف كيف كان وقع المصاب على ؟ وهل أستطيع أن أعرف ؟
إن النوائب التى تفجؤنا وتصيبنا فى قلوبنا ، تسلبنا الشعور والإحساس ، وتترك الواحد منا كأنه كتلة من الجماد .
لا أدرى كم بقيت ملقى فى مكانى ، لا أحس بشىء ، ولا أرى شيئاً كغارق فى لجة من الظلام .
ثم أفقت ، وأبصرت خلال الدموع الغزيرة المنهمرة ، صديقى بجوارى ، ونزلاء البنسيون جميعاً وقد جاءوا يواسوننى ويعزوننى .
وجلسوا حولى ، وأخذوا يتشاورون فيما يجب عمله . أما أنا فما كنت أعى شيئاً أو أصلح لعمل شىء . واتفقوا على أن يبحثوا فى أوراقها ، عن جواز سفرها ويتصلوا بالقنصلية التى تتبعها .
لم أتصور قط أن هذا الجمال السماوى ، يودع صندوقا مغلقا تدق عليه المسامير !
ألم يجد سائق السيارة المتخبط ، غير هذه الياسمينة الرقيقة ، التى تذبل من لمسة ، فيهشمها بعجلاته ؟ ... بل هو القدر استكثر علىّ هذه السعادة ، فأراد أن يسلبها منى ، وقاد هذا السائق إليها كما كانت تقود الآلهة الناس إلى مصير محتوم !
مرضت بعد هذا مرضاً طويلا ، وصفه الأطباء باسم لاتينى غريب ، واستدعى أصدقائى والدى فجاء على عجل من الإسكندرية فى حالة مريرة من الجزع والاضطراب . ووجدت من عطف زملائى فى البنسيون ، وفى مقدمتهم الامريكى الكريم ، ما لا أنساه طوال حياتى .
وهكذا انتهى شبابى وأنا فى العشرين من عمرى ! . . .
وسكت طاهر بك ، ولمحت دمعة تنحدر على خده ، دمعة من الدموع الغزيرة التى سكبها ، ظلّت محبوسة خمساً وعشرين سنة ، ثم ذرفها الآن !
وعاد الى الكلام قائلاً :
مرت أيام حياتى بعد كل هذا ، تافهة لا فرق بين صبحها ومسائها . وبعد عشرة أعوام تزوجت من الفتاة التى اختارتها لى والدتى ، وهى زوجتى هذه التى وجدت فيها أكرم زوجة ، وأوفى صديق ، ثم رزقنى الله ابنتى سميرة .
وفتح أحد أدراج مكتبه ، وأخرج صورة قدمها إلى ، فقلت وأنا أنظر إليها
— هذه صورة ابنتك سميرة ؟

— كلا ! وهنا أعجوبة القدر التى أريد أن أحدثك عنها . أنظر تحت الصورة .
ونظرت فإذا كلمة إهداء ، وإمضاء « نورا » وتاريخ قديم مضت عليه أعوام طويلة ، ولكن الصورة سميرة بعينها .

ومضى طاهر بك يقول :

— هذه نورا ، وكأنك ترى سميرة . وكما يقدم إليك صديق صورته تذكاراً منه ، منحنى القدر فى ابنتى صورة حية لتلك التى رحلت من زمن بعيد . كنت أرى سميرة وهى تشب وتنمو تقترب شبهاً من نورا ، حتى أصبحت كما تراها الآن فإذا هى هى . ولم يقتصر الشبه على الخلقة بل امتد إلى كل شىء فيها : فى إشاراتها وحركاتها ولفتاتها ، وفى مرحها ، بل فى حبها العجيب للموسيقى ، وفى براعتها فى العزف . إنها « نورا » أعادها القدر بعد أن اختطفها تلك الأعوام الطويلة ...

ولعلك أدركت الآن سر شغفى بها ، فوق الحب الذى وضعه الله فى قلوب الآباء .
على أن أشد ما يزعجنى ويشغل بالى كثيراً هو أن أفقد ابنتى كما فقدت الحبيبة . لهذا ترانى لا أستطيع بعدها عنى كثيراً . إن القدر الذى مزق قلب العاشق ، لا يتورع عن أن يمزق قلب الأب . إنى لأخشى أن يتم الشبه بين الاثنتين حتى فى المصير .

ومد يده يريد أن يدق الجرس . ولكن قبل أن يفعل ، دخلت سميرة الغرفة وهرعت نحو أبيها ، فقال لها :

— جئت يا سميرة ؟

— أدركت أنك لابد تسأل عنى ، فقد طالت غيبتى عنك .

— وأنا كدت أرسل فى طلبك .

وانحنت عليه ، ولفت ذراعها حول عنقه ، ووضعت رأسها بجانب رأسه . وجعلت تنظر إليه مبتسمة بل ضاحكة ، وهو ينظر إليها وفى عينيه دموع ، وعلى فمه ابتسامة .

ثم رفعت رأسها ونظرت إلىّ فى تحدٍّ وقالت :

— قل لى ... لماذا لم تتزوج ؟

— ! ...

محمود رمزى

نقل ملكية بنك انجلترا إلى يد الدولة

[كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى »
كاتب انجليزى خبير بالشئون الاقتصادية] .

أنشئ بنك إنجلترا فى ظروف سياسية عصيبة ، فقد أرادت حكومة وليم الثالث ملك إنجلترا أن تجمع فى عام ١٦٩٤ المال اللازم لتمويل الحرب التى شنها وليم الثالث على لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، وقد رأت أن يكون جمع هذا المال فى صورة قروض حكومية . وكان أنسب مكان لعقد هذه القروض حى المال فى لندن المعروف بالسيتى ، حيث التجار وأصحاب المصارف من أتباع حزب الهويج الموالين للملك . وقد كانت القروض الحكومية معروفة من قبل فى هولندا ، فكانت الحكومة تجمع ما يلزمها من المال للقيام بالمشروعات العامة كإصلاح الأراضى البور وترميم الجسور الحاجزة لمياه البحر مقابل فائدة سنوية تدفعها لأصحاب هذه القروض . أما فى إنجلترا فلم يكن هذا النظام معروفاً حتى اقتبسته الحكومة الانجليزية من الحكومة الهولندية .

وكانت الحكومة تعرف أنها لن تستطيع عقد مثل هذه القروض بضمانها الشخصى ، فلجأت إلى كبار الممولين فى السيتى وكلفتهم عقد هذه القروض نيابة عنها حتى يطمئن الناس على أموالهم. وهكذا أصبح تجار السيتى المؤسسين الأول لمجلس إدارة بنك إنجلترا . وقد ظلت القاعدة الدائمة إلى ما يقرب من خمس وعشرين سنة خلت أن يتألف مجلس إدارة بنك إنجلترا من كبار أصحاب المصارف والتجار فى السيتى . وكان هؤلاء يتناوبون تقلد منصب محافظ البنك ونائب المحافظ كل مدى سنتين ، وكلما تقاعد محافظ أو نائبه انضم إلى « لجنة التعامل مع الخزانة » وهى من اللجان خطيرة الشأن . وقد كان مونتاجيو نورمان أول محافظ لبنك إنجلترا كسر هذا التقليد القديم بتجديد انتخابه

محافظاً بين عامى ١٩٢٠ و١٩٤٤ تجديداً متصلا . ومما يؤثر عن عهده أن كبار رجال الصناعة دعوا للمرة الأولى فى تاريخ البنك للاشتراك فى مجلس الإدارة وأن موظفى البنك سمح لهم للمرة الأولى كذلك أن يشتركوا فى هذا المجلس ، وقد أصبحت القاعدة العامة بذلك أن يتقلد كبير الصيارفة فى البنك منصب نائب المحافظ وأن يظل فى منصبه هذا حتى يعتزل عمله الأصلى ككبير للصيارفة . ومن هذا يتضح أن بنك إنجلترا لم يخرج على التقاليد التى رسمت لإدارته فى القرن الثامن عشر إلا فى السنوات الأخيرة فقط .

هذه لمحة عن نشأة البنك . فما هى الأعمال التى يقوم بها ؟ لقد أنشىء البنك لأن الحكومة البريطانية كانت بحاجة إليه وقد كانت صلاته بالحكومة منذ إنشائه قوية إلى حد عظيم . ووجود «لجنة التعامل مع الخزانة» بين لجانه كاف وحده للتدليل على ذلك . وفى ١٩٣٦ قال مونتاجيو نورمان محافظ بنك إنجلترا فى الفترة الواقعة بين عام ١٩٢٠ وعام ١٩٤٤ : « إنى أؤكد للوزارة أنهم لو أطلعونا بالطرق المرعية على السبل التى يريدوننا أن نسلكها لمعاضدة سياستهم لوجدونا فى كل وقت على استعداد لتنفيذ رغباتهم بإخلاص وولاء كأنما القانون يلزمنا بذلك » . والواقع أن الروابط بين الخزانة البريطانية وبنك إنجلترا كانت أوثق ما تكون فى كل عصر من عصور التاريخ الإنجليزى ، ولم تشبها قط شائبة كما حدث مثلا للعلاقة بين البنك المركزى الامريكى والسلطة التنفيذية إبان رياسة أندروجاكسون . ومن أسباب هذا التفاهم بين الحكومة البريطانية وبنك إنجلترا أن الحكومة البريطانية لم تتبع قط منذ عام ١٧٩٤ سياسة اقتصادية وخيمة العواقب بوحى من سياستها العامة كما تفعل بعض الحكومات الأخرى .

فبنك إنجلترا قد اتبع منذ إنشائه سياسة اقتصادية يضمن بها السلامة ، وقد أثر فى الحكومات البريطانية فجعلها تتجه نفس الاتجاه من حيث الحيطة الاقتصادية . وهذا الثبات الاقتصادى العظيم الذى يتصف به بنك إنجلترا هو بالذات ما جعل لومبارد ستريت فى القرن التاسع عشر المركز المالى للعالم أجمع .

ولعل من التناقض أن نقول إن مصدر هذا الثبات المالى هو الدين الأهلى ولكن هذه هى الحقيقة . وقدكان الوزراء من حزب الهويج الذين عقدوا أول قرض حكومى ضخم عن طريق بنك إنجلترا سنة ١٦٩٤ يعتقدون بأن الدين

الأهلى حمل يجب تخفيفه تدريجيا حتى تتخلص الدولة منه نهائيًا . وكان من رأيهم أن نفقات الحكومة سوف تخف بانتهاء تلك الحرب بين إنجلترا وفرنسا وبذلك يتسنى للحكومة أن تسحب السندات التى اشتراها الجمهور . ولعل أول من اشتروا سندات الحكومة فعلوا مدفوعين بالوطنية لا بالرغبة فى تثمير أموالهم ؛ لأن هذه السندات كانت يومئذ كما هى الآن تعود على حامليها بفائدة بسيطة . على أن الزمن قد أثبت أن فوائد الدين الأهلى على صغرها مضمونة ومنتظمة . وبالتدريج أدرك كثير من الناس أن شراء سندات الحكومة وسيلة من أضمن الوسائل وأنجعها لتوظيف أموالهم توظيفاً لا مجازفة فيه . فالأرملة التى ورثت عن زوجها قدراً من المال محدوداً والتاجر الذى بلغ سن التقاعد عن العمل ولم يرغب فى تعريض ماله للضياع يجدان فى سندات الدين الأهلى خير وسيلة لتثمير مالهما .

وهكذا لم يبق فى انجلترا من يؤيد فكرة تسديد الدين الأهلى إلا فريق قليل من راديكاليي القرن التاسع عشر المتزمتين من أمثال كوبيت الذى كان يشتكى من أن حملة سندات الدين الأهلى يستهلكون جزءاً من الضرائب التى يدفعها الشعب فى صورة فوائد تدفعها لهم الحكومة سنويا . ولكن الواقع يدلنا على أن بريطانيا تدين بالقسم الأكبر من دينها الأهلى للطبقات الفقيرة من الشعب ، من طراز صاحب المائة جنيه الذى يبتاع بجنيهاته المائة سندات الحرب ويترك فوائدها تتجمع سنة بعد أخرى ليجد لنفسه مدخراً إذا حلت به أيام سود . أما الأغنياء فيعرفون وسائل تثمير المال أكثر مما يعرفه الفقراء ويسلكون سبلا أشد إغراء وأدعى إلى المجازفة لأنها قد تعود عليهم بأرباح أوفر وأسرع . فدين الحكومة البريطانية إذاً مستمد فى الأكثر من الطبقة المتوسطة الصغيرة وعلى اقتصاد أبناء هذه الطبقة وحكمتهم تقوم قدرتها على اقتراض المال اللازم لها فى أى وقت تشاء بفائدة ضئيلة . وقد ساعد بنك إنجلترا بتعاونه التام مع الحكومة البريطانية وبما يسديه إليها من نصائح فنية على أن يحفظ لتلك الحكومة ثقة الشعب بها من الناحية المالية .

فالإشراف على الدين الأهلى نيابة عن الحكومة هو أحد الوظيفتين الخطيرتين اللتين يقوم بهما بنك انجلترا . أما وظيفته الخطيرة الأخرى فهى الإشراف على النقد . وبنك انجلترا ليس المصرف الوحيد الذى يصدر أوراق

النقد فى بريطانيا ، فلا تزال فى اسكتلندا بعض المصارف التى تصدر هذه الأوراق . ولكن بنك انجلترا هو المصرف الوحيد الذى تتداول أوراقه بقوة القانون وهى جميعاً ممهورة بامضاء كبير الصيارفة ، فجميع الناس ملزمون بقبولها ، وهى صفة لاتتوافر فى الشيكات أو الكمبيالات ، فهذه قد تعرضها على تاجر فيرفض قبولها دون أن يتعرض للعقاب . وقد حدث لى شخصيا أن عرضت جنيهاً اسكتلنديًّا على تاجر فى برمنجهام فرفض قبوله وإن كان من المألوف أن يقبل الجنيه الإسكتلندى بعد خصم شلن من قيمته . وهذا المركز الخاص الذى تتمتع به أوراق النقد التى يصدرها بنك انجلترا ليس ناشئاً من أن الحكومة تعتمده فحسب بل ناشىء كذلك من أن بنك انجلترا بناء على قانون صدر فى أوائل القرن التاسع عشر بعد حدوث الذعر من النقد الورقى ، يصدر عدداً معيناً معلوماً من أوراق النقد ، ولا يتجاوز هذا العدد المعين المعلوم إلا إذا كان فى خزائنه ما يقابله من سبائك الذهب أو الفضة . وما فى خزائن بنك انجلترا من سبائك الذهب لايمثل إلاجزءاً من المجموع الكلى من أوراق النقد المتداولة بطبيعة الحال فى أى وقت من الأوقات . ولو أن حملة أوراق النقد تسابقوا إلى أن يستبدلوا بما بأيديهم من أوراق رصيدَها الذهبى لأفلس بنك انجلترا كما هى الحال مع مصارف العالم كافة . ولكن ثقة الجمهور بمركز البنك ومعاضدة الحكومة إياه وعلم الناس بأن خزائنه تحتوى كميات عظيمة من سبائك الذهب ، كل ذلك قد منع الناس من التزاحم على البنك للمطالبة بقيمة ما يحملون من أوراق النقد . وحين قلّ الذهب ارتفع سعر النقود نتيجة لقلة تداولها ، وحين كثر هبط سعرها نتيجة لكثرة تداولها . كذلك حاول بنك انجلترا كما قال وولتر باجوت فى كتابه « لومبارد ستريت » أن يقوم بمهمة المنظم لأحوال انجلترا المالية بوجه عام . فكلما أفرط الناس فى الاطمئنان إلى مركز انجلترا المالى رفع البنك سعر النقود ، وكلما انتشر الذعر المالى خفض من سعرها . وكانت هذه السياسة على صورة ما مضادة للسياسة التى تربط ربطاً آليا بين سعر النقود وبين كمية الذهب المخزون فى أقباء البنك . ومهما يكن من شىء فإنه يتضح من كتاب وولتر باجوت الذى ورد ذكره أن بنك انجلترا كان يبنى سياسته على اعتبارات تجريبية تماماً . فتجار السيتى وأصحاب المصارف فيها ممن كانوا يؤلفون مجلس إدارة البنك كانوا يحسون قبل غيرهم بحال السوق فى السيتى ويدركون

بالغريزة الأوقات التى تندر فيها النقود، والأوقات التى تكثر فيها . ولقد كانوا دائماً يعدون أنفسهم قوامين على مالية الشعب حتى فى القرن التاسع عشر الذى اشتهر بالروح الفردية والعمل على تنمية المصالح الذاتية . ولكنهم كانوا يعتقدون أنه لا سلطان لهم على الأزمات أو فترات الرخاء ، ويرون أن عملهم مقصور على تخفيف حدة هذه التقلبات لا أكثر ولا أقل .

وبعد الحرب العالمية الأولى أصبحت سياسة بنك انجلترا كما وصفها السير جون كلاپهام ، المؤرخ الرسمى لذلك البنك ، هى « السعى للتوفيق المضطرب بين مسئوليات البنك باعتباره مشرفا على النقد ومسئولياته باعتباره مشرفا على الدين الأهلى » . وتمسك البنك عدة سنوات بقاعدة الذهب خوفاً من التضخم النقدى، بل لقد حاول بعد أن تخلى عنها فترة من الزمن أن يعود إليها من جديد . وكان معنى تلك السياسة ارتفاع ثمن النقود، فعاق ارتفاع ثمن النقود المشروعات الناشئة بين عامى ١٩١٨ و١٩٣١ ، ولكن سياسة البنك وجدت ترحيباً من أبناء بريطانيا الذين كانوا يتقاضون الفوائد عن أموالهم الموظفة فى الدين الأهلى ومن أبنائها الذين يتقاضون المعاشات من الحكومة، وقد زاد عددهم زيادة جسيمة بسبب الحرب الماضية . ولقد كانت سياسته ترمى إلى السلامة حقا ولكنها سلامة محفوفة بالمخاطر . فهو بحيلولته دون ما يدعى تضخما ، قد حفظ قيمة الدخول الثابتة الصغيرة ، كتلك المستمدة من سندات الحكومة ومرتباتها ومعاشاتها ، ولكن هذه السياسة قد عرقلت أيضاً القيام بمشروعات جديدة وأدت إلى الإفراط فى الحذر وبطء الإنتاج الصناعى وتفاقم أزمة البطالة. وكان الاقتصاديون من أمثال كينز يشيرون إلى أخطار التمسك الدقيق بقاعدة الذهب وإلى حاجة البلاد إلى سياسة اقتصادية تقوم على تيسير النقود فى الحدود المعقولة والتوسع الصناعى والاستغلال الكامل لرءوس الأموال ، وإلى وجوب التمييز بين آفة التضخم والانتعاش الاقتصادى الذى تؤدى إليه هذه السياسة .

على أنه يجدر بنا أن نلاحظ أن جريرة بنك انجترا فى فترة مابين الحربين إنما انحصرت فى تعصبه الشديد لتقاليد الحكمة والحيطة التى انبنى عليها مجده فى القرن التاسع عشر . وفى سنة ١٩٣١ انضم مكدونالد إلى بولدوين فى تأليف الحكومة الوطنية للإبقاء على قاعدة الذهب والحيلولة بأى ثمن دون التضخم حتى لو كان هذا الثمن هو الخفض الشديد فى المصروفات الحكومية . وفى ذلك الوقت

بالذات كان روزفلت يضع مشروعه للتغلب على الأزمة الاقتصادية بالتوسع الكبير فى المصروفات الحكومية . على أنه ينبغى أن نذكر فى الدفاع عن بنك انجلترا أن الأزمة الاقتصادية فى بريطانيا وإن كانت عصيبة للغاية ، لم تأت مثل الأزمة الأمريكية فى إثر موجة رخاء . والواقع أن بريطانيا لم تمر قط بعد الحرب الماضية بموجات رخاء ، إذا استثنينا تلك الموجة العابرة التى انتهت سنة ١٩٢١ ولم تكن سوى بعض مظاهر نهاية الحرب والرجوع إلى اقتصاديات السلم .

ولو كانت الحيطة والحكمة والأمانة تكفى لإنقاذ بريطانيا من متناقضات العالم الحاضر ، لكان بنك انجلترا قد أنقذها . ولكن ذلك لم يكن يكفى . فالذهب كان قد فقد سحره القديم . والحكومة التى تكونت سنة ١٩٣١ للمحافظة على قاعدة الذهب ، اضطرت إلى الخروج عليها بعد بضعة أشهر . أما الحكومة التى تولت الحكم سنة ١٩٣٥ وتعهدت بألا تحيد عن الأسس التقليدية المأمونة فى الاقتصاد فقد دفعتها الحوادث قسرا إلى استهلاك كل الأرصدة البريطانية فى الخارج ، والقذف بكل الانتاج الصناعى فى أبهظ حرب عرفها التاريخ . وبفضل مراقبة الأسعار والأخذ بنظام البطاقات وما شابههما من نظم الإشراف المالى لم يؤد كل هذا إلى شىء يمكن أن يسمى تضخما . وبهذا ثبت أن النظرية القديمة القائلة بأنه لايمكن الحصول على شىء إلا بدفع الثمن ـ لا فى صورة سلع أو خدمات بل ذهب ـ هى نظرية قد ولت بلا رجعة . ولو أن بريطانيا كانت قد قذفت بكل ما تملك من الذهب فى قاع اليم ، لما أثر ذلك بأى شكل فى نشاطها الحربى .

وهكذا أصبح على بنك انجلترا أن يعدل نظمه وقواعده حتى تتفق مع الموقف الجديد ، هذا الموقف الذى تنبأ به من عشرين سنة اللورد كينز وقد كان من أشد نقاد البنك صرامة فأصبح اليوم أحد مديريه . وملخص نظرية كينز هو أنه إذا بحثنا فى حال أمة ما من الناحية الاقتصادية وجدنا أن لديها من ناحية كمية معينة من القوى العاملة وكمية معينة من المواد الخام ، وأن لها فى الناحية المقابلة حاجات ملحة تسعى إلى إشباعها . وليس من الممكن تلبية جميع هذه الحاجات فهى تعارض بعضها البعض إلى حد ما . والمسألة التى يعالجها علم الاقتصاد هى فى جوهرها كيفية « توزيع كمية محددة من المواد بين المطالب المتضاربة » .

وفى مجتمع معقد التركيب كالمجتمع الحاضر يقع على عاتق الحكومة بوجه

خاص عبء الاختيار بين هذه الحاجات المتضاربة وتلبية الأهم قبل المهم. فالحكومة هى المؤسسة الوحيدة التى تستطيع أن تشرف إشرافا شاملا على المجتمع. وإذا ماتم الاختيار، وعرفنا مالدينا من مواد ومن قوى عاملة، وعرفنا أن هذا الشيء أو ذاك (كالنهوض بتجارة الصادرات أو بناء منازل جديدة مثلا) هو أهم الأشياء، لم يبق أمامنا الا أن نسير فى طريقنا قُدما. ولا يحتاج الأمر بعد ذلك للتغلب على مايسمى الصعوبات المالية الا الى فن إمساك الدفاتر.

ولن يؤدى نقل ملكية بنك انجلترا إلى يد الدولة إلى تغيير ما فى نظمه ومجرى أعماله، وكذلك لن يؤثر ذلك فى الرصيد البريطانى فى الخارج. وهذا الرصيد لايعتمد على الذهب ولا على أى نوع من الظروف المالية، بل يعتمد على حقيقة أولية هى أن الشعب البريطانى لن يشترى شيئا إلا إذا استطاع دفع ثمنه. وهو سيدفع الثمن، فى نهاية الأمر، بعرق جبينه.

ونحن نعيش اليوم فى عالم يرغمنا سواء رضينا أم كرهنا على أن نربط جهودنا بعضها بالبعض الآخر. فالسياسة والدين والأخلاق والصحة لم تعد اليوم فى نظرنا مسائل منفصلة مستقلة، بل أصبحت أجزاء متصلة مترابطة فى البنيان الاجتماعى الشامل. ولقد بادت الفكرة التى كانت تزعم بأن الشؤون المالية من خفى الأسرار لايمكن أن يمارسه غير كهانه من رجال المال.

ونقل ملكية بنك انجلترا إلى يد الدولة لايعنى مصادرة أموال أحد. فحملة الأسهم سوف يستمرون فى الحصول على الفوائد. وكل ما سيؤدى إليه هذا النقل هو أن سياسة بريطانيا المالية سوف تدخل فى نطاق سياستها الاقتصادية العامة، وأن هذه السياسة سوف تقوم على توحيد الجهود الاجتماعية فى السلم كما كانت فى الحرب.

ولبنك انجلترا تاريخ طويل مجيد. وما زال أمامه دور عظيم يلعبه. ولكن لم يعد من الممكن فى العالم الحاضر أن نسمح للاعتبارات المالية الفنية بأن تطغى على الاعتبارات الاقتصادية الاجتماعية. ورجال البنوك كسائر الناس مرغمون على أن يعدوا أنفسهم خدام المجتمع لا أسياده.

...

ترجمة ل. ع.

الجمهورية الفرنسية الرابعة

لم تنشأ بعد ولكنها فى طريق الإنشاء ، فسيضع الجنرال دى جول بين يدى الجمعية التأسيسية فى اليوم السادس من هذا الشهر سلطاته المؤقتة التى تلقاها من ظروف الهزيمة سنة ١٩٤٠ ثم من ظروف المقاومة الخارجية ، ثم من ظروف المقاومة الداخلية ، ثم من ظروف التحرر والانتصار بعد ذلك . وسيتلقى فى غد ذلك اليوم سلطات أخرى مؤقتة أيضاً ، ولكنها ثابتة مستقرة لا تصدر عن الظروف ولا عن المصادفات ، وإنما تصدر عن الشعب الذى أخذ يبنى مستقبله بإرادة حازمة عازمة توشك أن تكون إجماعية . فقد اشترك فى التصويت للاستفتاء وانتخاب الجمعية التأسيسية خمسة وثمانون فى المئة من مجموع الناخبين .

ولم تعرف فرنسا فى تاريخها الانتخابى ما عرفته هذه المرة من إقبال الشعب على التصويت ، فقد اشترك فيه النساء لأول مرة وبلغ عدد المصوتين عشرين مليوناً . وقد استفتى الشعب الفرنسى فى الدستور الذى قامت عليه الجمهورية الثالثة فقرر العدول عنه إلى دستور جديد ، واستفتى فى سلطان الجمعية التأسيسية أيكون مطلقاً لا حد له أم يكون مقيداً محدوداً ، فآثر تقييده والحد منه اجتنابا للمغامرات ، وإيثاراً للحزم والدقة فى مواجهة الظروف العسيرة المعقدة التى تواجهها الإنسانية عامة ، ويواجهها الشعب الفرنسى خاصة فى هذه الأوقات . فستكون الجمعية التأسيسية إذاً مكلفة وضع الدستور الجديد الذى ينشئ الجمهورية الرابعة مستمتعة بالسلطان التشريعى مقيدة فى مراقبة السلطة التنفيذية موقوتة الأجل بسبعة أشهر ، فإذا أتمت وضع الدستور استفتى فيه الشعب ثم انتخب البرلمان الجديد .

وكل هذه الإجراءات أتمها الشعب الفرنسى فى هدوء ودعة وأمل فى المستقبل وثقة بالنفس . وإذا كان من الطبيعى أن يستنبط شئ من نتائج

الاستفتاء والانتخاب فأول ما يمكن استنباطه من ذلك هو أن محن الحرب قد دفعت الديمقراطية الغربية إلى تطور عنيف واضح نحو الشمال .

وقد خضعت فرنسا لهذا التطور كما خضعت له بريطانيا العظمى من قبل . فالمؤثرات التى جعلت أمر الشعب البريطانى إلى العمال فى الصيف هى التى جعلت أمر الشعب الفرنسى إلى هذه الديمقراطية الجديدة فى الخريف . ونقول الديمقراطية الجديدة ، لأن هذه هى الكلمة التى تلائم نتائج الانتخابات الفرنسية الأخيرة ، وتمثل المزاج الفرنسى الجديد . فقد انتصر الشيوعيون فى فرنسا انتصاراً عظيما ولكنه بعيد كل البعد عن أن يمكنهم من الحكم لأن ممثليهم فى الجمعية التأسيسية لا يبلغون ثلثها ومثل ذلك يقال بالنسبة إلى الاشتراكيين . وقد انهزمت الأحزاب القديمة اليامنة والمتوسطة انهزاما يوشك أن يكون ساحقاً ، وقام مقامها حزب جديد هو حزب الحركة الجمهورية الشعبية ، ليس محافظاً وليس اشتراكياً ، ولكنه شىء بين ذلك ، وهو أدنى إلى الاشتراكية منه إلى المحافظة أو هو اشتراكى تلطف اشتراكيته نزعته المسيحية الكاثوليكية . وإذاً فالذين يمثلون الشعب الفرنسى فى الجمعية التأسيسية يتألفون من أحزاب تذهب كلها إلى الشمال يقع الشيوعيون فى أقصى الشمال والاشتراكيون فى وسطه والجمهوريون الشعبيون فى أوله . ومعنى هذا كله أن الشعب الفرنسى قد عدل عن المحافظة اليامنة عدولا نهائيا ، ولكنه مازال يستأنى ويتمهل فى إقدامه على الشمال .

وليس من اليسير التنبؤ بمستقبل الحكم فى فرنسا أثناء الأشهر السبعة المقبلة . فالمنطق القديم كان يقتضى أن يأتلف الاشتراكيون والشيوعيون فيكونوا الكثرة التى تمكنهم من الحكم . ولكن المنطق الجديد قد يقتضى أن يأتلف الاشتراكيون والجمهوريون الشعبيون فيقيموا حكما ديمقراطيًا شماليًا أدنى إلى الاعتدال . وعلى كل حال فمركز الاشتراكيين خطير حقًا فى تأليف الجمعية التأسيسية ؛ لأنه يستطيع أن يميل إلى الشمال فيرجح كفة التطرف أو إلى اليمين فيرجح كفة الاعتدال . ومن الناس من يقدر أن الجنرال دى جول سيحرص على تأليف حكومة من الأحزاب البرلمانية كلها تمثل الاتحاد الوطنى فى هذه الظروف التى يشتد فيها التعقيد . والمهم هو أن الشعب الفرنسى قد اتخذ خطوته الحازمة الحاسمة إلى هذا النوع الجديد من الديمقراطية الذى يطلق المحافظة إلى

غير رجعة ، ويحب الشيوعية ولكنه يخشاها ، ويتخذ الاشتراكية المعتدلة مركز اناة وانتقال قد يتم غداً أو بعد غد .

وليست الجمعية التأسيسية إلا أداة لوضع الدستور ؛ فمستقبل فرنسا رهين بطبيعة هذا الدستور من جهة ، وبالانتخابات البرلمانية التى ستتم بعد وضعه من جهة أخرى .

وواضح جداً أن عصر الانتقال هذا سيكون بعيد الأثر فى السياسة الداخلية والخارجية لفرنسا . فالاشتراكيون والجمهوريون الشعبيون يريدون محالفة بريطانيا العظمى وتكوين الكتلة الغربية ، ولهذا أثره البعيد فى سياسة الاستعمار وفى علاقة الغرب الأوربى بالشرق العربى . والشيوعيون يميلون إلى تقوية الحلف الروسى ، ولهذا أثره البعيد فى نفس هذه السياسة الاستعمارية وفى علاقة الشرق بالغرب . وهذه الأحزاب كلها مجمعة على وجوب الإصلاح الداخلى العميق الذى سيحوّل فرنسا عن « الرأسمالية » العتيقة إلى هذه الاشتراكية الجديدة .

فإذا لاحظنا أن الاشتراكية هى التى تدبر أمور بريطانيا العظمى الآن انتهينا إلى هذه النتيجة البسيطة ، وهى أن الديمقراطية القديمة التى كانت تسود العالم قبل الحرب قد ماتت فى أوربا وقامت مقامها الاشتراكية . ولم يبق للديمقراطية القديمة إلا معقلان اثنان ، أحدهما يقاوم عن شعور وعلم وفقه بحقائق الأمور وهو الولايات المتحدة الأمريكية . والآخر لا يقاوم ولا يهاجم وإنما أخذ الديمقراطية القديمة عن أوربا وهو يستمسك بها انتظارا للمستقبل وهو الشرق الأدنى . فأما بقية العالم فميدان للصراع بين الاشتراكية والشيوعية .

ولعل هذه هى أولى نتائج الحرب الثانية ؛ فلننتظر فليس من شك فى أن لهذه الحرب نتائج أخرى لم يتكشف عنها الغيب بعد .

...

من كتب الشرق والغرب

أصول النظام السياسى فى دول الشرق والغرب

الصحافى الأمريكى وليم هنرى تشمبرلن من أقدر الصحافيين فى العالم، إذا خاض قلمه فى أحد الموضوعات التى تفرضها عليه مهنته أخذ الحقائق من جذورها باحثاً منقباً فياضا فى غير دعاية لنفسه أو ترويج لسياسة بعينها، إنما هو يكتب ويؤلف للحقيقة فى ذاتها فتأتى كتابته موضوعية بقدر ما يتأتى للانسان أن ينأى عن العامل الاعتبارى.

وقد ألف كتابه « اليابان فوق ربوع آسيا » بعد أن قضى عامين متنقلا متقصياً فى أنحاء اليابان والصين ومنشوكو والفيليبين وغيرها من أقطار شرق آسيا، لموافاة مجلة « كرستيان سيانس مونيتور » بأخباره وأفكاره بصفته رئيساً لمراسليها فى طوكيو، فجاء الكتاب أصدق مرجع عن تلك الأقطار باعتراف المؤلف الصحافى الشهير « چون جنثر » فى كتابه « فى باطن آسيا » وغيره من المؤلفين.

ورأيت أن أوفق بين رغبتى فى نقل ذلك الكتاب النفيس إلى قراء العربية وبين رغبة هؤلاء القراء فى استيضاح ما نُمِى عن اليابان من قدرتها على استيعاب البواعث التى قامت عليها المدنية الغربية مع احتفاظها بأقدم تقاليدها الشرقية، لذلك رأيت أن أقتطف من منثور كتاب « اليابان فوق ربوع آسيا » ما يجيب على تساؤل القراء ومثار اهتمامهم.

*

فى موقفٍ من مواقف الدعابة والتهكم، قال الفيلسوف الإيطالى « ڤيلفريدو پاريتو »:

« إن الأسود يحكمون الرجال بالتناوب مع الثعالب، فالأسود يقتحمون باب الحكم بالقوة السافرة، والثعالب يأخذونه بأسباب اللين وفن الدهاء، متذرعين بالقوانين تارة وبالتقاليد أو مقتضيات العرف تارة أخرى »

وهذا الرأى يمثل بالضبط حالة اليابان ؛ فالنضال الدائم بين أسود العسكرية وثعالب السياسة هو التفاعل الذى ينبعث منه توازن السلطات المترجحة بين بريق الذهب وصليل السيوف .

جل الزعامات العسكرية والبحرية فى اليابان سلالة متحدرة من أصول راسخة التقاليد عريقة المجد ، لها منذ القرون الوسطى هيبة شامخة وسلطان متغلغل فى السياسة المحلية والخارجية .

وأمام تلك القوة ذات البطش والجبروت تنهض قوة المال المكدس والثورة المنظمة ، يمثلها أرباب المال من وارثى صناعات وتجارات ومصارف ضخمة ، بناها أسلافهم الأقدمون ونمت جيلا بعد جيل ، فغمرت كل الأنحاء وتخللت الثنايا وأضحت بين الأخلاف تقليداً مقدساً أشبه بالدين منه بالدنيا .

آل « ميتسوى » مثل بارز للبيوتات المالية القديمة : استهلوا أعمالهم منذ ثلاثة قرون ، طالما عركوا فى أثنائها أزمات اقتصادية وسياسية فتغلبوا عليها ، وطالما اشتبكوا مع أرباب القوة فى معارك السياسة دون أن يكونوا الخاسرين ، وهم الآن أحد عشر فرعاً ينتخبون زعيمهم بقرار من مجلس الأسرة مرصود بشرط الكفاية وحدها دون الاعتبارات الأخرى . وحين يبلغ أحدهم سن الرشد عليه أن يقسم اليمين بالصيغة الآتية :

« إطاعة لتعاليم آبائنا ، وتدعيما لأصول بيتنا الخالد ، وإنجازاً لخطة التوسع فى المشروعات التى ورثناها عن أسلافنا ، أحلف يميناً صادقة أمام أرواح آبائنا المجيدة ، أنى أحترم التعاليم الموروثة فى دستور بيتنا ، وأسير عليها دون تحوير أو تبديل ، وهأنذا أوقع الآن بإمضائى فى حضرة هذه الأرواح النبيلة » .

أما أن الحرب سجال بين فريقى الأسود والثعالب فذلك لأنهما كفتا ميزان تكمل إحداهما الأخرى ، الأسود فى حاجة دائمة إلى المال وصنع السلاح ، والثعالب فى حاجة دائمة إلى السواعد التى تحمى بضاعتهم وأموالهم فى البر والبحر وتفتح لهم الأسواق فى الخارج .

*

نشأ الدستور اليابانى سنة ١٨٨٩ على غرار الدستور البروسى ، قوامه برلمان ذو مجلسين ، أحدهما للنواب يقوم على أساس انتخاب حر من جميع الرجال ، والآخر للأعيان يتألف من ثلاث طوائف ، الأولى تستمد حق التمثيل من

الوراثة ، وتنتظم ممثلى الطبقات الأرستقراطية . والثانية محدودة فى رجال خدموا الدولة أو امتازوا فى ميدان العلم أو الثقافة، وهؤلاء يظلون أعضاء مدى الحياة . والثالثة تتألف من أعضاء منتخبين يمثلون أكبر الضرائب ، وللأكاديميا الإمبراطورية أن تختار أربعة أعضاء . ومن حق هذا المجلس أن يرفض أى قرار يصدره مجلس النواب ، كما أن ميزانية الدولة غير خاضعة لسلطة البرلمان بحيث إذا أبى الموافقة عليها أخذت الحكومة بميزانية العام السابق . والوزارة غير مسئولة إلا أمام الإمبراطور ولا تسقط مهما سحب البرلمان ثقته منها .

فالبرلمان اليابانى سلطة صورية ، قد يكون فى وسعها أن تنتقد أو تتحدى ، ولكن أثرها فى اطراد الحوادث شىء لا وجود له . فمثلا فى سنة ١٩٣٦ شكلت وزارة وليدة انتخاب حر فأسقطتها ثورة عسكرية قتل فيها بعض الوزراء والسياسيين والقواد . وفى سنة ١٩٣٧ عين الجنرال أوجاكى رئيساً للوزارة بعد أن أيدته جميع الأحزاب السياسية ولكنه لم يتمكن من مباشرة أعماله لأن الجيش حال دون ذلك .

*

لليابان شخصية مزدوجة : فيها يمتزج التراث القديم من عقائد وأفكار وتقاليد ، بأحدث أساليب العصر الحديث من صناعة وفن ونظام . والقاعدة الخلقية التى تقوم عليها الدولة اليابانية تتمثل فى المعنى القدسى الذى يوصف به الإمبراطور — ابن السماء وسليل إلهة الشمس (أماتراسواوميكامى) وفى المعنى الأبوى الذى يربطه برعيته ربطاً محكماً مصوغاً من أوامر الآلهة . فقدسية الإمبراطور هى الدعامة الأولى فى بناء الدولة اليابانية ، وتليها قدسية الأسرة من حيث كونها أس التماسك الخلقى والاجتماعى فى هيكل الوحدة القومية .

مثل هذه العقائد تطبع فى أذهان الشعب منذ نعومة الأظفار . إن أروع حفل يقام فى كل مدرسة ابتدائية هو ذلك الذى يُتلى فيه النطق السامى عن التربية والتعليم ، إذ يتسلم الناظر فى إجلال وخشوع صندوقاً من الخشب المصقول ذا لون أبيض ، ويبرز منه وثيقة ملفوفة فى الحرير الخالص ، ثم يقرأ فى جو مكهرب تسوده الرهبة ما نصه : —

« يا رعاياى ! كونوا أبناء بررة محبين لإخوتكم وأخواتكم ، أوفياء لأزواجكم وأصدقائكم ، والتزموا التواضع والاعتدال ، ومدوا يد الخير

للجميع ، واطلبوا العلوم والفنون ، لتقوى فيكم ملكات التفكير والفطنة ، وقوّموا فى أنفسكم مناحى الأخلاق والتهذيب .

ادأبوا على السعى للخير العام ، واعملوا للمصالح الاجتماعيـة ، واحترموا الدستور دائماً وأطيعوا القانون . فإذا ما بلغكم نذير الخطوب ، ونادتكم صيحة الوطن فاستجيبوا بكل معانى الشجاعة والفداء ، وابذلوا نفوسكم فى سبيل الدولة ، لتصونوا عزتنا وتحرسوا عرشنا الأمبراطورى الذى تزدوج فيه معالى السماء والأرض » .

من هؤلاء التلاميذ من يرقى إلى أرفع مناصب الدولة فيسعد بحضور الحفلات النادرة التى يظهر فيها الإمبراطور بشخصه وجلاله . وما إن يخطو ابن السماء بين الصفوف من القادة وكبار الساسة والأفذاذ حتى يغض هؤلاء من أبصارهم لئلا تقع نظراتهم على طلعته السماوية .

*

هل اليابان دولة ديمقراطية ؟

فكرة قدسية الإمبراطور سد هائل بين نظامها وبين الأنظمة الديمقراطية التى يعد فيها الملك من العنصر البشرى . ثم إن حريات العقل من خطابة ونشر واجتماع بعيـدة الغور والمدى فى دول الديمقراطية الحقة بقدر ما هى محدودة فى اليابان بفعل السلطات التى يتولاها البوليس فينفذ منها إلى صميم الحريات ، مهيمناً على شتى الحركات الصادرة من الأفراد والجماعات ، فى حـين أن البرلمان الذى هو سلطة التشريع والرقابة فى النظام الديمقراطى ليس فى اليـابان سوى جسد بلا روح أو هيكل عظمى بلا لحم ولا دم .

فهل هى دولة ديكتاتورية ؟

ليس فى اليابان طاغية واحد تتركز فى يده سلطات الدولة على النحو النازى أو الفاشيستى أو السوفييتى حيث يحكم الديكتاتور من فوق حزبه الواحد المتحكم ، ويقصر نشاط الصحافة والمسرح والراديو على الترويج لمذهبه والدعاية لأفكاره ، فالكتابة والإذاعة والنشر والخطابة أبواق لا ينفخ فيها سوى الحزب وقائده . أما فى اليابان فلا يوجد قائد أو سياسى بعينه حائز لسلطان الديكتاتور ، ولا يقضى النظام بسياسة إيجابية تفرض أفكاراً بذاتها أو مذهباً بعينه ؛ لأن حرية الكتابة والقول مزية سلبية تبيح النقد دون الترويج والدعاية لفريق معين . فبينا

لا تطيق الحكومة الديكتاتورية أبسط ألوان النقد إذ تندفع الصحف اليابانية فى التهجم على الوزارة الحاكمة تقرباً من الرأى العام واستمالة له . كما أنه لا توجد صحيفة بعينها تعد لساناً لأية وزارة من الوزارات ، فالصحافة حرة فى التعبير لا يعوقها عن مساواة نظائرها فى البلاد الديمقراطية سوى هيمنة البوليس عليها. وليس فى اليابان قانون للقذف ، فلا عاصم هناك للوزراء وكبار الوطنيين من لذع الصحافة إياهم وتجريح أشخاصهم أو تشريح سيرتهم والطعن فى سلوكهم ، وفى هذا المضمار تبذ حرية الصحافة اليابانية حرية أية صحافة ديمقراطية .

*

أكبر الظن أن اليابان فيما قبل هذه الحرب الأخيرة لم تتهيأ للنظام الفاشيستى لأنها لم تخسر حرباً كما خسرت ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى ، ولم تُفرض عليها معاهدة شديدة الوطأة كمعاهدة فرساى يستغلها رجل صلب المراس كما استغلها جبار ألمانيا ، ولم تهدد بخطر أحمر يتخذ من الإضراب العنيف وسيلة لشل الحياة الاقتصادية كما حدث فى إيطاليا .

ثم كيف ينمو جنين الديكتاتورية والبوليس قائم لا ينام ! وأين ذلك الطاغية الذى يتمكن من جذب عدد كاف من الأنصار فى غفلة من البوليس !

أكثر من هذا أن فكرة تقديس الإمبراطور الراسخة فى نفوس المحافظين والطبقة العسكرية كفيلة بالوقوف سداً منيعاً بين أى رجل أو هيأة بذاتها وبين التأييد القومى الجماعى .

السلطة فى اليابان تشع من مختلف الجوانب ، وتلتقى فى شخصية معنوية تتركز فيها صفة الدولة ونظامها الخلقى وتنبعث منها ضروب النشاط والعمران .

الدولة اليابانية لا تتقمص أى شكل من أشكال النظام السياسى المقررة ، ولا تنطبق عليها أقيسة التسميات المصطلح عليها ؛ فهى فى مجموعها أضيق حرية من ديمقراطية بريطانيا وأمريكا ، وأوسع حرية من الدكتاتورية النازية أو الفاشيستية أو السوفيتية . فالأقرب إلى الصواب أن تسمى دولة شبه فاشستية .

محمد كمال أبو على

من وراء البحار

الملك هنرى الثامن وزوجاته

أخذت إديث ستويل الأديبة الشاعرة الإنجليزية تضع كتاباً فى طفولة الملكة اليزابيث التى تسلقت إنجلترا فى عهدها إلى المكان الأول بين الدول المسيطرة على البحار بعد أن هزمت أسبانيا منافستها فى ذلك العصر .

وقد نشرت مجلة « الحياة والأدب » الإنجليزية نبذاً من هذا الكتاب تدل على أن المؤلفة درست موضوعها دراسة عميقة ، وأبدت مهارة فى تحليل الشخصيات لا سيما أن أكثرها من النساء . وفى العدد الأخير الذى وصل إلينا من تلك المجلة ، عدد أغسطس ، نبذة طريفة عن الملك هنرى الثامن والد اليزابيث ، وكاترين هوارد التى اتخذها زوجة ثالثة بعد أن فقدت آن بولين زوجته الثانية ووالدة اليزابيث رأسها على المقصلة ، ولم يكن حظ الزوجة الثالثة خيراً من ذلك .

رأى الملك كاترين هوارد عند الدوقة أوف نورفلك العجوز وكانت ابنة لزوجها ، وأمها قريبة لآن بولين ، فأعجب بجمالها وأخذ يكثر من التردد على قصر الدوقة . وذاع بين رجال البلاط ونسائه أن الملك أُعجب بالصغيرة ، وشعرت الفتاة بهذا الحب وابتهجت له ، فزوجة والدها لا تستطيع الآن أن تقدم على ضربها وأخذت الفتاة تتذوق لذة الحياة ومباهجها ، فالدوقة لا تستطيع الآن أن تحرمها الثياب البهيجة .

كانت الدوقة حادة الطباع مقترة على الفتاة فى صباها ، ولكنها لم تكن تعنى بتربية هذه الابنة أكثر من إظهار غضبها على الفتاة لما ترتكبه من أخطاء بسيطة .

وعلى قول المؤلفة « كانت هنالك أيام بل أكثر من ذلك ليال وهى طفلة فى الثالثة عشرة والرابعة عشرة من عمرها ، وهى صبية فى الخامسة عشرة والسادسة عشرة ، تعرف سرها وصيفات جدتها ، وذلك لأنهن شاهدن كل شىء » كم شخصاً يعرف تلك الأسرار ؟ حاولت كاترين أن تتذكر ، واستولى عليها

خوف مروع عند ما أخذت تفكر فى هذا العدد . آه لو أمكن محو هذه الأيام والليالى من لوح الذاكرة ، أو لو أمكن موت جميع الذين يعرفون هذه الامور من الأحياء !

فهى الآن فى التاسعة عشرة من عمرها والملك يريدها زوجة ، ولكنها تتلقى رسائل من نساء عرفنها ، كل منهن تطلب أن يكون لها مكان إلى جانبها فى القصر فماذا تفعل ؟

كان أمامها أحد أمرين : إما أن تكون ملكة تعيش وسط المخاوف فى حين تتمتع بالملك وما يحيط به من مسرات ، وإما أن تعترف بكل شىء وتنزل عن التفكير فى أن تكون ملكة . وقد اختارت كاترين الطريق الأول وواجهت الأخطار .

وجعلت بعض هؤلاء النساء فى حاشيتها .

كانت حياة البلاط فى مبدأ الأمر مرحة ، ولكن الملك لم يلبث أن مرض مرضاً خطيراً وأصابته حمى ، على أن موضع الخطر كان فى رجله التى زاد فى آلامها أن الملك بدين نهم فى طعامه ، غير أنه أخذ يتماثل إلى الشفاء فى بطء ، وقرر أن يرحل فى الصيف إلى يورك لزيارة تلك الجهات مع ملكته الجديدة .

سار الموكب الملكى قاصداً تلك الجهات وكان السفر على مراحل ، فاذا ما نزل الركب بمكان انقلبت الأيام والليالى أفراحاً وأخذ الجمع فى الصيد والقنص ، ففى بلدة هاتفيلد صادوا ما يقرب من مائتين من الغزلان .

وفى ذات يوم فى تلك المدينة رأت إحدى وصيفات الملكة سيدتها تطل من النافذة ، وكانت هذه الوصيفة تكره هذه السيدة ، فحاولت أن تعرف مرمى نظر الملكة ، فاذا هى تنظر إلى قريب لها من أقرب أصدقاء الملك .

وكانت الملكة الصغيرة لا تعرف كيف تصانع من حولها ، فأوجدت من حاشيتها أعداء أخذن يراقبنها ويستطلعن حركاتها ، فراينها ترسل رسائل خفية غير مفهومة إلى لادى روشفور إحدى وصيفاتها ، فاذا لم يأتها جواب تعود فتلح فى الاجابة فترد لادى روشفور أنها لا تزال تنتظر الرد قبل نقله للملكة !

فعادت الملكة وأرسلت رسالة مبهمة إلى لورد سفولك وجاءها مثل هذا الرد . وكان لورد سفولك زوج أخت الملك ، فلا يعقل أنه كان مشتركا فى مؤامرة غرامية . والغالب أن الغرض من هذه المفاوضات السرية ، هو الحصول على نقود

لشراء حلى أو مايماثلها . على أن كاترين على قول مس ستركلتد « كشأن الناس الذين عرفوا منذ مبدأ حياتهم طرق الخطيئة وأسرارها تعودت إخفاء أمورها حتى فى المسائل التافهة التى لو عملت علناً لما أثارت أى شك » .

عاد الملكان من الرحلة إلى مقرهما ، وأقام الملك صلاة شكر على أن وهب الله له شريكة محبة . فاذا ما عاد من الصلاة وجد رئيس الأساقفة كرانمر ينتظره وهو ممتقع اللون وسلمه وثيقة ليطلع عليها ، وفيها قرا اعترافات إحدى النساء اللاتى كن يرافقن الملكة وهى صغيرة .

وهكذا بدات مرحلة التحقيق والتعذيب والموت لهذه الفتاة الطائشة التى آثرت أن تكون ملكة .

رأى فى القنبلة الذرية

كتب الماجور جنرال روان روبنسون — فى مجلة القرن التاسع عشر عدد سبتمبر — عن القنبلة الذرية وما يمكن أن يكون لها من تأثير فى الحروب فعرض لما ذكره سير وليم بفردج فى جريدة التيمس من أن زمان الجيوش والأساطيل وقوى الطيران قد انتهى بظهور هذه القنبلة وأنه من المؤكد أن الدبابات والبوارج والمدافع والبنادق صارت من آثار المتاحف .

فالعالم فى تاريخه الحافل قد شهد الكثير من التطورات فى أسلحة الحرب كان بعضها نتيجة لاختراعات بطيئة ونزل بعضها كالصاعقة مما غير وجه الحروب أجيالا . ويكفى أن نذكر اختراع البارود والديناميت وقاذفة القنابل فضلا عن البنادق البعيدة المرمى .

على أننا لو فكرنا قليلا هل من المستطاع استعمال القنبلة الذرية فى كل الأحوال : لنفرض أن دولة معتدية هجمت على دولة آمنة واحتلت أراضيها فى سرعة ، وأرادت الدول المحتفظة بسر القنبلة الذرية أن تخرجها من الأراضى المحتلة فهل تستطيع استعمال هذا السلاح ؟ إن ذلك يكاد يكون مستحيلا لأنه فى هذه الحالة تسبب خسارة للدولة التى تريد نجدتها أكثر مما تسبب للعدو .

ثم نعود إلى الغواصات وهى سلاح خطر ، فماذا تفعل القنبلة الذرية فى الغواصة ؟ فهل تلقى القنبلة عليها مع أن الغواصة تحوم دائماً على مقربة من القوافل فتودى بالاثنتين الغواصة والقافلة .

وأخطر من الغواصة القوارب الصغيرة التى كادت تؤدى بالحلفاء إلى الهزيمة والقوى المنقولة بالجو التى كانت حاسمة فى كريت وبرما .

على كل حال من الراجح ألاّ تقوم حرب فى مدى السنوات العشر القادمة خوفاً من ويلاتها . ولا تمر هذه الفترة حتى تكون قوى الذرة قد استعملت فى أغراض حربية ومدنية أيضاً فزادت من سرعة الغواصة وقوة احتمالها مما قد يؤدى بالدول التى لا تكثر من استعمال هذه السلاح إلى اتخاذ النقل الجوى بدلا من النقل البحرى .

وفى الوقت ذاته تزيد هذه القوة الذرية من مدى سرعة حاملات الجنود والمقاتلات من الطيارات بحيث يمكن نقل الجنود سريعاً إلى البلاد المعتدية .

ويغلب على الظن أن يفضل المعتدى استعمال الطيارات أيضاً على الالتجاء إلى القنبلة الذرية . وحينئذ يكون لهذه القنبلة مكان ثانوى فى الحروب .

على أن سير بفردج أبدى وجهاً آخر لخطر القنبلة الذرية ، وهو أن الفرق بين إصابة العسكريين والمدنيين ينمحى ويكونون جميعاً هدفاً لهجماتها .

وفى رأى الماجور جنرال روبتسون أن ذلك الصحيح ، وأنه كان من الواجب ألا يقوم هذا الفرق أبداً .

أوربا ووحدتها الثقافية

وصف الكاتب هودن فى عدد أغسطس من مجلة « هوريزن » الإنجليزية حديثاً جرى بينه وبين الأديب الشاعر ت . س . اليوت وقد دار هذا الحديث فى مكتب الشاعر بدار النشر الشهيرة لشركة « فيبر وفيبر » بلندن .

جلس الكاتبان يشربان الشاى فى مكتب تملؤه الكتب كما هو الشأن فى دور النشر الأوربية وعلى الحوائط بعض النماذج من تماثيل رومانية ، وتطل عليهما صور لجيته الشاعر الألمانى .

وسأل المحدث هل تعتقد أن أوربا ستعود وحدة ثقافية بعد هذه الحرب ؟
تردد الشاعر ثم أجاب فى حذر : « أظن ذلك . . . يجب أن نرمى بلا شك إلى هذا الغرض ... قد يستغرق ذلك وقتاً طويلا تقاطعه الظروف السياسية ، ولكن توجد فيما تحت ذلك قوة حية تعمل على التماسك . أجل إنه توجد حوائل قوية فى طريق هذه الوحدة ولكنى أعتقد أنها من الأمور الثابتة » .

وأخذ يوضح فكرته ، وخلاصة ما قاله ان أوربا تتألف من عدد من الأمم الصغيرة والمتوسطة ، على جانبيها أمتان كبيرتان هما روسيا وأمريكا . ومن الخطأ التمييز بين الثقافة فى الغرب والشرق . على أن روسيا ربما كانت أبعد عن التجانس مع الأمم الأوربية الأخرى . أما اتصالها الثقافى فهو أقرب إلى النفوذ منه إلى التجانس ؛ فتاريخ أوروبا ومشاكلها واحدة على حين أن تاريخ روسيا مختلف .

سئل : هل ترى إذاً خطراً على اوروبا من روسيا ؟

نظر اليوت إلى محدثه سريعاً فإنه كان يتكلم عن الثقافة لا السياسة وقال ما مؤداه : « إن الاتصال الثقافى يحتاج إلى زمن أطول من الاتصال السياسى . والراجح أن يكون نفوذ روسيا فى هذا المضمار فيه الفائدة أكبر من الضرر . على أن الثقافة الروسية هى الآن فى دور تطور ، ويظهر أن الروس سيعودون إلى ما كانوا عليه فى مستوى أعلى . ولقد كان فضل روسيا على أوربا فى الماضى هو نظرتها الروحية الخاصة التى عرفها الغرب فى مؤلفات كبار الروائيين الروس . على أن روسيا تكون خطراً على أوربا إذا أعادت إلى الأوربيين أخطاءهم مكبرة كأن تشغل الآلات تفكير روسيا كما شغلت الولايات المتحدة بدلا من الزراعة والنمو . فالآلة يمكن رسمها وصنعها من الرسم ، أما الشجرة فتزرع ثم ينتظر نموها .

سئل : لقد ذكرت الدول الصغيرة فما هو دورها ، أو ما هو حظها ، فى أوربا الجديدة التى نريد لها الاتحاد ؟

فأجاب بأن هذه المسألة متوقفة على التجربة ، فمن الظاهر أن هنالك وحدات ثقافية وهى تقوم بدورها بالنسبة للجميع .

ظهر حديثا

معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع لأبى عبيد البكرى (لجنة التأليف والترجمة والنشر)

ما زالت مصر والحمد لله سبّاقة إلى إحياء الأدب العربى ، لا تقصر فى ذلك ولا تنى عنه مهما تختلف الخطوب ومهما يقم فى سبيلها من العقاب . وإنما هى تبذل فى ذلك جهوداً خصبة موفقة متنوعة أشد التنوع . وهذه الجهود لاتبذلها الحكومة وحدها ولايبذلها الشعب وحده ولا تبذلها هيئة بعينها من الهيئات الحرة التى تقوم على النشر ، وإنما تتعاون على ذلك الهيئات المختلفة التى تعنى بنشر الكتب .

ويكفى أن أشير إلى بعض ماوصل إلىّ فى هذه الأيام القليلة الماضية بين ظهور العددالأول والثانى من هذه المجلة ، ليتبين فى جلاء أن مصر مازالت محتفظة بمذهبها الذى اصطنعته لنفسها منذ عرفت المطبعة ، ترقيه وتزيده دقة من يوم إلى يوم . وسيرى القارىء من هذا الحديث الموجز الذى سيقرؤه أن مصر حين تحيي الأدب العربى القديم تحرص دائماً على أن تؤدى مهمتها فى أمانة كل الأمانة ووفاء كل الوفاء وتحقيق للصلة الصحيحة المتينة بين الشرق العربى والغرب العربى ، ثم بين الشرق العربى والغرب الأوربى . وقد كان يخشى أن يصيب مصر فى نشاطها هذا من الحرب وتأثيرها فى حياة الناس المادية والمعنوية ما أصاب غيرها من البلاد ، فتسكن بعد حركة وتخمد بعد نشاط . ولكن مصر احتملت أثقال الحرب الاقتصادية دون أن تفرّط فى هذا الواجب الثقافى الذى فرضته عليها القرون . وقد قلّ نشاطها بعض الشىء فى النشر ولكنه لم يخمد ولم ينقطع . وظلت مصر فى أثناء تلك الأيام الشداد تعنى بنشر الأدب القديم جادة مخلصة مؤثرة هذه العناية على أشياء كثيرة لعلها أن تكون أدنى إلى منفعتها القريبة العاجلة . وليس من شك فى أن انتهاء الحرب وما سيكون من انفراج أزماتها سيرد إلى النشاط المصرى فى إحياء الأدب العربى قوته وسيضاعف هذه القوة ،

وقد أخذت آيات ذلك تظهر ، فهذه دور النشر تستبق إلى البحث عن كنوز القدماء وإظهارها للناس وتقريبها إلى الباحثين .

وبين يدىّ الآن الجزء الأول من كتاب « معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع لأبى عبيد البكرى الأندلسىّ » نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وقام على تحقيقه وضبط نصوصه الأستاذ مصطفى السقا المدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول .

وأبو عبيد البكرى إمام عظيم من أئمة اللغة الممتازين فى الأندلس فى أثناء القرن الخامس الهجرى . وضع كتابه هذا القيم غير مفكر فى الناحية الجغرافية الخالصة ولا معنىٍّ إلا بما تحتاج إليه النصوص القديمة من ضبط وتفسير . فما أكثر أسماء الأماكن والبلاد العربية التى ترد فى الشعر والسير والحديث والتاريخ ، وما أكثر ما يقع فيها من التحريف والتصحيف والاختلاط والاختلاف ، وما أشد حاجة هذه الألفاظ إلى الضبط والتحقيق ! ومن أجل هذا ألّفَ أبو عبيد معجمه هذا الخطير . وقد أكبر القدماء هذا الكتاب ورجعوا إليه وانتفعوا به واعتمدوا على ما يمتاز به من الدقة والضبط . ثم عرفه المستشرقون الأوربيون فى العصر الحديث ، فنوّه به دوزى فى أواسط القرن الماضى وجدّ فى نشره «وستنفلد» فى آخر القرن الماضى بعد أن أبلى فى ذلك أحسن البلاء . ولكن طبعة وستنفلد بعد بها العهد من جهة ولم تيسر للباحثين الشرقيين من جهة أخرى ، ووقع فيها كثير من الخطأ الذى نشأ عن قلة ما أتيح للناشر من النسخ من جهة ثالثة . وقد اشتدت عناية الباحثين من أهل مصر والشرق العربى بدرس النصوص القديمة واستخراج ما فيها من العلم ، فاشتدت حاجتهم إلى الانتفاع بكتاب أبى عبيد . وكان من الخير كل الخير أن يعاد نشره لهم وتقريبه إليهم . من أجل ذلك عنيت لجنة التأليف والترجمة والنشر بإذاعته على نفقة المعهد الخليفى للأبحاث المغربية . ولهذا النشر الجديد فوق مزية الإحياء لهذا الكتاب مزايا أخرى . فقد استطاع الأستاذ السقا أن يعتمد على نسخ مختلفة لم يظهر عليها وستنفلد ، كما استطاع أن يرجع إلى مصادر عربية مختلفة قد اعتمدت على هذا الكتاب ، فجاءت الطبعة الجديدة أدق ضبطاً وأحسن تحقيقاً من الطبعة الأولى .

وقد ألف أبو عبيد معجمه على ترتيب حروف الهجاء عند أهل المغرب ، فكان البحث فيه عسيراً على الشرقيين الذين ألفوا الترتيب الشرقى لحروف الهجاء . فأعاد

الأستاذ السقا ترتيب الكتاب طبقاً لترتيب الحروف كما ألفه الشرقيون . وهو بذلك قد يسر الكتاب للمشارقة والمغاربة جميعاً ، فلا بد آخر الأمر من أن يكون للحروف ترتيب واحد فى جميع الأقطار العربية . وكان أبو عبيد قد اعتمد فى ترتيب معجمه على الحرفين الأصليين الأول والثانى وأسقط الحروف المزيدة من حسابه فى الترتيب ، فاضطر الباحث إلى شىء من العناء غير قليل ، على حين ينبغى لاستعمال المعاجم أن يكون البحث فيها آلياً لا يكلف الباحث أن يستقصى ما كان مزيداً أو أصليا من الحروف . وقد عمد الأستاذ السقا إلى هذا النقص فأكمله ، ورتب المعجم ترتيباً يسيراً يعتمد معه الباحث على مجرد النظر السريع اليسير إلى رسم الحروف .

وكذلك كان نشر هذا الكتاب إحياء لأثر قيم من آثار عالم أندلسى خطير هو أبو عبيد البكرى وإتماماً لجهد خصب من جهود مستشرق أوربى عظيم هو العلامة وستنفلد ، وإذاعة للانتفاع بهذا الكتاب بين الذين يعنيهم أن يدرسوا أدبنا العربى القديم درس تحقيق وتمحيص .

وقد ظهر الجزء الأول من هذا الكتاب ، وبقيت منه أجزاء ثلاثة نرجو أن يتوالى ظهورها فى وقت قريب . وليس يسعنا إلا أن نقدم أصدق الشكر وأخلص التهنئة للذين عنوا بنشر هذا الكتاب وللاستاذ السقا الذى بذل فى نشره ما تعوّد أن يبذل من الجهود الصادقة الخصبة .

شروح سقط الزند لأبى العلاء المعرى (لجنة إحياء آثار أبى العلاء المعرى ، دار الكتب المصرية)

وفى أثناء الحرب أيضاً قررت وزارة المعارف المصرية فى عهد صاحب السعادة نجيب الهلالى باشا أن تشارك فى إحياء العيد الألفى لأبى العلاء بنشر ما يمكن جمعه من آثار الشاعر الفيلسوف العظيم نشراً علميًّا محققاً على حساب الدولة . فألفت لهذا العمل الخطير الشاق لجنة من العلماء الذين يعنون بالبحث والدرس والإنتاج أكثر مما يعنون بالشهرة وبعد الصوت .

وقد أخذت هذه اللجنة فى العمل ، فأخرجت المجلد الأول فى العام الماضى وقدمته إلى المحتفلين بعيد أبى العلاء فى دمشق . وهو مجموعة صالحة قيمة لما كتب عن أبى العلاء منذ القرن الخامس الهجرى إلى هذا العصر الحديث . ثم مضت

فى عملها هذا العام ، فأخرجت المجلد الثانى فى هذه الأيام وهو الجزء الأول من شروح سقط الزند . وقد قررت اللجنة أن تنشر ديوان سقط الزند وشروحاً ثلاثة قيمة لهذا الديوان . أحدها شرح الخطيب التبريزى تلميذ أبى العلاء وقد توفى سنة ٥٠٢ للهجرة . والثانى شرح أبى محمد البطليوسى الأندلسى وقد توفى سنة ٥٢١ للهجرة . والثالث شرح قاسم بن الحسين بن محمد الخوارزمى المتوفى سنة ٦١٧ للهجرة . وهذه الشروح قيمة كلها قد اختلفت مذاهب أصحابها فى الذوق والفهم والتخريج والتفسير ، فكان لاجتماعها حول النص الواحد من نصوص أبى العلاء الغناء كل الغناء والمتعة كل المتعة .

وقد أرادت اللجنة أن تنشر شرح أبى العلاء لديوانه ولكنها لم تظفر به ، كما أن شروحاً أخرى لم تقع للجنة بحكم الحرب وانقطاع الصلة بين الأقطار المختلفة . ولكن عمل اللجنة متصل لا يكاد ينقضى ، ولا يمنعها نشر ما ظفرت به أن تنشر ما يتاح لها الحصول عليه . وهذا العمل كما هو بين أيدينا جليل يكفى أيسر النظر إليه لإقناعنا بأن أعضاء اللجنة قد احتملوا مشقة عسيرة وبذلوا جهداً عنيفاً وظفروا بتوفيق عظيم . ولن يستطيع المثقفون المعنيون بالأدب العلائى والفلسفة العلائية أن يشكروا للدولة المصرية فضلها على الأدب العربى ، ويقدروا للجنة جهدها الصادق إلا بالتوفر على درس هذه الآثار القيمة التى قدّمت إليهم فى العام الماضى وفى هذا العام والتى ستقدّم إليهم فى الأعوام المقبلة إن شاء الله .

الأدب المصرى القديم أو أدب الفراعنة للأستاذ الدكتور سليم حسن بك (لجنة التأليف والترجمة والنشر)

وهذا نوع آخر من إحياء الأدب القديم ينبغى أن يحمد صاحبه ما أنفق فيه من جهد وما أحسن فيه من بلاء . فالأستاذ سليم حسن بك ليس من الذين يفرغون للأدب العربى وإن كان يحب الأدب ويكلف به ، وإنما هو صاحب درس للآثار ، يستخرجها من باطن الأرض ثم يفسرها لعلماء الآثار المصرية ، قد أنفق فى ذلك زهرة حياته وبذل فى ذلك صفوة جهده ، وأغنى دار الآثار المصرية بل مصلحة الآثار المصرية بما أهدى إلى المتحف من طرف وبما أعاد إلى الحياة من معابد وعمارات . ثم أغنى المكتبة المصرية بهذه المجلدات الكثيرة التى

عرض فيها ما استخرج من الآثار ، ونشر فيها ما استكشف من النصوص وقدمها إلى العلماء الإخصائيين . ولكنه لم ينس أمثالنا من عباد الله الذين لم يخصصوا فى الدراسات المصرية القديمة ويحرصون مع ذلك على أن يعلموا من أمر مصر القديمة شيئاً . ومن الخير أن يرفق العلماء الإخصائيون بهؤلاء الناس ، وأن يقدّموا إليهم من عملهم ما يخرجهم من الظلمات إلى النور . وقد رفق بنا الأستاذ سليم حسن ، فألف لنا فى تاريخ مصر القديمة باللغة العربية أسفاراً ليس هذا موضع الحديث عنها .

إنما الحديث عن كتابه الأخير ، وموضوعه الأدب المصرى القديم أو أدب الفراعنة . ولهذا الكتاب قصة ؛ فقد كنت أجادل المؤلف منذ أكثر من عشرين عاما فى أن للمصريين القدماء أدبا يمكن أن يقاس إلى الآداب الكبرى القديمة ويمكن أن يقاس إلى الفن المصرى العظيم ، كان الأستاذ يقول نعم ، وكنت أنا أشك فى هذا التأكيد ، وكان الجدال يشتد بيننا أحيانا فنحتكم إلى المسيو لاكو المدير السابق لمصلحة الآثار ، وكان يحكم لى على الأستاذ ، وكان هذا الحكم يُحفظ الأستاذ إحفاظاً شديداً ، فيؤكد أنه سيقيم الدليل القاطع على أن للمصريين القدماء أدبا يمكن أن يقاس إلى الأدب اللاتينى واليونانى والعربى أيضاً . وفى أثناء هذا أظهر العالم الألمانى المعروف « إرمن » كتابه عن الأدب المصرى القديم ، فطار الأستاذ به فرحا . ثم لم يلبث أن عكف على البحث والاستقصاء ، وأنفق فى ذلك أعواماً طوالا ، وأقبل ذات يوم يحمل إلىّ هذا الكتاب النفيس ليقنعنى بأن للمصريين القدماء أدبا عظيما يمكن أن يقاس إلى هذه الآداب القديمة الكبرى . ولست أدرى أأقنعنى الأستاذ أم لم يقنعنى بعد، فأنا أعترف بأن للكتاب قيمة عظيمة وخطراً جليلا ، وبأنه يكشف لنا عن أشياء كثيرة ، فينبئنا بأن المصريين القدماء قد قصوا القصص وقرضوا الشعر وعرضوا ألواناً من التمثيل .

ولكنى أحس أن فى هذا كله كثيراً من الحق وكثيراً من التكلف أيضاً . وأيسر ما يشككنى فى ذلك هو اختلاف العلماء الإخصائيين أنفسهم فى تصوير هذا الأدب وتقويمه ؛ فالعالم الألمانى إرمن يضع فى هذا الأدب كتاباً ويقفو أثره فى ذلك الأستاذ سليم بك ، والعالم الفرنسى لاكو يشك فى وجود هذا الأدب بالمعنى الذى نفهمه حين نذكر الآداب الكبرى .

بل إن العلماء الإخصائيين لم يتفقوا اتفاقاً دقيقاً على نحو اللغة المصرية القديمة وصرفها فضلا عن ضبط نصوصها واستخراج ما فيها من المعانى القريبة فضلا عن الأسرار البيانية العليا . وما أشك فى أن إرمن وتلميذه مكس پيپر والأستاذ سليم بك يسرفون حين يقارنون من قريب أو بعيد بين التحليل النفسى فى الأدب المصرى القديم والتحليل النفسى عند مارسيل بروست وأمثاله من المحدثين . وستظل هذه القضية معلقة ، حتى يتفق العلماء على قراءة النصوص القديمة وتعمقها وكشف ما فيها من الأسرار البيانية وتمييز ما يكون بينها من اختلاف الأساليب فضلا عن اختلاف المذاهب الأدبية .

ولكن الشىء الذى ليس فيه شك هو أن الأستاذ سليم بك قد أنفق جهداً عنيفاً خصباً ، ووفق إلى نتيجة رائعة بما عرض علينا من ألوان الحياة العقلية للمصريين القدماء . فنحن نقرأ هذا الكتاب فيعترضنا الشك هنا أو هناك ، ولكننا نعلم أشياء كثيرة كنا نجهلها ونتوقع العلم بأكثر منها حين يكثر الاستكشاف ونشر النصوص .

وإذا كان لى أن أتمنى شيئاً فهو أن تشتد عناية المصريين بهذا اللون من التراث المصرى القديم ، وأن تشيع العناية به فى الجامعتين وفى معاهد العلم حتى فى المدارس الثانوية نفسها . فمن أخطر الواجبات على المصريين أن يتعمقوا العلم بتراثهم القديم . وقد ثبت بالطرق القاطعة أن المصريين قد كانوا أساتذة غيرهم من الأمم فى الفن ، ومن يدرى ! لعله أن يثبت بالطريقة القاطعة أيضا أن المصريين قد كانوا أساتذة غيرهم من الأمم فى الأدب . ومهما يكن من شىء فقد أسدى الأستاذ سليم بك إلى قراء العربية يداً أى يد بما أهدى إليهم من هذه الطُرفَ التى يجد القارئون لها أعظم اللذة وأقوم المتاع .

الزمان الوجودى للدكتور عبد الرحمن بدوى (مكتبة النهضة) .

وتستطيع أن تقول الوجود الزمانى . وما أحب أن أشق عليك ولا أن أشق على نفسى بتفسير هذا العنوان فى السطور القليلة التى أنوه فيها بهذا الكتاب .

فالدكتور عبد الرحمن بدوى شاب ممتاز بأدق ما لهذه الكلمة من المعانى وبأوسع ما لها من المعانى أيضاً . درس الفلسفة فى كلية الآداب ، وتخرج على جماعة

من الفلاسفة الفرنسيين النابهين ، واستكشف نفسه وطريقه قبل أن يحصل على درجة الليسانس . ولم يكد يظفر بهذه الدرجة حتى كان متعمقاً للفلسفة مجيداً للغات الأوربية الأربع الكبرى : الانجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية . وقد فتنته الفلسفة الألمانية فتوناً شديداً ، ففرغ لها وعكف عليها ، وأكاد أقول انه انفرد بإتقانها بين زملائه المصريين . وفى هذه الفلسفة الألمانية وضع رسالته التى نال بها درجة الماچستير ، وفى نفس هذه الفلسفة الألمانية المعاصرة وضع هذا الكتاب الذى نكتب عنه الآن ونال به درجة الدكتوراه . وخير تفسير لهذا الكتاب الذى لم يوضع لعامة المثقفين وإنما وضع للمتخصصين هو التصدير الذى يقول فيه المؤلف : غاية « الموجود أن يجد ذاته وسط الوجود . وها هنا صورة إجمالية لمذهب فسرنا فيه الوجود على أساس الزمان ، وحاولنا تحقيق هذه الغاية للإنسان » . فالفكرة الأساسية فى هذه الفلسفة التى شاعت فى ألمانيا فى الأعوام الأخيرة هى أن يستكشف الإنسان نفسه من طريق وجوده معرضاً عن كل الأصول الفلسفية التى اصطنعها الفلاسفة إلى الآن فى استكشاف الكائنات . فالوجود هو الغاية والوجود هو الوسيلة ، وكل شىء يدور حول الوجود وحوله وحده .

ولم يعرض الدكتور بدوى هذا المذهب عرضاً سريعاً مقتضباً ، وإنما استعرض المذاهب الفلسفية فى الزمان والوجود منذ فلسف الإنسان فى دقة ونظام ، ونقد هذه المذاهب ، ثم عرض المذهب الجديد عرضاً مفصلا ، وانتهى به إلى غايته التى تقتضى تغيير منهاج التفكير الإنسانى من أساسه ، ووضع مقولات جديدة للتفكير الجديد ترجع كلها إلى ذات الإنسان من حيث هو إنسان . والمهم فى هذا الكتاب شيئان : الأول أن المؤلف لا يعرض آراء غيره عرض الفاهم المستقصى فحسب ، وإنما يشارك فى هذه الآراء ناقداً مبتكراً فى كثير من الأحيان ، وهو من هذه الناحية فيلسوف لا ناقل . والثانى أنه أول من أدخل فى اللغة العربية هذا المذهب الفلسفى الجديد ، وقد أدخله فى اللغة العربية فى نفس الوقت الذى كان بول سارتر يدخله فى اللغة الفرنسية . ولا بد من أن نشير إلى أن هذا المذهب هو البدع الجديد فى ألمانيا وفى فرنسا الآن ، يكلف به الشباب كلفاً شديداً لأنه يقوى الشخصية الإنسانية ويدفعها إلى الثقة بنفسها والإيمان بقوتها والاندفاع إلى نوع من النشاط العنيف والتسلط على غيرها من الكائنات . وستبين الأعوام

المقبلة مقدار ما فى هذا المذهب من القوة على المقاومة والثبات لنقد الفلاسفة والمفكرين.

ولو قد كان إلىّ أمر الجامعة أو أمر الثقافة فى مصر لما قصرت فى رعاية هذا الفيلسوف الشاب، ولوجهته إلى درس الفلسفة فى بلاد أخرى غير ألمانيا وفى جو آخر غير جو إدجر. فقد يخيل إلىّ أن جوّ الفلسفة الألمانية قد استأثر بهذا العقل الخصب القوى استئثاراً خطراً يوشك أن يحد من آفاقه، ومن حق الآفاق أن تتسع.

فما أجدر هـذا الفيلسوف الشاب بأن تتاح له رحلة طويلة يلم فيها بالبيئات الفلسفية فى فرنسا وانجلترا وأمريكا.

من تاريخ الالحاد فى الاسلام دراسات ألف بعضها وترجم الآخر للدكتور عبد الرحمن بدوى (مكتبة النهضة)

عنوان فيه شىء من البشاعة دفع إليه الإهمال أو دفعت إليه حماسة الشباب، ولكنه على كل حال لا يدل على شىء خطر، وإنما يلفت ويخيف أول الأمر ثم لا يلبث أن يرد القارئ إلى الدعة والهدوء. فلم يقصد المؤلف إلى أكثر من أن يتتبع تاريخ حرية الرأى فى عصر من عصور الحضارة الإسلامية. وهو لم ينفرد بتأليف هذا الكتاب ولكنه لم يشارك فى تأنيفه، وإنما كتب بعضه وترجم فصولا كتبها جماعة من المستشرقين عن بعض ظواهر الإلحاد أيام العباسيين.

والمؤلف متأثر دائماً بالفلسفة الألمانية تأثراً شـديداً، وهو يستعرض مع زملائه الذين ترجم عنهم حركة الزندقة ومقاومة السلطان لها، ثم ظهور جماعة من الغلاة فى الفكر الحر أثناء القرن الثالث والقرن الرابع.

والنتيجة التى يخلص إليها القـارئ هى أن الدولة الإسلامية كانت سمحة أشد السماحة، تقدر حرية الرأى ولا تفتن الناس عن مذاهبهم لا يستثنى من ذلك إلا عصر المهدى الذى اختلطت فيه الزندقة بالمعارضة السياسية اختلاطاً شديداً.

وليس الكتاب إلا جزءاً من عمل ضخم يحدثنا المؤلف أنه سيحاول إتمامه. ومن أجل هـذا لا نتعجل النقد وإنما ننبهه إلى أنه لم يصل كما ينبغى بين هذه الحركة الفكرية العنيفة وبين الحركات السياسية التى ظهرت فى القرن الثالث

والرابع وانتهت إلى انحلال الدولة العباسية . فليس من شك فى أن انتشار الثقافة وحرية المثقفين واتصالهم بالجماعات ، كل ذلك أثار حركة البابكية وحركة الزنج وحركة القرامطة .

جوته : **الانساب المختارة** ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى (مكتبة النهضة)

والدكتور عبد الرحمن بدوى نشيط لا يكل ولا يمل ، فهو لم يقدم إلىّ هذين الكتابين اللذين تحدثت عنهما وحدهما ، وإنما قدم إلىّ كتاباً آخر هو هذه القصة الرائعة من قصص جوته ترجمها من الألمانية إلى العربية . وعنوان هذه القصة واسم صاحبها يكفيان للتنويه بها . ولكن ليس بد من أن نقول إن كثيراً من نقاد جوته يؤثرون هذه القصة على كل ما كتب من القصص . وهى مزاج رائع من الأدب والفلسفة معاً . والفكرة فيها يسيرة جدًّا ولكنها خصبة كل الخصب ، فهى لا تعدو الأثر المشهور « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » .

فلنحمد للدكتور بدوى نشاطه هذا العظيم ، ولنتمنّ على الله أن يكون مثلا لأترابه من الشباب، إذاً تظفر اللغة العربية بثراء ضخم وغنى عريض .

ط حسين

فى مجلات الشرق

أقوى من الفتنة

قال الدكتور شكيب الجابرى فى مقال له فى مجلة «الاصداء» التى تصدر فى دمشق العدد ٣٦ يصف صديقاً : « عرفته فى جنيف قبل بضعة عشر عاما شابا وسيما لوحته الشمس الشرقية ، فكانت سمرته من النوع الشهىّ الذى يثير إعجاب الأوربيين . وسعت فى شعره الحالك تجاعد واسعة ، واتقدت عيناه الفتيتان ببريق أخاذ ، وصفت نفسه ، وتنزه لسانه ، فكان له حيث ذهب لقاء جميل .

كان يسأل عن جنسيته فيجيب على الفور : إنى عربى . وما سمعته قط يقول إنى سورى ، إلا إذا اجتمع بعضنا إلى بعض فكان منّا كتلة عربية فيها : المصرى ، والعراقى ، والفلسطينى ، والمغربى ، والسورى . فقد آمن أنه ينتمى إلى وطن كبير جدا يمتد من أقصى العراق إلى أقصى المغرب . وإن ما قام من فروق بين العراق ومصر ، أو لبنان وسوريا ، فالفروق التى تكون بين بلدين متجاورين فى صعيد واحد . . .

روفائيل بطى

وفى هذاالعدد استمر الاستاذ بديع حقى فى كتابة مقالاته تحت اسم «أشعة وظلال» ، وفيه يصف الأديب العراقى « روفائيل بطى » :

ترى أى مصادفة حلوة ، ساقها القدر لأُلم عيابى ، وأطوى « أشعتى وظلالى » ثم أتخذ سمتى إلى بغداد ، فألقى فيها الجواهرى وخالد الدره ورفائيل بطى ، حتى اذا قضى الله أن أعود الى دمشق وفى القلب نزوع وشوق الى بلد

الرشيد شرعت أنسج من جديد « أشعتى وظلالى » ورحت أمنح من ذاكرتى صورة الصديق روفائيل : معتدل القوام الى الطول هادئ السعى وكأنه يثق من الوصول الى غايته ، فى وقته الذى حدده لنفسه . . . .

واذا أدمت النظر فى معارف وجهه ألفيت خطوطا تشى الى أن الرجل قد استهدف «الخمسين» وإن كانت حمرة خديه وصلابة جسمانه تشده إلى «العشرين» وتومى الى أنه لما يزل فى عفرة صباه . . .

أراد أن يكون محاميا ولكن الأدب والصحافة اصطلحا على إغرائه واجتذابه فنزع اليهما وأنفق فيهما سحرة شبابه ولعله أن يكون فيهما أدنى لحيزته ومزاجه وأوفى بميله وحاجته ، وقد بلغ بكليهما ، أو باالصحافة وحدها مايريد كل عصامى من قوة وأيد ، ونباهة وصيت حتى زحمت صحيفة « البلاد » آفاق العراق بما توفر فيها من أمانة ودراية وعناية . . .

والاستاذ روفائيل ثبت عجيب ومرجع حافل لكل ما كتب فى الأدب الحديث وهو معنى بهذا ، منصرف اليه ، فلا تكاد تند عن ذاكرته مقالة أو بحث أو قصيدة صافحت عينيه . . .

الدكتور نقولا فياض

وأراد الأستاذ كرم ملحم كرم أن يصور لنا صورة أديب آخر من أدباء العالم العربى فنشر فى مجلة «الأديب» التى تصدر فى بيروت فى الجزء العاشر من السنة الرابعة بحثاً عن الدكتور نقولا فياض يقول فيه : إن تكن القافلة الأولى فى عهد البعث تبدأ بالشيخ نصيف اليازجى ، ومن رجالها المعلم بطرس البستانى ، واحمد فارس الشدياق ، ويوسف الأسير ، وإبراهيم الأحدب ، وخليل الخورى ، ومارون النقاش ، وإن تكن القافلة الثانية تظل تحت لواء الشيخ إبراهيم اليازجى ومن أبطالها : أديب إسحاق ، ونجيب الحداد ، ومحيي الدين الخياط ، وإبراهيم الحورانى ، وتامر الملاط ، وعبد الله البستانى ، وسليمان البستانى ، وجبر ضومط ، وعيسى المعلوف ، فالدكتور فياض من رجال القافلة الثالثة الحافلة بخليل مطران ، وشكيب ارسلان ، ومصطفى الغلاييني ، وشبلى الملاط ، والياس فياض ، وأمين تقى الدين ، وطانيوس عبده ، وأمين ناصر الدين ، وإبراهيم المنذر ، وبشاره

الخورى ، ونجيب نسيم طراد ، وجبران خليل جبران ، وأمين الريحانى ، وفيلكس فارس ، وداود مجاعص ، ووديع عقل ، وأسعد رستم ، وجورجى شاهين عطيه . . .

والطابع المتجلى فى القافلة الثالثة هو طابع الخطابة والشعر . فالعهد فرض عليها الوقف على المنابر وصوغ القريض فأجادت الفنين . وكان للنهضة التمثيلية يدها الطولى على هذه الفئة المحترفة الأدب تودعه مواهبها . . .

ومصر حضنته وقد أدركت قدره ، فكتب فى صحفها ومجلاتها الفصول المشفعة درساً وروعة ، حتى أن الدكتور شبلى الشميل عرض عليه إعادة مجلة الشفاء ، إلى الصدور . وهى مجلة الفيلسوف شميل البعيدة الشهرة ، ولكن فياضاً اكتفى بالطبابة والأدب ، ففتن بخطبه وقوافيه ، فهو خطيب وشاعر معاً .

أبو الطيب الكندى

وفى مجلة «الثريا» التى تصدر فى تونس يوالى نخبة من أدباء تلك البلاد نشر البحوث البديعة ، وفى طليعتهم العلامة الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب باشا وزير القلم . وقد نشر فى العدد الخامس بحثاً طريفاً فى أبى الطيب الكندى وهو عبد المنعم بن محمد بن ابراهيم الكندى . أبو الطيب بن أخت العالم الكبير ابى على الحسن بن خلدون . . . . ، وهذا الفاضل من نبلاء علماء القيروان فى زمان النهضة الأفريقية ، درس ببلده على أعيان الشيوخ مثل : خالد بن خلدون ، ومحمد بن شعبان وغيره . ثم قصد الحجاز لأداء الفريضة ، وتجول فى أنحاء الشرق ومهر فى العلوم لاسيما الحساب والهندسة والمقابلات وسائر الفنون الرياضية المعروفة فى ذلك الزمان ، وعاد إلى مسقط رأسه القيروان ، واشتغل بتدريس العلوم النظرية مع إتقان العربية والحديث والأصول وغيرها . . .

. . . نقل القاضى عياض عند التعريف به قال : « كان دبر جلب ماء البحر من ساحل تونس إلى القيروان وسوقه خليجاً من هناك بنظر هندسى ظهر له » ثم زاد عياض : « فاخترمته المنية قبل إنفاذ رأيه وظهور ما دبر منه » وقيل إنه وضع رسالة مستقلة فى بيان ما فكر فيه .

يفهم من عبارة القاضى عياض المتقدمة ، أن أبا الطيب الكندى فكر فى مشروع عجيب ، وهو جعل مدينة القيران مرسى بحريا تصل إليه السفن والمراكب ، مثلما يصنع اليوم بالعواصم الكبيرة التى لا تبعد كثيراً عن ساحل البحر ، تسهيلا للمواصلات وترويجاً للبضائع والمصنوعات ، ومن بين تلك المدائن مرسى تونس الذى حضر فى العهد الأخير وصير عاصمة البلاد من أهم مرافئ البحر المتوسط .

والذى يلوح لى من هذه الفكرة البديعة هو أن هذا الأمر كان قابلا جداً للتنفيذ وأن تطبيقه كان سهلا ميسوراً . وبيان ذلك أن القيروان لا تبعد عن ساحل البحر — من ناحية هرقلية (هرقلة الآن) إلا ما يقرب من خمسين كيلومتراً فقط .

مطران فى بيروت

نشرت مجلة « الطريق » التى تصدر فى بيروت فى عددها الرابع عشر من السنة الرابعة — بين مقالات وقصص بديع حديثاً شيقاً للأستاذ الجليل خليل مطران شاعر الأقطار العربية عن الأدباء : طه حسين ، واحمد أمين ، وعمر فاخورى . ونحن نقتبس من هذا الحديث ما يبشرنا به الشاعر العظيم إذ قال فيه إنه يعد للطبع مجموعة شعرية كبرى باسم « الطغاة » ومجموعة ثانية تضم شعره الجديد وهى مؤلفة من ستة مجلدات وتحتوى قصائد مختلفة منها : المبتكرات ، وانهيار الدولة العثمانية ، وقيام الدولة العربية ، ومصر فى ٤٠ سنة ، ولبنان والشام ، واوصف المتعدد . وقد تفرغ الشاعر الكبير الآن للعمل بعد استجمامه فى لبنان ، فى إعداد هذه المجموعات للطبع بعد التعليق على قصائدها لتفسير الأسباب التى بعثتها ، وثمة كتب نثرية أيضاً ، وكتب مترجمة كثيرة . وسيتبرع بواردات هذه الكتب جميعاً لبناء معاهد التربية الأيتام ، ومعاهد لتعليم المهن الصغرى فى بيروت ، وبعلبك ، و القاهرة .

وقراء العربية يتشوقون بالطبع إلى هذه الآثار القيمة لأستاذ الشعراء المعاصرين .

جائزة الكاتب المصرى للقصة

قررت دار الكاتب المصرى التى يشرف عليها الدكتور طه حسين بك من الناحية الثقافية إنشاء جائزة سنوية للقصة قدرها مائة جنيه .

وهى تدعو الكتاب والمؤلفين إلى الاستباق لنيل هذه الجائزة .

وستحكم بين المستبقين لجنة مكونة قوامها خمسة من كبار الأدباء الممتازين فى مصر — وقد حددت آخر موعد لتقديم القصة يوم ٣١ يناير سنة ١٩٤٦ .

١ — المسابقة مفتوحة للكتاب العرب جميعاً على اختلاف الأقطار العربية فى الشرق والغرب .

٢ — الكاتب حر فى اختيار الموضوع الذى يكتب فيه لايقيد بزمان ولا مكان ولا بيئة ولا اتجاه .

٣ — يجب أن تمتاز القصة بالابتكار وقوة الخيال وجمال اللغة العربية فى الشرق والغرب .

٤ — القصة التى تظفر بالجائزة ملك لدار الكاتب المصرى تطبعها وتذيعها على أن تحتفظ لصاحبها بحق المؤلف وقدره عشرون فى المائة من ثمن البيع الفعلى بعد الخصم — وهذا الحق مستمر مهما تتعدد الطبعات . وكل ذلك يجرى طبقاً للنظام المعمول به فى دار الكاتب المصرى والذى يستطيع كل كاتب أن يطلع عليه .

٥ — يجوز لدار الكاتب المصرى أن تطبع القصة الثانية إذا أوصت بذلك لجنة التحكيم وقبله صاحب القصة فى حدود النظام الذى أشير إليه فى البند السابق .

٦ — يرسل الكاتب نسختين من قصته مكتوبة على الآلة الكاتبة أو بخط واضح بعنوان دار الكاتب المصرى شارع قنطرة الدكة رقم ٥ — القاهرة — ولا تقبل أى قصة تصل بعد تاريخ ٣١ يناير سنة ١٩٤٦ .

الكاتب المصرى

مجلة ادبية شهرية

تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

وتطبع بمطبعتها

رئيس التحرير

طه حسين

سكرتير التحرير

حسن محمود

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

الاشتراك

يدفع مقدماً باسم « الكاتب المصرى »

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان

١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو مايعادلها

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل مايرد اليها من المقالات
والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

الثمن بمصر : ١٠ قروش

مطبعة الكاتب المصرى شركة مساهمة مصرية